المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية
مكة المكرمة

دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة
أماني بنت جعفر بن صالح الغازي

الجزء الأول

إشراف الأستاذ الدكتور
يوسف بن علي بن رابع الثقفي

١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص المادة

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد ...

هذه الرسالة بعنوان ((دور الإنكشارية في إضعاف الدولة العثمانية)) تشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة ، إضافة إلى عدد من الملاحق وقائمة المصادر والمراجع.

تضمنت المقدمة على بيان بأهمية الدراسة ومصادرها وتوضيح مراحل إنجازها، واختص التمهيد بتعريف مصطلح الإنكشارية وأصل الكلمة مع توضيح لمعنى كل مقطع فيها .

أما الفصل الأول فقد ركز على نشأة الإنكشارية في ثلاث مباحث ، الأول منها : خصص لمعالجة الأوضاع العسكرية في أوائل العهد العثماني ، بينما خُصص المبحث الثاني لموضوع تأسيس الإنكشارية ، أما المبحث الثالث فقد ركز على مناقشة آراء المستشرقين الذين هاجموا الإنكشارية والرد عليهم بالأدلة والبراهين .

وعالجت الدراسة في الفصل الثاني موضوع ((تسلط الإنكشارية وجبروتهم)) وفيه ثلاث مباحث ، الأول منها ناقش أساليب تمرد الإنكشارية وزيادة ثوراتها مع مرور الزمن ، وعالج المبحث الثاني موضوع نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني وعزلهم للسلاطين والوزراء بل وقتلهم للبعض منهم ، بينما ركز المبحث الثالث على تدخل الإنكشارية في مسائل السياسة العليا .

وفي الفصل الثالث ركزت الدراسة على موضوع ((تفاقم خطر الإنكشارية)) وأفرد لذلك مبحثين الأول منها يتعلق بموقف الإنكشارية من النظم العسكرية الحديثة ، والثاني خلص بإلغاء فيالق الإنكشارية كما ناقش وجهات النظر حول إلغاء الإنكشارية ومدى مصداقية ذلك .

وفي الخاتمة ركزت الدراسة على تقديم أهم النتائج التي تمثل خلاصة محتويات فصول البحث.

وذيلت الرسالة في الأخير ببعض الملاحق وقائمة المصادر والمراجع والله الموفق .

الطالبة	المشرف	عميد الكلية
أماني جعفر الغازي	أ.د. يوسف بن علي الثقفي	الشريعة والدراسات الإسلامية
		د. عابد بن محمد السفياني

Abstract

Praise is to Almighty Allah, Peace and Prayers may be upon his messenger, Mohammed, the son of Abdullah, and upon his follower as all.

This research is titled “the impact of Inkshari troops in Othman state’s decay” The research is divided into an introduction , preface, three chapters, conclusion , additional appendix, and references .

The introduction discusses the importance of the study, its references and the stages of fulfilling the study . The preface shows the meaning of Inkshari term, the word origins.

The first chapter concentrates on the beginnings of the Inkshari troops.It is divided into three topics. The first is dedicated to deal with the military situations in the early time of the Othman State . The second is about the establishing the Inkshari troops, while the third topic is about the western scholars points of view about the Inkshari establishment and refusing their views by showing the required proofs .

The second chapter with the “demonstration of the Inkshari troops and their mightiness over the Othman state” . This chapter was divided into three topics, the first one is about the Inkshari disobedience and their increasing revolution . The second topic is about their demonstrations upon the Royal court of the Othman state. They controlled the disappointment of the Othman Sultans and ministers. In sometimes, they killed some of them. The third topic is about the Inkshari interference in the high rank political points .

The third chapter is about the decreasing of the of Inkshari troops on the Othman state . The researcher dedicates two topics in that chapter , the first one is about the Inksharis points of view towards the modern military systems in that time . The second topic is about eliminating the Inkshar legions and deals with the different points of views about canceling of Inkshari troops, also and the validity of this decision .

The conclusion concentrates on introducing the main results and commendations which represents the outline of the researchs chapters. By the end of the research, there are some appendixes and the researchs references .

Student	Supervisor	The Dean of Shara’a College
Amani. J. AL-Ghazi	Full Prof. Yousef AL-Thakafi	Dr. Abed M.Assofiyani

المقــــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله والصـــلاة والســـلام على سيد المرسلين وأشرف خلق العالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبهِ أجمعين .

قال تعالى (**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون**) [سورة المائدة آية ٣٥]

وقـــال تعالى (**أنفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذالكم خير لكم إن كنتم تعلمون**) . [سورة التوبة آية ٤١]

وقال تعالى (**وجاهدوا في الله حق جهاده**) [سورة الحج آية ٧٨]

ومـــن هـــذا المـــنطلق التشريعي في نشر الإسلام ، قامت الدولة العثمانية بفتوحات عظيمة وصلت بها في التاريخ الحديث إلى أن أصبحت مـــن أعظـــم الدول وأكثرها اتساعاً . ومن هنا تكمن متعة دراسة تاريخ الدولة العثمانية ، وما حققته من إنجازات في عدة مجالات.

وكـــان لفـــرقة الإنكشـــارية الدور الفاعل في الفتوحات الإسلامية العثمانـــية ، ثم تداخلت عدة أسباب أدت إلى أن يكون لها أثر في ضعف الدولـــة وســـقوطها في النهاية ، ولهذا كانت الإنكشارية في نظر معظم المؤرخيـــن من العوامل الرئيسة التي أدت إلى سقوط الدولة العثمانية ، ونظراً لعدم وجود دراسة مستقلة لإثبات هذه الحقيقة من عدمها فقد أشار علـــي المشـــرف سعادة أ. د. يوسف علي الثقفي باختيار هذا الموضوع ليكون عنواناً لرسالتي لمرحلة الماجستير .

وإن كانت الإنكشارية أحد أهم المؤسسات التي لعبت دوراً مهماً في تأســـيس الدولـــة العثمانية وارتفاع نجمها إلى عنان السماء بالانتصارات

التي حققتها في كثير من الحروب . فإن هذا يجعلها جديرة بأن تأتي على رأس العناصـــر المســتهدفة في هدم الدولة العثمانية ، فلا نستغرب إذا وجدنا أن كثيراً من الأوردة الخارجية غذت هذه الفرقة لإفسادها .

ومن هنا جاءت أهمية الدراسة حيث تجمع خيوط وجذور الصراع مـــا بين الإنكشارية والسلاطين مع التعمق في أسباب هذا الصراع الذي تخللــته كثــير مــن صور الصدام العنيف الدامي ، حتى انتهى المطاف بالقضاء على هذه الفرقة بطريقة عنيفة فيما سمي بالوقعة الخيرية .

والدراســة تلقــى الضوء على خلفيات وآفاق هذا الصراع بحيث تكشف حقائق جديدة في الكتابة التاريخية العثمانية .

وقد حرصت على استقاء المادة العلمية لهذه الدراسة من مصادرها الأصلية ، حيث تمكنت بفضل من الله وتوفيقه من القيام برحلتين علميتين الأولـــى إلـــى القاهرة ، حيث تمكنت من الحصول على بعض المصادر والمـــراجع من الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، والتي كونت قـــاعدة معلومـــات البحث ، أما الرحلة الثانية فكانت إلى إستانبول حيث زرت أرشـــيف رئاســـة الـــوزراء وقمت باستخراج الوثائق ذات الصلة الوثيقة بالموضوع ، كما زرت أرشيف توب قابي سراي ، وأستفدت من الوثـــائق والفـــرمانات الموجـــودة في الأرشيف ونقلت من هذه الوثائق المعلومات التي تخص موضوع الدراسة .

كما قمُت بجمع بعض الكتب القديمة التي كُتبت بالخط العثماني من المكتبات العامة . والتي أفادت في إثراء معلومات البحث . وكانت رحلة إستانبول مفيدة جداً في جمع المادة العلمية للدراسة .

على أن أهم الصعوبات التي واجهتني هي عدم اتقاني للغة التركية. مما أثر على عدم الحصول على الوثائق المطلوبة بسهولة ، واستلزم الأمر الانتظار وقتاً طويلاً حتى يتم ترجمتها في مركز للترجمة في إستانبول ، ثم يتم إرسالها عن طريق البريد .

كذلك عانيت الأمرين لكي أتمكن من الدخول للإرشيف العثماني نفسه فالأمر يتطلب إجراءات طويلة تمتد إلى عدة شهور حتى يتم استخراج إذن الدخول ، فبداية الإجراءات في القنصلية التركية في جدة ، وينتهي المطاف باستخراج الإذن من أنقرة لدخول الأرشيف واستخدام الوثائق في نطاق زمن محدد يوضع مسبقاً ، كما أن طلب أرشيف طوب قابي سراي له إجراءات أخرى ويحتاج إلى أذن خاص به وهذا ما زاد الأمر تعقيداً .

ومن الأمور التي لاحظتها أثناء جمع المعلومات هو ندرة المراجع الدقيقة الحيادية ، فعلى الرغم من أن كثيراً من المؤرخين والمفكرين السياسيين كتبوا عن الدولة العثمانية إلا أن كتاباتهم جاءت مكررة لما سبق تدوينه وينقصها الدقة ، في أغلب الأحيان . ويرجع ذلك إلى أن كثيراً من الكتب طبعت منذ فترة طويلة ونفذت من الأسواق ولم يعاد طبعها وبالتالي يصعب الحصول عليها .

أما عن أهم المنابع التي استقيت منها المادة العلمية للدراسة ، فقد اعتمدت على وثائق غير منشورة من أرشيف رئاسة الوزراء وأرشيف توب قابي سراي ، وقد ترجمت خصيصاً للدراسة ، كما رجعت إلى

مخطوطـــات تركـــية تحدثـــت وعاصـــرت الوقعة الخيرية وإلغاء فيالق الإنكشارية . ومن أهمها مخطوط أس ظفر لمحمد أسعد .

أما عن المصادر والمراجع التي استعنت بها فقد كانت في الأغلب تركـــية غير مترجمة مثل علي رشاد ، عبد الرحمن شرف ، كامل باشا، تاريخ أبي الفاروق ، إسماعيل حقي أوزن جارشيل .

أما المصادر العربية فأهمها محمد فريد المحامي ويلمازا وزتونا ، أحمد جودت ، إسماعيل سرهنك .

وهـــناك بعض المراجع التي أفادت البحث ولا يمكن إنكار فضلها علـــى الدراســـة . وبالنسبة للكتب التي أخرجها المستشرقون عن الدولة العثمانـــية ، ومـــن سار على نهجهم ، فقد أخذت بعين الاعتبار وهي بلا شـــك تمـــثل وجهة نظر معينة ، كما أن معلوماتها في أغلب الأحيان لا تتصـــف بالصدق والحيادية والموضوعية ، إلا أنها على أي حال حملت في طيات صفحاتها الكثير من المعلومات المفيدة والتي أخضعتها للتحليل والاستنتاج والخروج بكثير من المعلومات التي تخدم موضوع الرسالة .

أمـــا فيما يتعلق بالخطة التي سار عليها البحث فهي تتضمن تمهيداً وثلاثة فصول إضافة إلى الخاتمة والملاحق وقائمة المصادر والمراجع .

تضـــمن التمهيد تعريف وشرح لمصطلح الإنكشارية وأصل الكلمة مع توضيح لمعنى كل مقطع فيها ، إضافة إلى تعريف لكلمة دوشرمة .

أمـــا الفصـــل الأول فقد اشتمل في البداية على التشكيل العسكري السائد في أوائل العهد العثماني قبيل تأسيس الإنكشارية ، وحيث اعتمدت الدولـــة العثمانـــية فـــي فـــترة مبكرة من تاريخها على المجاهدين الذين

يجـــتمعون وقـــت الجهـــاد ، ثم اعتمدت على فرقة المشاة ، ولكن تطور الحـــركة الجهاديـــة في الدولة العثمانية أوجب تأسيس فرقة مشاة دائمة مهمتها الجهاد في سبيل الله أطلق عليها فيما بعد " الإنكشارية " .

ثم تطرق الفصل إلى إنشاء وتأسيس هذه الفرقة وأهم الأنظمة التي وضـــعت لهـــا ، مـــع مناقشـــة أهـــم آراء المستشرقين ، الذين هاجموا الإنكشـــارية ووصـــموا فرقـــتها بالعـــار عن طريق ما أسموه بضريبة الغـــلمـــان ، والـــرد عليهم بالأدلة والبراهين لإثبات أنها مجرد ترهات وتشويه لهذه الفرقة المجاهدة في سبيل الله .

أما الفصل الثاني فقد اختص بشرح أسباب تمرد الإنكشارية وزيادة ثوراتهـــم مـــع مـــرور الزمـــن ، مع دراسة لأهم الأسباب سواءً كانت اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية ونفسية . كما تضمن هذا الفصل ثورات الإنكشـــارية داخـــل القصر السلطاني ، وعزلهم للسلاطين والوزراء بل وقـــتلهم للـــبعض مـــنهم وذلك من منطلق سيطرتهم وتحكمهم في سياسة القصر الداخلية ، حتى تم القضاء عليهم .

كمـــا عالج هذا الفصل دورهم الواضح في إيقاف بعض الفتوحات والمعارك ، وتعديهم على حرمة أهالي البلاد المفتوحة ، ونهبهم وسلبهم للأموال والأعراض ، ونقضهم لكثير من المعاهدات ، إضافة إلى تبرمهم الواضح والدائم من الحرب .

أما الفصل الثالث فقد تناول محاولات الإصلاح الحثيثة التي قام بها الســـلاطين وجـــاءت ضد رغبات الإنكشارية فوقفت منها موقفاً عدائياً ، واعتـــبرت الـــتعلم على الأسلحة الحديثة ضلالاً وكفراً ورفضتهُ تماماً ،

وينتهي الفصل بمناقشة الآراء التي دارت حول القضاء على الإنكشارية، ومدى صحة هذه الخطوة الجريئة التي قام بها محمود الثاني.

وفـــي الخاتمة تعالج الدراسة أبرز ما توصل إليه البحث من نتائج وحقائق تاريخية تثبت دورهم الفعال في إضعاف الدولة العثمانية .

وأخـــيراً : أود الإشـــارة إلى أن ما قمت به من عمل فهو محاولة علمـــية لطالبة علم مبتدئة في مشوار البحث العلمي فإن أصبت فيما قمت بـــه فهـــو توفيق من الله تعالى وإن أخطأت فأستغفر الله تعالى من الخطأ وجلّ من لا يخطئ .

وإنني بعد هذا الجهد أشكر الله تعالى أن وفقني للقيام بهذا العمل ، ومـــن باب الوفاء والتقدير أشكر كل من له علاقة في إنجاز هذا العمل ، وأبدأ ذلك بوالدي الكريمين فلهما الشكر والتقدير لتشجيعهما لي بمواصلة الدراسة ودعائهما الدائم لي بالتوفيق والهداية ، ودعمهما المتواصل الذي لا حدود له .

والشـــكر موصـــول إلـــى أستاذي المشرف سعادة الأستاذ الدكتور يوسف بن علي الثقفي الذي تابع مسيرة البحث من بدايتها ولم يبخل علي بالتوجيه والمراجعة والنصح والتقويم فله مني الشكر ، كما لا يفوتني أن أشـــكر منسوبي قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية وعلى رأسهم أ.د عـــبد الله ســـعيد الغـــامدي علـــى دعمهم وتشجيعهم في كل ما يخدم مصلحة طلاب وطالبات القسم . ولا أنسى أن أتقدم بجزيل الشكر لأخوتي على دعمهم لي ومساعدتي على اجتياز الصعاب والعقبات ، كما أود أن أتقدم بالشكر الجزيل للدكتورة أميره بنت علي مداح على نصائحها المهمة

التي أنارت طريقي في البحث ، وأشكر كلاً من أرشيف رئاسة الوزراء بأســتانبول وأرشــيف تــوب كابـــي سراي ، ومركز الفرقان بإستانبول ومركز بحوث آسيا بالقاهرة ، والهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، كما أتقدم بجزيل الشكر لمكتبة الملك فهد الوطنية ومركز الملك فيصل الإسلامي ودارة الملك عبد العزيز ومكتبة جامعة الملك عبدالعزيز بجدة على تقديم المادة العلمية اللازمة للبحث.

كمـــا أتوجه بالشكر إلى الأستاذين الفاضلين عضوي لجنة الفحص والمناقشـــة . راجية من الله تعالى أن يكون هذا العمل المتواضع إسهاماً علمياً ويستفيد منهُ المتخصصون في مجال التاريخ الحديث وغيرهم ممن يهتم بتاريخ الأمم والشعوب الإسلامية .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

التمهيد

تعريف مصطلح الإنكشارية

التمهيد :

تعريف مصطلح الإنكشارية :

لقـــد اعتمد العثمانيون منذ نشأتهم على القوة العسكرية وذلك على إعتـــبار أنهـــا القـــوة المؤثرة ، والعامل الرئيسي في نشر الإسلام وبهذا أصـــبح الجـــيش في الدولة العثمانية شرياناً رئيسياً ، أولى كل الإهتمام والـــرعاية حتى غدا اليد الأولى في المحافظة على الدولة وكيانها، وهكذا تمكنت الدولة العثمانية من تنشئة جيش قوي فتح البلاد، وضرب بيد من حديـــد على الخارجين والطامعين ، وكان له دوره المميز في الفتوحات العثمانية وإتساعها في ثلاث قارات عالمية في أوروبا وأسيا وأفريقيا .

وكـــان العنصـــر الرئيســـي فـــي الجـــيش العثماني هو ما عرف بالانكشارية، وهي هيئة عسكرية فريدة حظيت من الدولة العثمانية بإهتمام بالغ لم تحظ به أي هيئة حكومية أخرى.[١]

والإنكشـــارية هي كلمة عربية وقد حرفت عن الكلمة التركية عند ترجمـــتها وهـــي " يني تشاري" وترسم بالتركية "يكيجري" وهنا نرى أن الكـــاف فـــي اللغـــة التركية تنطق نوناً وتكتب يكجري ولكن تنطق "يني تشري"[٢].

---

[١] عـــبد العزيـــز الشـــناوي: الدولـــة العثمانـــية دولة إسلامية مفترى عليها، د.ط ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٠م ، ج١ ، ص ٤٧٠.

[٢] محمد فريد المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية ، الطبعة السابعة ، بيروت : دار النفائس، ١٤١٤هـــ – ١٩٩٧م ، ص ١٢٣.

وهكـــذا نجد أن الكلمة مكونة من مقطعين الأول يكي yeni بالنون الخيشـــوميه بمعـــنى جديد ، جري cery بالجيم المشوبة بمعنى العسكر، فيأتـــي المعـــنى الكامل العسكر الجديد أي الجيش الجديد[1]، وتأتي أيضاً بمعنى الجند الجدد.[2]

وإذا كـــان حرف الكاف في اللغة التركية ينطق نوناً فإنه في اللغة الفارسية يلفظ تاء وشيناً ، وكذلك كلمة يكي تأتي بمعنى حديث لهذا يطلق عليهم أيضاً العسكر الحديث[3].

وهكـــذا نجد أن "يكجري " حسب النطق التركي ، و " يني جري" حســـب النطق العربي [4]." جري" تعني جندي ، ولكن هناك كلمة أخرى فـــي اللغة التركية القديمة وهي صو su، لكن "جري" أصدق في المعنى وكذلـــك كلمة "أوردوه" تعني جيش ، ولكن كلتا الكلمتين لا تستعملان في اللغة التركية منذ عدة عصور[5].

وقد أكد حليم بك أن العثمانيين أنشأوا جيشاً من المسلمين يدعى

---

(1) زيـــن العابديـــن شـــمس الديـــن نجم: الوظائف العسكرية والتشكيلات القتالية في العهد المملوكي والعهد العثماني ، مجلة كلية خالد العسكرية، العدد ٣٩، السنة العاشرة، ١٤١٣هـــ ، ص٢٩.

(2) فون هامر: التاريخ العثماني الكبير، م١ ، د.ط ، استانبول: دار نشر مج دال ، ١٩٨٩ ، ص ٩٩.

(3) عـــبد العزيـــز محمد عوض: بحوث في تاريخ العرب الحديث، الطبعة الأولى، عمان: مكتبة المحتسب، ١٤٠٣هـــ ١٩٨٣م ، ص ٦٤.

(4) الصفصافي أحمد المرسي : إستانبول عبق التاريخ روعة الحضارة ، الطبعة الأولى، القاهرة : دار الآفاق العربية ، ١٤١٩هـــ ١٩٩٩م ، ص ٥٥.

(5) يلمـــازا وزتونـــا: تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، استانبول، مؤسسة فيصل للتمويل ، ١٤٠٨هـــ ١٩٨٨م، ج٢، ص٣٨٩.

"يكي جري" وهم العسكر الجدد.[1]

وعليه فإن كلمة الإنكشارية هي يكي جري بالتركية ولكنها حرفت عندما ترجمت للعربية، وقد يكون هذا التحريف جاء نتيجة إختلاف نطق الحروف العربية في اللغة التركية عنها في اللغة العربية.

ونجد أن كلمة الإنكشارية أطلقت على نوع من الجنود الجديدة ، أي مجموعة من فرق المشاة النظاميين والتي كونها السلطان أورخان العثماني في القرن الرابع عشر الميلادي[2]، وهم مجموعة من الجنود المدربين تدريب على أعلى مستوى من التقدم - بالنسبة لزمنهم - وقد دربوا على أسلحة ووسائل حربية حديثة ، كما تعلموا اللغة التركية ، إضافة إلى أنهم جنود محترفين،[3] أي متفرغين للحرب متفانين في فتح البلاد ونشر الإسلام. وكانوا من أكبر عوامل نجاحهم في الفتوحات التي قاموا بها في القرن الرابع عشر الميلادي والقرون التي تليه.[4]

وقد جاء لفظ الإنكشارية yeniceri في بعض المصادر بمعنى مصطلح عسكري ، أطلق على الجنود الموظفين في الدولة العثمانية، فيما قبل سنة ١٢٤١هـ /١٨٢٦م . وكانوا يتبعون السلطان مباشرةً

---

(١) إبراهيم حليم: تاريخ الدولة العثمانية العلية المعروف بكتاب التحفة الحليمة، الطبعة الأولى، بيروت : مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م، ص٣٦. راجع عبد العزيز الشناوي: المرجع السابق ، ج١، ص٤٧٤.

(٢) شمس الدين سامي : قاموس تركي ، إقدام مطبعة سي : إستانبول ١٣١٧هـ مادة " يكيجري " : ص ١٥٥١ - ١٥٥٢ . سليمان صالح الخراشي: كيف سقطت الدولة العثمانية، الطبعة الأولى، الرياض: دار القاسم، ١٤٢٠هـ ، ص١٤.

(٣) Mehmet Zeki Pakalin Osmanli Deyimliri ve Terimleri Sozlugu, Istanbul ١٩٧٧, cilt III ., S, ٦١٧ – ٦٣٤

الموسوعة العربية العالمية: ج٣، الطبعة الأولى ، مؤسسة أعمال الموسوعة، مادة الانكشارية ،ص٢٨١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية: مكتبة الشعب، المجلد الخامس، مادة الإنكشارية ، ص١١١.

ومرتـــبطون به شخصياً يأتمرون بأمره ولا يعرفون أب سواه و من هذا المنطلق جاء لقب عبيد الباب[١] أي باب السلطان.

أما عن معنى لفظ الجيش الجديد، فإن القدم والجده في شيء معين مســـألة نسبية، فعندما أطلق على يكي جري جيشاً جديداً، فهذا يعني أن هناك نظاماً حربياً كان سائداً قبله وأقدم منه، وهذا هو التجمع الاختياري، وقـــد تغير هذا المفهوم بعد أن قام السلطان محمود الثاني بإنشاء العساكر المنصورة المحمدية والتي أطلق عليها مسمى "الجيش الجديد" أو "النظام الجديد".[٢] وكذلك فقد حدث في عهد السلطان سليم الثالث أثناء محاولات إصـــلاح الهـــيكل العســـكري للدولة العثمانية، أن قام بإنشاء فرقة جيش مدربـــة على الطريقة الحديثة وأطلق عليها النظام الجديد، وهكذا أطلقت الكلمة حتى بوجود الإنكشارية لأنه لم يكن قد قضي عليها.

هـــناك مصـــطلح آخر له علاقة بالإنكشارية وهو "دوشرمه" وهي كلمـــة تركية تكتب هكذا Dos,orme ، وفيما سبق كانت تكتب دوفشرمه بـــزيادة الفـــاء، ولكـــن الأصح أنها تكتب بدون الفاء.[٣] وقد أطلق عليها المستشرقون وأعداء الدولة العثمانية هذا المسمى وذلك بهدف تشويه هذا النظام كما سيتضح بعد ذلك.

---

[١] جـــاءت مـــثلاً في تاريخ الإسقافي ، تاريخ إبن زنبل ، وزيني دحلان . الصفصافي أحمد المرسي: مرجع سابق ، ص٥٥.

[٢] محمـــد عـــبد اللطيف البحراوي: من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة ١٣، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص٢٠٤.

[٣] زيـــاد أبو غنيمه : جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك، الطبعة الثانية، عمان: دار الفرقان للنشر والتوزيع ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص١٢٦.

Dersime هـــي أيضـــاً مصطلح عسكري، وقد أطلق على أبناء المســـيحيين المشردين في الشوارع، وكانوا يجمعون من شوارع البلدان المســـيحية التـــي تـــم فتحها حديثاً، وخاصة من بلاد البلقان وذلك بهدف الالتحاق بالإنكشارية أو للعمل في السراي.[١]

وفســـر زياد أبو غنيمه مصطلح الدوشرمه بأنها تعني الإسقاط أو الســـقوط، وهـــي كلمتان فالأولى تعني عندما تسقط الأم جنينها قبل إتمام شهور الحمل الـــتسعة وهي لا تطلق على المواليد الذين تكتب لهم الحياة وإنمـــا الذيـــن يموتون في الشهور الأولى من الحمل.[٢] أما السقوط فهو يعني سقوط شيء من على علو سواء كان إنسان أو جماد ، وتطلق على الشـــيء المعـــنوي كالســـقوط فـــي هاويـــة الرذيلة أو ما شابه ذلك من تعبـــيرات.[٣]

كذلـــك تطلق على الأطفال اللقطاء والذين تلدهم أمهاتهم في السر، فيصبحوا مشردين في الشوارع، أو يوضعوا في الطرقات أو على أبواب المساجد وأبواب الملاجئ، ثم أصبحت تطلق على كل طفل لقيط أو حتى مشرد في الشارع لأي سبب آخر. وقد ساد في بلاد العرب إطلاق كلمة داشـــر علـــى الرجل الذي لا يعرف له ولي أمر يرجع إليه في شؤونه ، كذلـــك الحال في المرأة فيقال عليها "إمرأة داشرة" أي لا يعرف لها ولي أمر ترجع له في شؤونها.[٤]

---

(١) الصفصافي أحمد المرسي: المرجع السابق، ص٥٥.

(٢) زياد أبو غنيمه : المرجع السابق، ص١٢٦ .

(٣) المرجع السابق، ص١٢٦ – ١٢٧ .

(٤) المرجع السابق، ص ١٢٧.

وكلمـــة داشر لا تزال متعارف عليها في المجتمعات العربية حتى اليوم على أساس أنها تعني ذلك النوع من البشر ممن لا يلتزم بالمسؤولية وانجــرف عن جادة الطريق دون الإلتزام بالتقاليد والعادات الإيجابية في مجتمعه وهذا النوع ينطبق على الجنسين من الذكور والإناث.

كما تأتي كلمة ديوشر بمعنى جمع الثمار والتقاطها في اللغة الفارسية.[١]

---

[١] محمد الأرناوؤط : دراسات ووثائق حول الدوشرمة ، الطبعة الأولى ، الاردن:دار قدسية،١٩٩١م، ص٣٥

الفصل الأول

نشأة الإنكشارية

المبحث الأول :

الأوضاع العسكرية في أوائل العهد العثماني

المبحث الثاني :

تأسيس الإنكشارية .

المبحث الثالث :

آراء المستشــرقين ومــن شــايعهم حــول الإنكشارية والرد على هذه الآراء .

المبحث الأول :

الأوضاع العسكرية في أوائل العهد العثماني:

مـــنذ ظهور الدولة العثمانية وفكرة بعث الحركة الجهادية من جديـــد كانت أولى إهتماماتهم وبالتالي كانت القوة الحربية وتطوير الجـــيش من أولى اهتمامات السلاطين العثمانيين خاصة وأنها تمثل الركيزة الأولى لإنطلاق الفتوحات العثمانية.

ومنذ بداية الدولة العثمانية إعتمد السلاطين على المتطوعين للحرب والجهاد، و لم ينتظروا حتى يُنشئوا جيشا خاصا بهم، لأنه لم يكن هناك أي شكل للقوة العسكرية إلا المجاهدين والذين أسهموا في تثبيت أركان الدولة وإرساء قواعدها لذلك إعتمدوا على المتطوعين للحرب .

وكان لظهور العثمانيين أثر في تجديد فكرة الجهاد الإسلامي بعد أن انطفأت وتقوقعت فترة طويلة من الزمن، وتراجعت على أثر تلــك الفــتوحات الإسلامية ، ومرت بحالة ركود، فقيض الله الدولة العثمانية لحمل راية الجهاد، ضد أعداء الإسلام وعلى رأسهم الدولة البيزنطــية ، التـــي كانـــت حدودهـــا مـــتاخمة للعثمانيين في أسيا الصـــغرى، ثـــم ظهـــرت الـــدول الأوربية وأعلنت عداءها للدولة العثمانية، كما كان لظهور البرتغاليين في البحر الأحمر ومحاولتهم إحـــتلال الأماكـــن المقدسة الإسلامية ومحاولة الدولة الصفوية نشر المذهب الشيعي دور في ظهور حركة الجهاد العثمانية .

هذا الوضع حتم عليهم الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين، وهـــنا تظهر على الساحة حقيقة مهمة فرضت نفسها عليهم إذ كانوا

يندفعون بكل قوة في سبيل الجهاد الإسلامي، ولم تكن حياة الدعة والرفاهية والقصور قد نالت منهم بعد، فحماسهم الديني كان مشتعلاً وضوءه وهاج لم يخبو بعد.[١]

ولقد تمكن العثمانيون من تحقيق هذا الهدف بفضل الله ثم بفضل تطبيقهم للنظرة الإسلامية والتي تجعل بلاد الكفر هي دار الحرب وبلاد المسلمين هي دار السلام، وبهذه النظرة خاضوا حروب كثيرة لنشر الإسلام، وعلى هذا فإننا نجد ان الدولة العثمانية بقيت على الدوام دولة محاربة وجهادية.[٢]

وهكذا تبرز أهمية القوة العسكرية ودورها البارز في الفتوحات، فقد حظي الجيش بمكانة عالية الأهمية في حياة الدولة العثمانية، كانت وسيلتهم في الحرب والحكم معاً، ويرى أحد المؤرخين أن الدولة العثمانية كانت عبارة عن جيش قبل أي شيء آخر، وأعتمد في رأيه هذا على أن كبار موظفين الدولة أنفسهم كانوا قادة الجيش [٣].

وحقيقة الأمر أن الدولة العثمانية كانت دولة إسلامية قبل كل شيء، ولكنها استخدمت القوة العسكرية لمقاومة أعداء الإسلام من

---

[١] علي سلطان : تاريخ الدولة العثمانية، الطبعة الأولى ، دمشق: منشورات مكتبة طرابلس العلمية العالمية، ١٩٩١م ، ص٢٣.

[٢] سيد مصطفى : الإصلاح العثماني في ق ١٨م نقد حالة الفن العسكري والهندسة والعلوم في القسطنطينية، تحقيق خالد زيادة، الطبعة الأولى، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٩م ، ص١٠.

[٣] إسماعيل أحمد ياغي : الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، الطبعة الثانية، الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٩ هـ / ١٩٨٩م ، ص٢٣.

البيزنطيين المجاورين لها في الفترة المبكرة، من جهة الحدود الغربية وأستمرت فتوحاتها في مناطق أوروبا على مر السنين.

ولا يمكن أن يفسر أحداً أن الدولة العثمانية أعتمدت على القوة العسكرية كمحرك أول للفتوحات وإقامة الدولة، ولاسيما وأن الجيش العثماني كان على مستوى من الكفاءة الحربية والمقدرة كفرسان بارعين يمتلكون الجرأة والشجاعة التي قد تصل بهم في بعض الأحيان إلى حد التهور، ولكن كان المحرك الأول للفتوحات هو الجهاد الإسلامي ونشر الإسلام في أصقاع جديدة.

والعثمانيون عندما قدموا إلى أسيا الصغرى كانت سمات البداوة من أصالة وشجاعة تظهر عليهم، يجاهدون تحت راية واحدة وهي راية أميرهم، وعند إنتهاء المعركة يدخلون ساحة القتال ويجمعون الغنائم ويقتسمونها، وإذا انتهت الحرب عادوا إلى شؤونهم.(١)

ويصف أحد مؤرخي الدولة العثمانية أنها نشأت في بادئ أمرها كإمارة غزاة، وشغلها الشاغل هو الغزو العسكري و ذلك للتوسع الإقليمي، وكان الطابع العسكري من خصائصها الرئيسية.(٢)

ولكن يبدو من الواضح أن الدولة العثمانية في نشأتها كانت إمارة إسلامية عملت على نشر الإسلام في البلاد المفتوحة وبناء

---

(١) خلف دبلان الوذيناني: الدولة العثمانية والغزو الفكري، د.ط ، رسالة دكتوراه مطبوعة ،مكة المكرمة: مكتبة أم القرى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٩٠.انظر جورجي زيدان: تاريخ الجند العثماني، مجلة الهلال، العدد الثامن، السنة السابعة عشر، ١٩٠٩م / ١٣٢٦هـ ، ص ٤٥٧ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٤٧١،٤٧٢.

المساجد، وإتخذت سياسة التسامح الديني حتى لا تفرض إعتناق الإسلام على الأهالي، من الجائز أن يكون التوسع هو أحد أهداف الدولة ولكنه لم يكن الشغل الشاغل أو أولى أهدافها، ومن المعروف أن الدولة إذا غلب عليها الطابع العسكري، أنتهت بسرعة ، لأن العقلية العسكرية تفشل في حكم دولة واسعة الأطراف. وهذا ما حدث للدولة العثمانية في نهاية عهدها وليس منذ نشأتها.

وكانت الفتوحات العثمانية نتيجة طبيعية، لأنها أمتلكت مجاهدين فرسان في وقت أفتقدت فيه الدول المعاصرة للجيوش المنظمة[1] . لقد اتخذت الدولة العثمانية أسلوب الفتوحات معتمدة على قوتها العسكرية مثل أي دولة إسلامية مرت في التاريخ فلم تأت بنظام أو عرف جديد وإنما سارت على نفس خطوات الدولة الأموية في الفتوحات الإسلامية.

وقد أضاف مؤرخ آخر ، أن الدولة العثمانية دولة غزاة، وأن الغزو والفتح هما دستورها، ، وأضاف أن الجيش كان الأساس والدولة كانت قاعدة له، والبلاد تسخر لخدمته وحدد أن الجيش كان يقوم بمهمتين: الحرب والحكم، فإن رجال الدولة في نظره يقومون بمناصب الدولة ماعدا القضاء والوظائف الدينية إضافة إلى خوض الحروب. [2]

وحقيقة الأمر أن الدين الإسلامي كان الأساس والمحرك الأول للفتوحات، وليس الجيش ، صحيح أنه لا يمكن إنكار أهمية

---

[1] عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٧١.

[2] عبد الوهاب بكر:الدولة العثمانية ومصر في النصف الثاني من ق ١٨م ، الطبعة الاولى، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٢، ص٥٧.

الجـيش فـي الدولـة العثمانية، ولكن هذه الأهمية جاءت لتحقيق الأساس الأول وهو نشر الإسلام.

كما أن البلاد المفتوحة والتي أصبحت تحت الحكم العثماني لم تكن مسخرة للجيش ، وإنما كان حكم العثمانيين لها حكماً عادياً مثل حكم الدولة الأموية والدولة والعباسية وغيرها من الدول الإسلامية، وإذا حدثـت بعض التجاوزات في الفترات المتأخرة من عهد الدولة العثمانية ، فقد كانت من الولاة المحليين ودون علم السلاطين.

أمـا عن بدايتهم الحقيقية في التاريخ الحديث، فقد ذكر أحد المؤرخين أنه منذ نيف وستة قرون هاجرت جماعة من حوض نهر الفـرات العليا ووجهتهم الجهات الغربية وكان يرافقهم قوة مسلحة قوامها مالا يزيد عن ٤٤٤فارساً بقيادة زعيمهم أرطغرل(*).

وقـد قـيل بأن هذه القوة كانت عبارة عن جموع مسلحة من المتطوعيـن الذيـن كانوا يهرعون على ظهور خيولهم لتلبية دعوة زعيمهم وإذا أنتهت الحرب ووضعت أوزارها تفرقوا أو أنفرط عقد إجتماعهم وأنصرفوا إلى حيث أتوا.(١)

وعندما وضع عثمان الأول (٦٩٩ هـ - ٧٢٦ هـ / ١٢٩٩م - ١٣٢٥م) الأساس لدولته الناشئة كانت على أنقاض دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، وكان لابد له أن يبحث على من يعاونه في المحاربـة والجهـاد لبناء دولة إسلامية كبرى، تكون بمثابة حصن

(*) معناه الرجل السليم القلب. لمزيد من المعلومات مؤلف مجهول : تاريخ الأتراك العثمانيين، ترجمة حسين لبيب ، د. ط ، القاهرة : مطبعة الواعظ ، د. ت ، ج١ ، ص٣-١٠ .

(١) مرجع سابق، ص ٣-١٠ .

يدافـــع عن الإسلام والمسلمين، وقد جاءت فكرة تجميع المتطوعين الذين يرغبون في الفتح والجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام، جاءت تلقائية نتيجة لحياة البداوة والتنقل التي كانوا يعيشونها[1].

وكانت هذه فكرة جديدة فعند ظهور الدولة العثمانية كان أكثر الجـند فـي الـدول الأخرى، على شكل مرتزقة ومماليك يباعون ويشترون بالمال أو المقايضة أو جنود من أسرى الحروب[2]، وبما أن السـلطان العثمانـي عثمان الأول كان لا يفضل الإعتماد على الجنود المرتزقة لنشر الإسلام، فقد اعتمد على أبناء قبيلة آل عثمان الذيـن يـتجمعون للحرب ثم ينصرفون لقضاء شؤونهم مثل سائر القبائل كما أشير إلى ذلك سابقاً .

وقد كانت أكثر العساكر في عهد السلطان عـثمان الأول من فرســان التركمان، الذين كانوا من البدو ليس لهم خبرة في الضبط والـربط العسـكري ولا الإنـتظام في القتال[3]، ولم يكونوا جنوداً منـتظمة تحمـل السلاح بشكل مستمر وإنما كانـوا يقدمون على الحرب من تلقاء أنفسهم[4].

وكـان الـرجال مـن أبناء قبيلة آل عثمان "قابي خان" كلهم قـادرون علـى الحرب وحمل السلاح حتى أن النساء كن يساعدن

---

(1) خلف الوذيناني: مرجع سابق، ص٩٠.

(2) مجلة الهلال: جورجي زيدان، ص٤٥٧.

(3) أحمـد الأنصـاري الطرابلسي: المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، د.ط، طرابلس : مكتبة الفرجاني، د.ت، ص٣٣٣.

(4) مجلة الهلال : جورجي زيدان، ص٤٥٧.

الـــرجال فـــي المعـــارك كجميع القبائل البدوية الآخرى[١]، وكان السـلطان عـثمان يحـارب على رأس الفرسان التركمان والذين يمتشـقون حسـام المعـركة فإذا انتصروا تفرقوا بعد أخذ الغنيمة وعـادوا لأشـغالهم المعتادة[٢]. كما أنهم لم يلتزموا برداء معين أو لباس خاص ذا طراز محدد لهم ولكنهم يرتدون ما يرغبون به.[٣]

وعلـى هـذا النحو فالجيش الذي كونه عثمان لم يأخذ صفة الجـيش النظامـي الذي تعتمد عليه الدول وقت الحاجة، وإنما كان أفراده يتجمعون وقت الإعلان عن الحرب عند إنـتـشار المنادين بيـن قـوات العـشائر الأخرى[٤]، فيجتمع آلاف المجاهدين من مختلف المناطق المجاورة ومن القبائل التركية راغبين في المشاركة في الجهاد متلهفين عليه[٥].

وقـد أطلـق عليها اسم المرابطين في الحدود " مجاهدي النفير"[*] وكـان يطلـق عليهم أهل النفرة وهم الذين يستجيبون لنداء الجهاد

---

[١] محمـد جمـيل بـيهم: فلسـفة التاريخ العثماني – أسباب إنحطاط الإمبراطورية العثمانية وزوالها، د.ط، د.م، ١٣٧٣هـ ١٩٥٤م ، ص ١٢٤،١٢٥ .

[٢] حبيـب السيوفي: الإنكشارية في الدولة العثمانية، د.ط ، بيروت : صيدا مطبعة الرحابنية ، ١٩٤٠م، ص١٣.

[٣] مجلة الهلال: جورجي زيدان، ص٤٥٧.

[٤] أكمـل الديـن إحسـان أوغلي: الدولة العثمانية تاريخ وحضارة، تعريب صالح السعداوي، د.ط، إستانبول، ١٩٩٩م، ج١، ص٢٨١.

[٥] عـبد اللطيف عبد الله بن دهيش: قيام الدولة العثمانية، الطبعة الأول، مكة المكرمة: النهضة الحديثة، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م ، ص ٢٨،٢٩ .

[*] ويطلق عليهم بالتركية Akincilar أي المندفعون. أنظر خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص٩٠.

إمتـــثالاً لقولـــه تعالى (**أنفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا في سبيل الله بـــأموالكم وأنفســـكم**)[*] وهم في حقيقتهم ليسوا جيشاً نظامياً وإنما مـــئات من فرسان عشيرته ومن المجاهدين وأمراء الروم وجنودهم الذيـــن دخلوا الإسلام بعد الفتوحات العثمانية، وعندما يطُلق النفير بقولـــه "حي على الجهاد". تتوافد عليه الأعداد الكثيرة من كل حدبٍ وصـــوب، فإذا وضعت الحرب أوزارها عاد المجاهدون إلى قراهم ومن حيث أتوا في إنتظار دعوة أخرى.[١]

هـــؤلاء أتـــبعوا عـــثمان كظله في الغزوات طمعاً في الأجر والثواب وفي الأجرة أي الغنيمة[٢].

لقـــد كانوا فرساناً مجاهدين رحل قضوا عمرهم على ظهور الخـــيل متنقليـــن من معركة إلى أخرى، وطالما أن العمر يمضي بالمجاهد وهو ممتطي خيله ، فإن أغلب إجتماعاتهم كانت تعقد وهم على ظهور الخيل يتبادلون خلالها الآراء والقرارات الشفهية، وهم على ظهور الخيل فرقة مدججة بالسلاح، وكان بنو عثمان يشكلون أمـــة عســـكرية يطلق على الواحد منهم " الألبي" الفارس المجاهد" وكـــان يحمل السيف (**) معه دائماً. هم بهذه الصفات ساروا على

(*) سورة التوبة آية ٤١.

(١) خلف الوذيناني :مرجع سابق ، ص ٩٠.

(٢) محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني، ص١٢٥.

(**)كـــانوا يحملون السيوف التي يعتزون بها، ولا تستطيع تمييز واحد على الآخر لأنهم جميعاً أطلق إسم السيفية على نفسه. أنظرعلى سلطان : مرجع سابق ، ص٢٤.

خطـــى العرب في حب الخيل وإعزازه[١]. وإستخدامه كوسيلة أولى للتنقل والمجاهدة .

وكـــان هـــؤلاء المجـــاهدون يطلق عليهم أكنجي [*] و كانوا يـــتدربون على الحركات العسكرية تدريباً جيدا، كما أنهم اشتهروا بحسن إنتظامهم في الصفوف، وكانوا إذا سار فرسانهم كونوا صفاً واحـــداً مـــثل الحائط ، وإذا أراد عثمان الحرب بعث المنادين في القرى والبلاد ليجتمع شمل المجاهدين في معسكر الأمير، وإذا أراد عثمان الحرب سراً بعث للمنادي سراً لدعوة من يريد الإشتراك في الجهاد[٢].

وكـــان المجاهدون يبدأون خططهم العسكرية بفتح الأراضي المســـتوية بســـرعة، ثم فتح القرى، التي تليها ثم ينشؤون الأبراج الصـــغيرة حول القلاع ثم يحاصرونها حتى تضطر إلى الإستسلام، وبهذا نجحوا في فتح كثير من المدن مثل إزنيق وإزميد ، وبورصة تلك المدينة التي استغرق فتحها عشر سنوات[٣].

وفاجـــأ العثمانـــيون البيزنطيين بهذا الأسلوب البارع وأثبتوا تفوقهـــم علـــى القوات البيزنطية لأنهم وقفوا مدافعين عن أراضيهم مجاهدين في سبيل الله ، وكانوا في هجومهم لا يستغرقون وقتاً في

---

[١] علي سلطان : مرجع سابق، ص٢٤.

[*] فـــي بعـــض الكتـــب والمصادر أطلق عليها أقنجي بالقاف ، معناها "الفرسان الخفاف" دائرة المعارف الإسلامية، ج٥، ص١١١.

[٢] مجلة الهلال : جورجي زيدان، ص٤٥٧. أنظر خلف الونيناني: مرجع سابق ، ص٩٠.

[٣] أكمل الدين إحسان أوغلي : المصدر السابق، ص٣٨١.

تحضـــير الهجـــوم، مما أربك الجيش البيزنطي، الذي كان يستخدم أسلوبه المعتاد في ممارسة خطة عسكرية منظمة يسير عليها القائد والجـــند من بعده، وكانوا فرساناً يحاربون على ظهور خيولهم بخفة وسرعة كالبرق، وإذا انتصروا ربحوا كل الغنيمة، وإذا أنهزموا لم يخسروا شيئاً لأنهم لا يحملون معهم شيء، ، ولا يمتلكون في أرض المعركة إلا الخيل، وكان شعارهم "ليس هناك خط دفاعي بل سطح دفاعـــي" وهـــذا يـــدل على أنهم كانوا يهجمون بشكل أفقي، وكانت هجمـــاتهم متواصـــلة صيفاً وشتاءً، مما أربك أعدائهم البيزنطيين. وكانوا يأخذون الأسرى ويضمون البلاد والممتلكات[1].

وبهـــذا التنظيم الفني الجيد بالنسبة للإمكانيات المتوفرة لديهم فـــإن هـــذه القوة الإسلامية الناشئة استطاعت الوصول إلى أهدافها وتمكنـــت من إرباك البيزنطيين وإدخال الفزع على قلوبهم من هذه القوة الإسلامية الناشئة.

وهـــذا يدحض أراء المستشرقين القائلة بأن هذه القوة الأولى كانـــت تفـــتقر لمعـــنى التنظيم الفني وأن العثمانيين لا يفقهون فيه شـــيء، فهـــذا يثبـــت أنهم استطاعوا التفوق على البيزنطيين الذين يدعـــون العـــراقة في فن الحرب ولكن جيشهم في الواقع يتألف من جـــنود منحليـــن متفســـخين ، معـــروف عنهم الهروب من أرض المعـــركة[2] . ويدحـــض أيضاً من يقول بأن كل عثماني مُجنّد في الجـــيش العثماني كان يُنسب إلى أحد شيوخ الطرق الصوفية وإلى

---

[1] علي سلطان: المرجع السابق، ص٢٧.

[2] كـــارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية الأتراك العثمانيون وحضارتهم ، الطبعة ١٢، بيروت: دار العلم، ١٩٩٣، ص٤١٠.

أحد التكايا(*)[1]. بهدف التقليل من شأن الجنود العثمانيين وحماسهم وشجاعتهم الإسلامية. ويدحض أيضاً من يقول بأن الدولة العثمانية استعانت في فتوحاتها بجماعات الدراويش . [2] إذ أن الدولة العثمانية حرصت على أخذ مشورة العلماء وشيوخ الإسلام في كل أمورها .

ومع هذه الإنتصارات وهذه النجاحات المتتالية ومع استمرار حركة الفتح الإسلامي ومجابهة العثمانيين مع البيزنطيين، فقد طفت على السطح فكرة ضرورة وجود قوة مشاة قادرة على حرب الحصون. وذلك لأن حرب الحصون المنيعة كانت تتطلب مقدرة عسكرية غير التي كانت تتمتع بها هذه القوة البدوية، وظهرت الحاجة أمس ما تكون إلى إنشاء جيش مشاة[3].

ومع مرور الزمن أصبح إنشاء "قوة المشاة" أمراً ضرورياً لأن القوات المؤقتة لا تأتي إلى الحروب إلا في وقت محدد ولا تتحمل القيام بعمليات حصار طويلة، فأصبح تأسيس قوة المشاة أمر لابد منه.[4] وعلى سبيل المثال فقد استغرق حصار "بورصة" عشر سنوات لعدم وجود قوة المشاة بينما لو كانت هذه القوة الدائمة

(*) لم يرد ذكر هذا الرأي في كثير من المراجع ولكن إن ذكرت في بعضها فهذا يدل على تغلغل الفكر الصوفي في المنطقة وليس هم من ابتدعه كما يصور بعض المؤرخين.

(١) يلماز اوزتونا، مصدر سابق، ج١، ص٨٨.

(٢) أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق ، ص٣٨١.

(٣) كارل بروكلمان: مرجع سابق، ص٤١٤.

(٤) أكمل الدين إحسان أوغلي : مرجع سابق، ص٣٨١.

مــتوفرة لمـــا استغرق فتحها تلك المدة الطويلة.[1] أضف إلى هذا وذاك أن اســتمرار القــتال بهــذه الفئة القليلة قد يؤدي إلى فناءها وتضاءلها ، وهي أصلها من قبيلة الأتراك العثمانية. [2]

كمـــا أن الإحتكاك بالأوربيين قد أوجد هذه الضرورة، إذ أن الأوروبييــن قــد تعلموا من حروبهم الطويلة في العصور الوسطى ألواناً من التنظيمات التي أوجدتها تجاربهم العسكرية.[3]

وأخيراً فإن هناك نقطة مهمة وهي أن الوقت الذي تتجمع فيه هذه القوة يستغرق مدة طويلة مما يؤدي إلى ضياع الفرصة في فتح المدن، ويُمكِّن العدو من تنظيم صفوفه وتعزيز مواقعه. كما أن بقاء المحاربين مع قبائلهم يجعلهم أكثر إرتباطاً بها مما يؤدي إلى إنفصام عــرى الوحــدة العثمانــية بين الجند، والتي تسعى الدولة العثمانية جــاهدة لتحقــيقها.[4] وبمـــا أن الهدف من الفتوحات العثمانية كان الجهــاد فــي ســبيل الله ونشــر الإسلام، خاصة وأن تهديد الدولة البيزنطية للمسلمين قد زاد، فكان لابد من اتخاذ موقف صارم، وإذا مـــا أضــيف صعوبة تجميع المحاربين، كل هذه الأمور شغلت بال الســلطان أورخـــان وجعلــته يفكــر ملياً في طرح الحلول،[5] هذا

---

(1) عــبد الرحمن شرف : تاريخ دولة عثمانية ، الطبعة الأولى ، إستانبول : معارف نظارات جليلة ، مطبعة سي ، ١٣٠٩هـــ ، مجلد ١، ص ٦٥ . علي سلطان : مرجع سابق ، ص٢٧ .

(2) أمــيرة مــداح : نظــرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، الطائف : دار الحارثي ، ١٤١٩هـــ / ١٩٩٨م ، ص١٩ .

(3) أحمــد شــلبي: موســوعة ا لتاريخ الإسلامي، الطبعة الثامنة، القاهرة: مكتبة دار النهضة المصرية، ١٩٩٠م ، ج٥ ، ص٨٤٩.

(4) خلف الوذيناني : مرجع سابق، ص ٩٠.

(5) مرجع السابق، ص ٩١.

بالإضـــافة إلـــى أن أورخان كان يعرف أنه لا يمكن لدولة إسلامية تطـــبق النظم الإسلامية، أن يكون جيشها من المرتزقة (*)، لأن هذا لا يحقق معنى الجهاد، ولهذا فكر في التجميع الإختياري (**). فهذا يدل على أنه نظام موجود قديماً أو على الأقل نظام أتبعته أي دولة سابقاً.[1]

ومـــن خـــلال هذا العرض يتضح أن الجهاد الإسلامي أوجد الحاجة إلى تكوين جيش من قبائل التركمان للفتح و نشر الإسلام.

هذه الأسباب جميعاً اجتمعت لتخرج للسلطان أورخان وأخيه علاء الدين(***) فكرة ضرورة إنشاء قوة مشاة، لأن أورخان عندما ورث الســـلطنةعن والده عثمان كان يعتمد على الفرسان التركمان الذيـــن كونـــوا نواة الجندية أي فرقة الخيالة، ولكن بحس أورخان الحربـــي أدرك ضرورة إنشاء قوة المشاة لكي يستطيع من خلالها فتح القلاع والحصون والأسوار المنيعة التي أشتهرت بـــها بـــلاد

(*) المرتزقة : جنود بالأجرة، يقاتلون لمن يدفع أكثر ، ولا يقاتلون لمبدأ أو عقيدة دينية.

(**)فكـــرة الجهاد الإسلامي السائدة منذ بدء الدولة العثمانية كانت تتم عن طريق المناداة للجهاد الإسلامي وينضم كل من يكون قادر على حمل السلاح.

(١) أميرة مداح : مرجع سابق، ص ١٩.

(***) إن الأمـــير علاء الدين هو الأخ الأكبر للسلطان أورخان ، ولكنه تنازل عن الحكم لأخيه الأصـــغر ، وهـــذا يعتبر ظاهرة نادرة وفريدة في التاريخ ، ليس على المستوى الإسلامي بل علـــى المســـتوي العالمي، لأن هذا يدل على أنه فضل مصلحة السلطنة الناشئة على مصلحته الشخصـــية ، لقـــد وجـــد أن أخيه أفضل في قيادة الدولة فتنازل عن طيب خاطر لأخية ، بل وأعانه على الحكم .

البلقان بشكل خاص.[1]

ولأن أورخان وقع على عاتقه مواصلة الجهاد ضد البيزنطيين ونشـــر الإسلام ، فقد حفل عهده بعدة تنظيمات، خاصة في الجيش حيـــث وضع نظاماً خاصاً له [2] ساعده على ذلك أخوه علاء الدين الـــذي وضـــع نظاماً خاصاً للجيوش العثمانية، حيث جعـــلها بشكل دائـــم[3] وقد رأى هذا الأخير أن يؤكد إنتصارات العثمانيين القادمة بإنشـــاء فرقة مشاة مأجورة أطلق عليها اسم (بيادة) وكانوا يسكنون الثكـــنات العسكرية في إستعداد دائم للحرب ، وقسمت إلى عشرات ومـــئات وألوف، وعلى رأس كل فرقة من فئة الألف ضابط عظيم الشـــأن ومـــن فئة المائة ضابط أقل منه شاناً وللفرقة العشرة زعيم صـــغير وأصبحت فرقة عظيمة الشأن[4] وفي بعض الأحيان تكون الوحدة أصغر من عشرة أشخاص[5]، وأطلقوا على ضباطهم أسماء تركـــية، حيث أنه في الدولة العباسية أطلق عليهم اسم "عريف" في حيـــن أنـــه في الدولة العثمانية سمي "أونباشي" أي رئيس العشرة،

---

(1) محمد سهيل طقوش : العثمانيون من قيام الدولة إلى الإنقلاب على الخلافة، الطبعة الأولى، بيروت: دار بيروت المحروسة، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م، ص٢٥.

(2) عاصـــم تاريخـــي : عاصـــم باشا ، ص٣٤ . أميرة مداح : نظرة متأنية في تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، الطائف : دار الحارثي ، ١٩٩٨م / ١٤١٩هـ ، ص١٩ .

(3) مخطـــوط باضيه حاصر ليان : مبدأ قانون يكيجري أو جاغي تاريخي ، ترجمة أيدن أوك سوزي ، ورقة أ ٥ ، محمد فريد المحامي: مصدر سابق، ص١٢٢.

(4) حسين لبيب:تاريخ الأتراك العثمانيين، ص١٠ ، انظر أميره مداح: مرجع سابق، ص١٩.

(5) محمـــد كمـــال الدســـوقي : الدولة العثمانية والمسألة الشرقية، د.ط، القاهرة، ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦م، ص١٧.

ورئيس المئة سمي "يوزباشي" وكان عند العباسيين" نقيب" أما رئيس الألــف فسمي "بكباشي" وكان إسمه "قائد"[1]. وكان جيش المشاة في بـادئ الامــر من الأتراك أنفسهم ، ثم بدأت تدخل عناصر أخرى، أدت إلى تحزب كل عنصر لأخيه مما أدى إلى فشل هذا النظام كما سنرى[2] ومــن الواضح هنا أنهم اعتمدوا في جيشهم على القبيلة التركـية نفسـها وتنظـيمه حسـب الطـريقة السائدة في الجيوش الإسـلامية. كمـا أنه أصبح لهم زي عسكري خاص بهم[*] تعلوه زركشة استمدوا طريقة حياكته من زي القبيلة الأصلي .[3]

وقـد خصصـت لهؤلاء أماكن خاصة بهم، يقيمون فيها على استعداد تام للحرب، وخصص لكل فرد منهم راتباً يومياً قدره ربع درهــم مــن الفضة ، ويعتبر مثل هذا المبلغ في ذلك الزمن الغابر كبـير جـداً بالنسبة لرخص الأسعار وقتها[4]. وهو ما يعادل أقجة يومياً طوال أيام الحملة حتى يؤمنوا من الإقطاعات جنود المشاه [5]، كمـا أنهـم كـانوا يعفـون من ضريبة الزراعة عند عودتهم إلى

---

[1] مجلة الهلال : جورجي زيدان ، ص٤٦٥.

[2] محمد كمال الدسوقي : مرجع سابق، ص١٧.

[*] كـان الجـيش الوحـيد المنظم الذي له زي مميز هو جيش الرومان، حيث يرتدي ملابس حمـراء، أثناء الحرب. انظر محمود شوكت: التشيكلات و الأزياء العسكرية العثمانية، ترجمة يوسف نعيسه ، محمود عامر، الطبعة الأولى، دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨ ، ص٦٧.

[3] مرجع سابق ، ص٦٨.

[4] حبيـب السـيوفي: مرجع سابق، ص٣ ، راجع أحمد محمد الحموي: فضائل سلاطين بني عثمان، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، ١٤١٣هـ /١٩٩٣م ، ص٧٥.

[5] كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص١٧.

أراضـــيهم، ويحصـــلون على أجور أيام الحرب، وقد سميت فرقة المشاة هذه بـــ "اليايا" [*] [1] وهذه الوحدة كانت مقــصورة عــلى الأناضول فقط[2].

وقد خصص خُمس الغنائم للإنفاق على هذا الجيش، وكان لا يجتمع إلا وقت إعلان الحرب.[3] ويتصف هؤلاء بالخشونة، وكانوا رجــالاً أشداء، ولهم إحساس غريب بعيداً عن الإحساس بالجندية، حيــث كانوا يرون لأنفسهم الحق في أن يصبحوا سادة [4]، وبدأوا إظهــار أنهــم لا يستطيعون البقاء مشاة. وأخذوا في التمرد[5]، كما أنهــم لا ينقادون بسهولة وكان صعباً إبعاده في فتوحات بعيده عن إقطاعاتهم ، خوفاً من تمردهم على السلطان، فكان طبيعي أن يفكر الســلاطين فــي استبدالهم متى سنحت الفرصة لذلك.[6] وبهذا قوي شــأنها وزاد طغــيانها وأصــبحت موضــع قلق السلطان أورخان وخــوفه[7].

---

[*] بالتركية بيادة . انظر دائرة المعارف الاسلامية، ص٤٦٥.

[1] علي سلطان: مرجع سابق، ص٢٧.

[2] ســاطع الحصــري: الــبلاد العربــية والدولة العثمانية، الطبعة الثانية، بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٦٠م ، ص٧٧.

[3] أميره مداح: مرجع سابق، ص١٩.

[4] أحمد شلبي: مرجع سابق ، ص٨٤٩.

[5] علي سلطان: مرجع سابق، ص٢٧.

[6] ساطع الحصري :مرجع سابق، ص٧٧.

[7] حسين لبيب : مرجع سابق، ج١ ، ص١٠ ، ١١ .

وهـــذا لا يـــدل علـــى فشل العثمانيين في تكوين جيش مشاة نظامي، وإنما يدل على قلة خبرة العثمانيين في مجال المشاة، حيث كانـــت خـــبرتهم منصـــبة على الخيالة، وفشلت تجربة أورخان في تحويل الفارس التركي إلى جندي مشاة، أضف إلى ذلك أن تكتل كل فرقة في الجند لقبائلها أدى إلى إنفراط عقد التحالف الذي كان يسعى إلـــيه أورخان دائماً، كما أدى إلى وجود تناحر بين الجند وتحزبت كـــل فئة إلى قبيلتها التي تنتسب لها فتجزأ الجيش، كما أن الحرب ضد البيزنطيين كانت تتطلب وجود جيش دائم وجاهز[١]، مما جعل فكرة القضاء عليهم يشكل خطراً ونقصاً في عدد المحاربين[٢].

كما أنهم تمادوا في مطالبهم المالية، وغالوا في مزاعمهم مما جعـــل أورخان يفكر جدياً في الاستغناء عنهم وإحلال غيرهم ممن يسهل قيادتهم ، و لهم فائدة أكثر[٣] خاصة وأن هذا التنظيم لم يصمد للتجارب[٤].

وبـــدأت فـــرقة المشاة في التراجع، وأثبتوا مع مرور الزمن عـــدم جدارتهم ، فكان لابد من التحول إلى فكرة جديدة وهي إنشاء الإنكشارية.

---

[١] محمـــد ســـهيل طقوش: مرجع سابق، ص٢٥. انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٢٢.

[٢] علي سلطان : مرجع سابق، ص٢٧.

[٣] حبيب السيوفي: مرجع سابق، ص١٣.

[٤] كارل بروكلمان: مرجع سابق، ص٤١.

ولا شــك أن القبائل التركمانية وهم البدو الرحل الذين جاءوا من أقصى شرق أسيا الوسطى إلى أسيا الصغرى والأناضول وهم من قام بالفتوحات الأولى ونشر بذور الإسلام هناك، وأكملوا ما كان يقــوم به السلاجقة قبلهم، وقد علمتهم حياة البداوة والترحال والشدة فنون القتال ، ولم يكن جل غايتهم من الفتوحات السلب والنهب، كما ذكر المستشرقون المغرضون[1]، لأن السلب والنهب من دون سبب هو صفة قطاع الطرق والعصابات، ولكن الجدير بالذكر أن هؤلاء المحــاربون كــانوا يطبقون ما نصت عليه الشريعة الإسلامية في توزيــع الغنائم بعد إنتصارهم ، وبذلك يختلفون عن الأوربيين الذين تجاهلــتهم أقــلام المستشــرقين إذ كانوا يحرقون المدن تماماً بعد إحتلالها ويقومون بسرقة أهلها ويستبيحوا نساءها.[2]

أمــا عن كلمة "إقطاع" فقد تحدث المؤرخون عن ذلك وأولوه إهــتمامهم فهــاهو المستشــرق هاملتون جب يورد قوله " أن نظام الإقطــاع قد أصطنعه العثمانيون منذ ظهورهم على ساحة التاريخ، وذلــك لتأميــن مورد ثابت للجيوش يغنيهم عن إنشاء جيش نظامي دائــم، ويوفر لهم النفقات، وجاء بشكل مطابق لما في أوروبا" [*] ،

---

[1] هاملتون جب هارولد بون: المجتمع الإسلامي والغرب ، ترجمة عبد المجيد حسين القيسي، الطبعة الأولى، دمشق : دار المدني، ١٩٩٧م ، ج١، القسم الأول ، ص١٠٢.

[2] مرجع السابق ، ص١٠٢.

[*] فــي أوربــا نظام الإقطاع منح المحاربين جزءً من المقاطعات الزراعية مقابل الإلتزام بأن يكونــوا دوماً على إستعداد للسير إلى الحرب متى يدعون إليها، لا بأشخاصهم فحسب بل وأن يــتولوا أيضاً إعداد عدد من الفرسان والمحاربين من أتباعهم يتناسب عددهم ومساحة الإقطاع الممــنوح لكــل مــنهم وأن يجهزوهم بكل ما يحتاجون إليه من خيل وسلاح وكان هذا النظام الإقطاعي يقوم في أساسه على الملتزم أي صاحب الإقطاع والفلاحين الساكنين في الأرض =

كما صنفه إلى ثلاثة أصناف " الخاص- الزعامة- التيمار " . وأن العثمانيين سمحوا في وقت متأخر بأن لا يذهب أصحاب الإقطاع للحروب ويكتفوا بدفع المال ولكنه عاد فأوضح أن شروط الخدمة لم تكن واحدة للجميع بل كان بعضهم مفروض عليه الإلتحاق بالجيش[1] .

ولكن الفتوحات الأولى تمت على يد المجاهدين المتحمسين لنشر الإسلام ، ولقد سبق التنويه إلى أن القبائل التركمانية أخذت على عاتقها أمر الفتوحات الإسلاميةلكنهم فئة قليلة ستفنى مع إستمرار القتال ، مما اضطر السلاطين إلى إنشاء جيش المشاه ، وبعد فترة من الزمن بدأوا في إقطاعهم جزء من الأراضي في مقابل الخدمة العسكرية ، وهذا يدل على أن جيش "المشاه" جاء بعد فترة من نشوء الدولة وليس من بداية ظهورها كما أدعى هاملتون، كما أنه لم يكن يشبه في محتواه إقطاع أوروبا المليء بالعبيد الذين يعملون بالسخرة ، إذ أن صاحب الإقطاع يخرج بنفسه للحرب، وكان هذا أحد أسباب ضعفهم وتقاعسهم عن الخروج للحروب في فترة متأخرة من إنشاء جيش المشاه في عهد أورخان، لذا لا يمكن مقارنة نظام الإقطاع في الدولة العثمانية بالإقطاع الأوروبي ، لأن الإقطاع في الدولة العثمانية كان يخضع للدين الإسلامي وأحكامه

= يقوم الفلاحون بزراعة الأرض وحصادها ويدفعون لأصحاب الإقطاع ما يكفل لهم مورداً من العيش على شكل حصص عينية من المحاصيل الزراعية أو على شكل رسوم وأعشار. للاستزادة عن النظام الإقطاعي في الدولة العثمانية الرجوع إلى محمد عبد اللطيف البحراوي: حركة الإصلاح العثماني ، مرجع سابق : ص٩ .

[1] هاملتون جب : مرجع سابق، ص ١٠٢.

ولـــيس لتسـلـط صــاحب الإقطـاع وجـبروته وهذا يناقض آراء المستشـــرقين ، فإذا كان أصحاب الإقطاع يدربوا فرساناً ليرسلوهم إلـــى الحرب بدلاً عنهم ، فلما يريدوا الرجوع من المعارك بسرعة من أجل أراضيهم [1].

وهكـــذا نجد أن الجهاد الإسلامي للدولة العثمانية كان يتطلب أفكار متطورة بالنسبة للجيش ، والدولة العثمانية أخذت على عاتقها مسئولية نشر الإسلام، مما يجعل الدولة في أمس الحاجة إلى جيش حاضـــر ومســتعد للحرب ، وفتح المدن، فكانت بداية الجيوش في الفترة المتقدمة من تاريخ الدولة العثمانية هي الأرضية الصلبة التي مهـــدت لظهور جيش فريد غريب من نوعه في التكوين وهو جيش الإنكشاريه، الذي حول العثمانيين إلى دولة قوية، وحول الجيش من النظام القبلي، إلى النظام الحربي المنظم.

---

[1] هاملتون جب : مرجع سابق، ص ٩٢ .

المبحث الثاني :-
تأسيس الإنكشارية

لقد وقع على عاتق الدولة العثمانية منذ نشأتها ، نشر الإسلام والقيام بالفتوحات الإسلامية ، وحمل راية الجهاد ، ومن أجل تحقيق هــذا الهــدف ، بدأ العثمانيون ممارسة سياسة عسكرية قائمة على الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام ، والقيام بفتوحات أدت إلى جذب القبائل التركمانية للإشتراك في الفتوحات والحصول على الغنائم ، ولكــن بعــد مرور فترة من الزمن ، أثبتت القبائل التركمانية عدم جدواهــا فــي الحروب والفتوحات التي كانت آخذتٌ في التزايد ، وعلى هذا كان لابد من التفكير في إنشاء فرقة قوية تستطع خوض غمار المعارك.

لقد كان الطابع العسكري من خصائص الدولة العثمانية [١] ، حيث أشتهر الأتراك بأنهم فرسان بارعون جريئون إلى حد التهور ، على الرغم من أنهم أثبتوا قوتهم على المرتزقة البيزنطيه في ميدان القــتال ، إلا أن حرب الحصون والمراكز المنيعة تتطلب مقدرات عسكرية أخرى ، والحق أن الحاجة كانت أمس ما تكون إلى إنشاء جــيش مــن المشاة ، ولقد عمل السلطان أورخان بادئ الأمر على تألــيف ذلــك الجــيش مــن الأتراك أنفسهم ، على غرار الجيوش الفارســية فــي ذلــك الوقت ، وقد كانوا من أصحاب الإقطاعات العسكرية أصلاً ، فكانت الدولة تدفع للمنتخبين منهم أقجة[*] واحدة

---

[١] عبد الوهاب بكر : المرجع السابق ،ص٥٧- ٥٨ .

[*] أقجــة : تعنــي لغةً الضارب إلى البياض ، وأصلها مغولية معناها نقد أبيض وهي قطعة صغيرة من الفضة ضربت لأول مرة في عهد أورخان عام ٧٢٩هــ وتزن أربعة جرامات تــقريبا ، ولــم=

كل يوم طوال أيام الحملة .[١]

كمـــا لاحظ الأمير علاء الدين أخو السلطان أورخان الأول وســاعده الأيمن في إدارة السلطنة ، لاحظ تحزب كل فئة من هذا الجــيش للقبيلة التي ينسب إليها ، ولذلك تم حل هذه القوة بعد وقت قصير وبدأ التفكير في تنظيم جند أخر لا خوف من تحزبه لعشيرته علـــى أن يكـــون غريباً عن الرعية لا يمت لهم بصله .[٢] ويكون الهـــدف الرئيســـي من وراء تشكيل هذا الجيش هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطين ، وفتح المزيد من أراضيهم ، والفتح في البلقان لنشر الإسلام في تلك البقاع ، والإستفادة من البيزنطيين الذين يدخلون في الإسلام ، وذلك لنشر الدين الإسلامي في مجتمعهم بعد أن يكونوا قد تلقوا تربية إسلامية خاصة .

وباشـــر أورخان إنشاء هذا الجيش في عام ٧٣١ هــ /١٣٣٠م إلا أن تنظـــيمه لـــم يكتمل إلا في عهد السلطان محمد الثاني ثم في عهـــد الســـلطان سليمان القانوني .[٣] ومن ثم كانت الدولة العثمانية أول دوله عرفها بداية التاريخ الحديث أقامت جيشاً عظيما [٤] منظماً حسن التدريب ميسور النفقة من المشاه والخياله ، [٥] في فترة كانت

= تضرب بعد عام ١٢٣٤هــ . سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، د.ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية ، ١٤٢١هــ / ٢٠٠٠م ، ص٢٠ .

[١] كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص٤١٠ . أنظر دائراة المعارف الإسلامية : ج ٥ ، ص١١١

[٢] مخطوط متن باضيه حاصرليان : مبدأ قانون يكبجري أوجاغي تاريخي ، ورقة أ ٥ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٢٥– ١٢٦ .

[٣] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٦ .

[٤] حسين لبيب : تاريخ المسألة الشرقية ، د. ط ، القاهرة : مطبعة الهلال ، ١٩٢١م ، ص٢١-٢٢

[٥] المرجع السابق ، ص١٠

الدولـــة في طور النشأة ، وفي عهد الفتوحات التي هيئات حصول هذه الفرقة الجديدة على خير الغذاء والملبس والهدايا والعطايا ، [١] وقد سبقت بذلك الدولة العثمانية بقرن من الزمان شارل السابع ملك فرنســا الذي أنشأ أول فرقة من الجنود المنظمة عرفتها أوروبا في الـــتاريخ الحديـــث .[٢] وقبل إنشاء فرقة الرماة بالسهام ببريطانيا ، والذين سادوا بطريقة ونظام في جمع أفراد هذه الفرقة بشكل مختلف عـــن سابقيه ، حتى جاء نظام الجنود الإنكشارية بشكل لا نظير له في التاريخ [٣] .

وعلـــى آيـــة حـــال فقد أستطاع العثمانيون عن طريق هذا الجـــيش أن يحققـــوا الفتوحات الواسعة التي قاموا بها ، في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وفي القرون التي تلته.[٤] حيث اعـــتمدوا علـــيه فـــي تلـــك الفتوحات وفي الصمود أمام التحالفات الأوروبية التي واجهتهم .[٥] وبفضل الله ثم هؤلاء انتصرت الدولة العثمانـــية على فرسان أوروبا وأحرزت أعظم إنتصاراتها وخطت أمجادهـــا التاريخية[٦] وبذلك احتلت الإنكشارية مركزاً ممتازاً بين فرق الجيش العثماني .

وحقـــيقة الأمر أن السلطان أورخان الغازي ورث عن والده دولـــة ليســـت لهـــا قوانين أو عملة ، أو حدود واضحة ويحيط بها

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٥٠ .

(٢) حسين لبيب : تاريخ المسأله الشرقية ، ص١٠

(٣) دائرة المعارف الإسلامية :ج ٥ ، ص١١١

(٤) عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج إ ، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٥) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٢٤٨– ٢٤٩

(٦) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص١٥ .

جـيران أقـوي مـنها . وكان عليه أن يقيم دولة راسخة الأقدام ، والتوسـع علـى حساب جيرانه ، وتحويل اتباعه إلى أمة ، فألتفت أورخـان فـي بداية حكمه إلى سن القوانين ، وإحداث التنظيمات الضـرورية لحمايـة إمارته وأدرك أن الأعباء الملقاه على إمارتهُ الصغيرة أكبر من إمكانياتها خاصة بعد أن أضحت الدولة البيزنطية تنظر إليها بعين الخوف ، ولهذا عني أولاً بإعادة تنظيم الجيش .(١)

وكـان أورخـان قد قرأ كتاب لنظام الملك الوزير السلجوقي وهـو سـفر نامه وهو كتاب في فن الحكم ، وتجاربهِ ، والأنظمة والدواويـن ، وقـد وضع نظام الملك تفصيلاً عن الطريقة المثالية لإيجـاد قوة محاربة ، إذ أشار إلى اختيار عدد من الأولاد في سن مـبكرة ، وتقـوم الدولـة بتعليمهم والعناية بهم ، وتعليمهم الإسلام وفنون الحرب واللغات والتاريخ والمنطق ، وهكذا بدأ أورخان في البحث عن مصادر جديدة للقوة المحاربة (٢).

وقـد استحسـن هو وأخيه علاء الدين (*) هذا النظام وشرعوا في إنشاء جيش نظامي من المشاة يسمى الإنكشارية.(٣)

---

(١) عبد الرحمن شرف : تاريخ دولة عثمانية ، ج١ ، ص ٧٠ ، محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٤ ، ٢٥ . خلـف الوذينانـي : مرجع سابق ، ص٨٢ . أحمد عبد الرحيم مصطفى : في أصول الـتاريخ العثمانـي ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الشروق ، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م ، مرجع سابق ، ص٣٨ .

(٢) عبد الرحمن شرف : المصدر السابق ، ج١ ، ص٧٢ ، أميرة مداح : مرجع سابق ، ص٢٠ .

(*) تعـزو الـروايات المتداولة أن التشريع العثماني الأول ، وتنظيم الجيش إلى الأمير علاء الدين . الـذي كان رجل سلام ، أعتزل العالم ، وهو في سن الصبا ، ولم يشترك في قتال قط ،رفض إقتسام أراضـي عـثمان ، ثـم عيـنه أورخان صدراً أعظم ، ولقبه بالباشا ، وقام بسن القوانين ، وتنظيم الجيش، أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص٣٨ .

(٣) عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٤٧م ، ص٣٥ .

وقـــد رأى أورخان أن يستفيد من أسرى الحرب في المعارك الدائـــرة على حدود العالم المسيحي ، ثم تطور الأمر وصارت تقدم الأســـر المســـيحية أبنائها لإلحاقهم بهذه القوة الجديدة مستفيداً من خمـــس الغـــنائم التـــي يحصل عليها السلطان كحق شرعي له في الإنفاق على هذا الجيش .

وبـــدأ أورخان منذ عام ٧٣١ هـــ/ ١٣٣٠م في تكوين الجـــيش النظامـــي الجديد " يني جري أو يكي جري " الذي عرف محرفاً بالإنكشارية .[١]

ولأن الدولـــة العثمانية دولة إسلامية منذ نشأتها فقد ارتبطت بالطـــرف الصـــوفيه (*) كمظهـــر إسلامي ، لذلك صحب أورخان الأطفـــال فـــي نفـــس اليوم إلى الشيخ بكتاش (**) صاحب الطريقة المشهورة البكتاشية التي كانت منتشره في المنطقة أنذاك وطلب منه

---

[١] على سلطان : مرجع سابق ، ص٢٧- ٢٨ .

(*) يؤخـــذ علـــى الدولة العثمانية أنها آزرت الطرق الصوفية منذ نشأتها ، فقد أولتهم برعاية وبالمال وجعلـــت فرقة في الجيش تابعه لهم ، وأنتسب السلاطين للطرق الصوفية . وانتشرت في البلقان مثل المولويـــه والنقشـــبندية والبكتاشـــيه والرفاعـــية . أنظر الصفصافي أحمد المرسي : الدولة العثمانية والولايات العربية ، مجلة الداره ، العدد ٤ ، السنه ٨ ، رجب ١٤٠٣ هـــ إبريل ١٩٨٣م ، ص٧٢ .

(**) ولـــد الحـــاج بكتاش في نيسابور سنة ٦٤٥ هـــ ، وفي سنه ٦٨٠ هـــ ، أشار عليه الشيخ أحمد يســـوي بالتوجة إلى الأناضول ، وســـافر إليها واستقر بمكان بالـــقرب من قبر شهـــير وتـــــوفي فـــي ٧٣٨ هــــ في حين تشير الرواية الأخرى أنه كان رجلاً من خرسان في بلاد فارس عاش في منتصـــف ق ١٤ م وكـــان لديـــه كـــرامات ، كمـــا أنه كان ولي من أولياء الله ، أغدق بركاته على الإنكشارية. أنظر الصفصافي أحمد مرسي : مرجع سابق ، ص٥٦ . انظر إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، د.ط ، القاهرة ، ١٩٤٦م ، ج٢ ، ص٦٧٩.انظر دائرة المعارف الإسلامية: ج٢٧ ، ص٤٦٧ ، ٤٦٨ . كمـــا أن حاجـــي بكـــتاش عُرف بإسم سيد محمد أفندي في زمن السلطان أورخـــان ولكـــن خلفـــاء الحـــاج بكـــتاش أدخلـــوا في الشريعة ما ليس منها . مـــحمد عبد اللطيف البـــحـــراوي : مرجع سابق ، ص٥١ .

أن يـــبارك الجيش الجديد ، فأعطى كل واحد منهم قطعة من طرف عباءته فعلقها الضابط على رووسهم تبركاً بها ، فكانوا ينسبوا قطع اللباد الموجودة في أغطية روؤسهم إلى القصة السابقة .[1]

وقال " سيدعى هؤلاء الجنود يني شري فيكون وجههم أبيض بهــياً ، وســاعدهم مريعاً قوياً ، وسيوفهم مؤسلة ماضية . فالنصر يلازمهم في الحروب التي يخوضونها ، ولا يرجعون أبداً من ساحة القــتال إلا وراية الظفر معقودة لهم " .[2] وبعد هذه المقابلة بدأوا يلبسون قلنوسة من اللباد الأبيض كالتي كان يلبسها الشيخ بكتاش ، مضافاً إليها من الخلف قطعة قماش تدلى خلفهم ، تذكاراً من الشيخ، وكــانوا يعلقــون بطــرفها ملعقة خشب ، ومنذ تلك الزيارة أتبعوا الطريقة البكتاشه حتى أن قائدهم الأعلى كان شيخ تلك الطريقة .[3]

وعلــى عكــس تلك الرواية هناك فريق من المؤرخين والباحثين يتشــككون فـــي صحتها ، بل ينفونها نفياً باتاً تأسياً على أن الحاج

---

(1) عاشق زاده : تواريخ آل عثمان ، إستانبول ، د. ط ، ١٣٣٢هــ ، ص٢٠٤ – ٢٠٦ ، محمد عبد اللطــيف البحراوي ، من خصائص تاريخ العثمانين ، مجلة الداره ، العدد ٤ السنة ١٣ رجب ١٤٠٨ هـــ فبراير ١٩٨٨م ، ص٢٠٤ ، محمد عبداللطيف البحراوي : مرجع سابق ، ص٥١ . ، زياد أبو غنــيمه : مرجع سابق ، ص٣٤ ، عرفان كوندوز : الدولة العثمانية والتصوف ، د. ط ، إستانبول ، ١٩٨٤م ، ص١٣٣ ، أحمــد جــودت : تاريخ جودت : بيروت ، ١٣٠٨هــ ، ج١ ، ص ٣٩. أنظر أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار الصادر ، ١٤١٧هــ / ١٩٩٧م ، ج٢ ، ص١٢٠ .

(2) محمــد جمــيل بيهم ، فلسفه التاريخ العثماني ، ص١٢٥– ١٢٦ . أنظر حبيب السيوفي ، مرجع سابق ص٤ ، ٥ . حسين لبيب : تاريخ الأتراك العثمانيين ، ج١ ، ص١١ ، ١٢ .

(3) إســماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج٢ ، ص٤٨٨ ، ٤٩١ . أنظر ايضاً محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٦، ٢٧

بكـــتاش كان قد جاز إلى ربه قبل إنشاء أو جاق الإنكشارية بقرن من الزمان .[1]

علـــى أية حال ترى الدراسة أن الإنكشارية أرتبطت إرتباطاً ويـــثقاً منذ نشأنها بالطريقة البكتاشيه سواء كانت قصة مقابلة الشيخ بكـــتاش بهولاء الأطفال صحيحة أم لا ، فإن إرتباطهم جاء مبكراً جداً ، والدليل على ذلك أن جميع حركات العصيان التي كانت تقوم بها الإنكشارية نجد أن شيوخ البكتاشية كانوا يساندونهم فيها ، وفي بعض الأحيان يشتركوا معهم ، كما أننا نجد أنه في أعقاب القضاء علـــى الإنكشارية ، يأمر السلطان محمود الثاني بإلغاء هذه الطريقة وإغلاق تكاياها .

وقـــد كـــان الإنكشـــاريون ملتصقون إلتصاقاً قوياً بالطريقة البكتاشـــية وعلى اتصال وثيق بهم ، ويظهرون نحو شيوخها طاعة تامـــة وصـــلت إلـــى حـــد الولاء العميق ، ولذلك كان يطلق على الإنكشـــارية أحـــياناً "عســـكري بكتاشية " أي أبناء الحاج بكتاش ، والواقـــع أن الأهمـــية السياسة التي اكتسبتها الطريقة البكتاشية إنما يـــرجع إلـــى أرتباطها الوثيق بالإنكشارية الذين كانوا ينظرون إلى شيوخ هذه الطريقة بمثابة أئمة لهم [2]

ومـــن ثـــم نجـــد أن الإنكشـــارية قد انضموا تحت الطريقة البكتاشـــية، ويقـــال أن الأورطـــة العثمانـــية قد أعترف بإرتباطها

---

[1] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٦، ٢٧

[2] عاشـــق باشا زاده : مصدر سابق ، ص٢٠٤ ، ٢٥٠ . عبد العزيز الشناوي: ج ١، مرجع سابق ، ص٤٨٠ ، ٤٨١ :أنظر دائرة المعارف الإسلامية:ج٧ ، ص٤٧٠ .

بالبكتاشـــية رســـمياً عام ١٠٠٠هــ /١٥٩١م ، وكان عدد الشيوخ ثمانـــية ممـــن سكنوا ثكنات الإنكشارية . وارتبط الطرفان بعلاقات شخصية حميمة متبادلة . [١]

نظام الد وشرمة :

بعـــد أن أنتقل الأتراك إلى الأراضي الأوروبية ، وتضاعفت فـــتوحاتهم في منطقة الروملي زادت حاجتهم إلى الجنود ، فاتجهوا لأجـــل هـــذا إلى الإستفادة من أسرى الحرب بموجب قانون عرف بإسم " ينجيك قانوني " أي قانون الخُمس الذي يحتمل أنه صدر عام ٧٦٥هــ /١٣٦٣م . فكان ينص على أن تحصل الدولة على خُمس أســـرى الحرب حسب الشريعة الإسلامية . وكان يجري في البداية إلحـــاقهم بأوجاق الإنكشارية بعد مرحلة تدريب قصيرة ، فلما رأوا بعـــض المحاذيـــر في ذلك قرروا أن يسلم هؤلاء الفتيان من أسرى الحـــرب للأســـر التركـــية في الأناضول ، بذلك يمكن للأسرى أن يعملوا بالزراعة لقاء أجر زهيد ، ويتعلموا في الوقت ذاته العادات والتقالـــيد الإســـلامية والتركـــية ، وكانوا يتلقون التعليم العسكري الأساســـي في أوجـــاق العجمية الذي ينتقلون له حيث يتم تحويلهم إلـــى أوجـــاق الإنكشـــارية – وهو ما سأتحدث عنـــه. فيما بعد – الـــذي تشكل في غاليبولـــي على أيام السلطان مراد الأول . [٢]

وهـــذه كانت أول وسيلة للحصول على الأطفال المسيحيين ، كما كانت هناك وسائل أخرى منها الهدايا أو شرائهم من النخاسين

---

[١] على سلطان : مرجع سابق ، ١٦٧ .

[٢] تـــاريخ أبـــو الفاروق : تاريخ عثمانيد ٥ ، ج١ ، ص٧١ ، أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق، ج١ ، ص٨٢ .

وهم تجار الرقيق والجواري [1] غير أنه كانت أهم وسيلة هي جمع الأطفال الذين فقدوا أهلهم في الحروب وتعليمهم الدين الإسلامي.

بعـــد أن ينـــتهوا من جمع الأطفال يجري تنظيمهم في قوافل يـــتراوح عـــدد أفرادها بين مائه إلى مائتي غلام ، ثم يتم فحصهم لأخر مره ، قبل إرسالهم إلى المركز ، وبعد ذلك تُجري لهم عملية الخـــتان – علـــى إعتبار أنهم أصلاً من المسيحيين ثم يؤُخذ البعض مـــنهم لأجل السراي.[2] ثم يربوا تربية إسلامية عسكرية وفكرية ، ويعتـــنقوا الإســـلام ، ويتعلموا اللغة التركية ، ويعيشون في ثكنات خاصة بهم ، لا يختلطوا بالمجتمع ، وإنما وهبوا أنفسهم للدفاع عن الدين الإسلامي والسلطان . [3]

كذلك يتم تدريبهم على الفنون الحربية فهم ليس لديهم عملاً غير الجندية ، ولا دين غير الإسلام ، كانوا في غاية الطاعة والثبات في المعـــارك . [4] وهكـــذا نجد أن أورخان أنشأ جيشاً أعتمد فيه على أبناء النصارى الذين لا أهل لهم ، وتنشئتهم على الإسلام . [5] وقد

---

[1] عمر عبد العزيز عمر : محاضرات في تاريخ الشعوب الإسلامية ، د .ط ، القاهرة : دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩ ، ص٣٧ ، ٣٨ .

[2] أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق ، ج١ ، ص٣٨٣ .

[3] عـــبد العزيـــز نـــوار : تاريخ الشعوب الإسلامية العصر الحديث ، د . ط ، القاهرة : دار الفكر العربي، ١٤١٩ هـــ /١٩٩٨م ص٦٣ . أحمد جودت ، ورقه ٩ .

[4] جورجـــي زيدان : مصر العثمانية ، تحقيق محمد حرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الهلال ، إبريل ١٩٩٧م ، ص٦٥ .

[5] زين العابدين شمس الدين نجم : الوظائف العسكرية والتشكيلات القتالية في العهد المملوكي والعهد العثماني ، ص٢٩ .

أخــذ أورخان يشجع تحويل الرعايا المسيحيين إلى رعايا عثمانيين مسلمين . [1]

وقــد إتــبع أورخان في ذلك المبدأ الإسلامي " لا إكراه في الديــن " . وقــد دُرّبــوا هؤلاء الغلمان تدريباً جسمانياً وعقلياً حتى تظهر مواهبهم ، ثم قسموا إلى قسمين :-

القســم الأول : يختارون من تظهر عليه علامات الذكاء والفطنة ، ويطلــق عليهم " أوج أوغلان " وهؤلاء يرحلوا[2] لينشأوا في دور الحجــاب الأربع ، في أدرنه ، وفي بيره . وكانوا يصنفون أصنافاً خمسة . [3] ومن الصنف الخامس كان يؤخذ المرشحون إلى سراي القصر ، ويدُربون في مدرسة يتخرج منهم مرشحون يتولون أعلى مناصب الدولة ، فيصلون إلى مناصب الوزراء والصدور العظام ، وكــانوا جميعاً يدربون تدريباً إنسانياً رغم صرامتهِ ، وكانت الغاية من تلك الصرامة خلق رجال شجعانا أكفاء ، وكان سليمان القانوني ٩٢٦هــــ - ٩٧٤هــــ / ١٥٢٠م - ١٥٦٦م نفســه يتفقد أطفال مدرسة القصر ليلاً ليطمئن على أحوالهم . [4]

القسم الثانـي :- إرسال باقي الأطفال لينضموا إلى أوجاق العجمية لمدة سبعة أو ثمانية أعوام كخطوة مبدئية لينتقلوا بعدها إلى أوجاق

---

[1] محمد عبداللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانين ، ص٢٠٤ .

[2] محمد أنيس: الدولة العثمانية والشرق العربي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٣م ، ص٧٧ . أحمــد محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الكتاب الجامعي ، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ص٥٨ .

[3] كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص٤٦٥ .

[4] محمود السيد : تاريخ الدولة العثمانية وحضارتها ، الطبعة الأولى ، جده : مؤسسة شباب الجامعه، ١٩٩٩م ، ص١٩٩ .

الإنكشـــارية، أو إلى أحد الفرق الأخرى ، حيث يتم تسجيل أسماء وأوصاف الأطفال الداخلين إليه في دفتر يقال له كوتوك أي "السجل" وهـــي عملية يطلقون عليها اصطلاح " قيويه جيقمه " أو " نذركاه " أي الخـــروج إلـــى الباب أو التخرج . وعندئذ تزاد لهم الرواتب ، وأســـتمر أوجـــاق العجمية يقوم بهذه الوظيفة حتى عام ١٢٤٢هـــ/ ١٨٢٦م[١] وهنا يجدر الحديث عن الغلمان الأعاجم.

ويـــراد بالغلمـــان الأعاجم الصبيان الذين يقيمون في الثكنات للـــتمرن علـــى الحركات العسكرية استعدادا للدخول في الوجاقات وكـــانوا علـــى زمـــن أورخان ألف غلام من النصارى ، ثم أخذ الســـلاطين يســـتكثرون مـــنهم ، ويبنون لهم الثكنات ، أو القلاع لإقامـــتهم . وكـــان لهم في إختيارهم شروط من جملتها أن يكونوا صـــحاح الأبـــدان والعقول فلا عجب إذ تألف منهم جند كاد يفتح أوروبا ، ويكتسح العالم المسيحي.

ويجمـــع أولـــئك الغلمان من خمُس السلطان في الغنائم ، ثم صاروا يجمعونهم بالشراء ولهم ديوان تقيد فيه أسماؤهم ، ومدارس يـــتعلمون فيها الحركات العسكرية ، وأساتذة يعلمونهم كل ما يلزم للجنديه ، وهؤلاء غير الذين كانوا ينتظمون في الجندية الإنكشارية. كانوا يقومون أيضاً بأعمال أخرى مثل الإشتغال بالنجاره لإصطناع

---

(١) أكمـــل الديـــن إحسان الدين أوغلي : مصدر سابق ،ج١ ، ص٣٨٤. أنظر أحمد جودت : تاريخ جودت ، تحقيق :عبد اللطيف محمد الحميد ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤٢٠هـــ/ ١٩٩٩م ، ص١٧١ ، ١٧٢ . أرشـــيف رئاسة الوزراء بإستانبول "BOA" تصنيف مهمة دفتري رقم ٧/ص٣١٢.

السفن ، ولهم ثكنات خاصه بذلك . ومنهم فئة قليلة يلحقون بأغا[*] الإنكشارية لخدمته في الحلاقة وغيرها ، ويسيرون وراءه إذا مشى فـــي المدينة ، والذين يعرفون التركية منهم كانوا يلحقونهم بالقصر السلطاني للخدمة في المطابخ.

هـــذا يـــدل على مدى القوة التي وصل إليها أغا الإنكشارية ، والمكانه التي أحتلها في الدولة العثمانية ، حتى أنه كان يجعل الجند الصغار ييسرون خلفه .

وكـــان الغلمـــان أخلاطـــاً من الألبان ، والبوسنة ، واليونان ، والـــبلغار ، والأرمن ، سكان الروملي ، فهم على الغالب من سكان تركـــيا وأروبـــا : فكـــانوا يرسلون القواد لجميع أولئك الغلمان من ضـــفاف الدانوب وغيرها ، وكلهم مسيحيون ، ويظهر أنهم مازالوا يجمعونهـــم مـــن أبـــناء المسيحيين إلى أواسط القرن الحادي عشر الهجـــري ، ثم صاروا يدخلون فيهم أولاد الأجناد ، أو غيرهم من المسلمين .[١]

وكان للغلمان الأعاجم هبات ، وأطعمة ، وألبسة ، خاصة بهم، وكـــانوا يقســـمون إلـــى أورطه قد يصل عددها أحياناً إلى خمسين

---

[*] عـــند مازاد الإعتماد على الإنكشارية ، زاد نفوذ الأغا وتمركز في العاصمة ، وصار مسؤلاً عن تعييـــن أغـــا حامـــية الإنكشارية في مركز كل ولاية . وهذه الحامية تقيم في القلعة ووظيفتها حراسة أبـــواب المديـــنة وأســـوارها ، وفـــي بعض الأحيان الإشتراك في حملات الوالي المحلية أو حملات السلطان على الجهات الرئيسية . أنظر الصفصافي أحمد المرسي : الدولة العثمانية والولايات العربية، ص٨١ .

[١] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٦٥ .

أورطه ولكل أورطة ثلاثة ضباط يسمون"جوربجي"و"ميدان كخليا" و"القوبجي".[1]

وكانت أول ثكنة للإنكشارية في أدرنه ، ثم زاد هذا العدد في إســتانبول وكــان أكبر ضباط في أوجاق العجمية يسمى غاليبولي وكــان ينقسم الأوجاق إلى ثمانية بلوكات " المشاة – يايا " يترأس كــل واحــد منها ضابط يعرف بإسم " بلوكباشي"، ويضم الأوجاق أربعمائــة جندي ، ولم تلبث أهمية هذه الأوجاق أن تضاءلت بعد فــتح القسطنطينية أواسط القرن الخامس عشر الميلادي وتحويلها إلى إستانبول،إذ جرى فيها تشكيل أوجاق جديد للعجمية أكبر وأكثر نظاماً. أما المشاة الذين يُعرفون باسم"جماعت" الجماعة ،وينقسمون إلى مئة وواحد بلوك.[2]

هــذا عن الغلمان الأعاجم ، أما الإنكشارية فكانت تدريباتهم تختلف ونظامهم مختلف :

فعلــي النســق المتــبع فــي الجيوش العثمانية ، فإن جنود الإنكشــارية كانوا يدربون على الولاء والإنضباط الكامل ، وكانت قواتهم تسكن في ثكنات خاصة بهم ، وحسب نظام دقيق فيما بينهم، ويجري الحفاظ على الحماس الديني لديهم .[3]

---

[1] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٦ .

[2] أرشــيف رئاسة الوزراء بإستانبول (BOA) تصنيف مهمة دفتري رقم ٧/ ص ٣١٢ رقم ٢٦/ ص ٩١ . أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق ، ص٣٨٣ ، عاشق زادة : تواريخ آل عثمان ، ص١٢٠-١٦٠ .

[3] الصفصافي أحمد المرسي : إستانبول عبق التاريخ ، ص٥٦

وحسب الأنظمة التي وضعها السلطان سليمان القانوني كانت هـــذه الثكنات ، في العاصمة وهى مما كانت تضم فيلقاً مكوناً من مائـــة ألف إنكشاري يعملون بشكل دائم على التدريب وعلى الفنون العسكرية . (١)

وقد كان قائد الفوج رقم أربعة وخمسون هو الذي يترأس هذه التدريـــبات بصـــفته رئـــيس التدريـــب العسكري ، وفي أوقات التدريـــب، فـــإن رئيس كتاب الفوج مع ستة مأمورين يحضرون التدريبات ، التي تشارك فيها أربعة طوابير دفعة واحدة ، والمكان المخصـــص لذلـــك يعرف بإسم ساغرديم محله ، ومكانه خارج طوب قابي التي هي إحدى بوابات المدينة القديمة . ويتدربوا في كل سنة من الرابع من مايو إلى أول نوفمبر ، حيث يتدربوا على اســـتخدام البـــنادق مرتين في الأسبوع ، مره في سعد آباد " حقل المياه العذبة " ومرة في ساغرديم محله . وفي الشتاء أيضاً يجب أن يستغلوا كل الأيام المشرقة ليكونوا في أماكن التدريب ، وهكذا يكونـــوا دائماً عاكفين على العمل والدولة هي التي تؤمن البارود والرصاص لهم .

هـــذه القوانيـــن المتعلقة بالتدريب تسري على كل الإنكشاريين الموجودين في المقاطعات أيضا ، ولـــيس في العاصمة فـــقط ، فجميع الإنكشارية خاضعون للتجنيد .(٢) وكانوا على ثلاثة أنواع:

---

(١) محمـــود رئـــيف أفندي : التنظيمات الجديدة في الدولة العثمانية ، تعريب خالد زياده ، د.ط ،د.م، ص٤٠

(٢) مرجع سابق ، ص ٤١، ٤٢ .

النوع الأول :جـــنود الخدمة الفعلية أو الإشكندجي (Eschkindjis)

الـــنوع الثاني : الأفراد المسجلون للإنخراط بهذا الجيش ، ليملأوا الفراغ فيه عند الضرورة ، أي في زمن الحرب ، بينما يتابعون في الاوقات العادية أعمالهم ومهنهم ، ولا يقبضوا أجرهم إلا عن الفترة التـــي يـــنخرطون خلالها في الجيش ، وكان عدد هؤلاء يربو عن المائة والخمسين ألف رجل .

الـــنوع الثالـــث :- هم العثمانيون ، على إختلافهم ، وكان عددهم كبـــيراً ، وكان هؤلاء يفتخرون بأن ينتسبوا إلى هذا الجيش العريق فـــي دولـــتهم ، فيحملون إسم الإنكشاري ويلبسون زيه ، ويسمون المرشحون" Tessracdjis " . [1]

أما عن قوانين الإنكشارية ، فهي تتلخص في الآتي :-

١- الطاعة العمياء لقوادهم ، وضباطهم ، أو من ينوب عنهم .

٢- تبادل الإتحاد بين الفرق ، كأنها فرقة واحده ، وتكون مساكنها متقاربه .

٣- التجافي عن كل ما لا يليق بالجندي الباسل من الإسراف ، أو الانغمـــاس في الملذات مع التعود على روح البساطة في كل شئ .

٤- الإخلاص في الإنتماء إلى الحاج بكتاش ، من حيث الطريقة مع القيام بفروض الإسلام .

---

[1] ياســين سويد : التاريخ العسكري للمقاطعات اللبنانية في عهد الإمارتين الإمارة المعنينيه ١٥١٦م – ١٦٩٧م ، الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسه العربية للدراسات ، ١٩٨٠م ، ص٩٣ .

٥- إن الحكـــم عليهم بالإعدام ينفذ بشكل خاص – سيأتي الحديث عنه فيما بعد .

٦- يكون الترقي في المراتب حسب الأقدمية .

٧- لا يجوز أن يوبخ الإنكشارية ، ولا يعاقبهم غير ضباطهم .

٨- إذا عجز أحدهم عن العمل يحال على المعاش .

٩- لا يجوز لهم أن يتزوجوا .

١٠- لا يجوز لهم إطالة لحاهم .

١١- لا يجوز لهم الابتعاد عن ثكناتهم .

١٢- لا يجوز لهم أن يتعاطوا عملاً غير الجنديه .

١٣- يقضـــون أوقـــاتهم بالرياضة البدنية والتمرين على الحركات العسكرية .[١]

وإذا تدبـــرنا هـــذه القوانين وعلمنا مدى الأعمال العظيمة التي قام بها هؤلاء الجند من فتوح عظيمه لمصلحة الدولة العثمانية . [*] [٢]

---

[١] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٥٩ .

[*] يـــروي أن السلطان سليم أحتاج في اثناء فتوحه بين حلب ومصر إلى المال ، فأقترض دفتر داره مـــبلغ ٦٠,٠٠٠ ريـــال مـــن أحد التجار اليهود ريثما تصل الحملة ومعها النقود . فلما وصلت بعث الدفـــتردار إلى التاجر أن يأتي لقبض المال فأتي الرجل ، وقال له أنه يريد أن يتخلى عن المال مقابل ادخـــال إبنه في جند الإنكشارية فرفع الدفتر دار الأمر إلى السلطان سليم . فأكبر السلطان ذلك وبالغ في توبيخ الدفتردار حتى أنه قال له " لو لا أن يقول الناس أن السلطان سليماً قتل تاجراً طمعاً في ماله لأمـــرت بقـــتلك وقـــتل كـــل اليهود حفاظاً على قدسية وخصوصية الإنكشارية وأمر بدفع المال إلى صـــاحبه، علـــى أن لا يعـــود لهـــذا مرة أخرى ، فلا يتجاسر غريباً على الدخول في الإنكشارية إلا ونصيبيه القتل " . أنظر جورجي زيدان ، تاريخ الجند العثماني ، ص٤٥٩ وقد أكد هذا الأخير أن سليم قـــتل اليهودي برغم أنه في الرواية أكد سليم أنه لن يقتل اليهودي وأنه أعاد له المال . راجع سليمان قوجسه باش : التـــدخل الأجنبي في الثورات العثمانية ، د. ط ، إســـتانبول ، ١٩٩٣م ، ص١٢ .

[٢] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص ٤٦٠.

أما عن تقسيمات الإنكشارية : كان الجيش الإنكشاري يسمى أوجاق وكانـــت الترقية تحدث بحصول الإنكشارية على الرتبة الأعلى بعد رتبتهُ بشكل عام [١] وأوجاق معناها موقد النار [٢]، وكان مؤلفا من أربعـــة أنواع من الفرق تتألف كل منها من عدد من الوحدات التي تدعـــى أورطـــة ، وهـــي الوحدة الأساسية في هذه الفرق جميعها، ويـــتروح عددها بين مائة وخمسمائة رجل ، أي بين سرية وكتيبة مـــن خمســـمائة رجل ، ولم يكن عدد الأورطة موحداً بين مختلف الفـــرق في الجيش الإنكشاري كما كانت هذه الوحدات موزعة بين العاصمه إستابنول ، والأقاليم،ومواقع الحدود.[٣]

وقـــد كـــان يوجـــد في عصر السلطان سليمان القانوني مائة وخمسة وستين أورطة ، وكل أورطة من تلك الأورط تتولى تربية الغلمـــان وتنشأهم حتى يتخرج منهم الضباط ، وكان هؤلاء الضباط تحـــت مســـئولية أو إشراف أحد أغوات الإنكشارية ، أو أحد القادة الباشوات.[٤]

ويلي الأورطة من حيث الأهمية ما يلي :

١- السكمان أو السكبات وهي تعني خادم الكلاب ، أو حارسها ،

---

[١] Abdulkadir Rzcan : fatin'in Tes kilat kanunnamesi ve Nizam –1 Alem icin kade s Katli meselesi , istanul 1973 . TD . s, 33.31

[٢] علي سلطان : مرجع سابق ، ص١٦٩ .

[٣] ياسين سويد : مرجع سابق ج ١ ، ص٩١-٩٢ . أنظر عبد الكريم رافق ، ص٤٨ .

[٤] ألـــبرت هويرلبـــير : إدارة الإمبراطورية العثمانية في عهد القانوني ، الطبعة الأولى ، إستانبول : دار نشر سورج ، ١٩٨٧م ، ص٩٥ . أنظر محمد أنيس : مرجع سابق ، ص٧٧ .

وســموا كذلك لأنهم كانوا يقودون الكلاب أمام أمرائهم عند مســيرهم للصــيد ، وقد كانت بلوكات السكبانية مستقلة في الــبداية ، ثــم ألحقت بأوجاق الإنــكشارية في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي – سوف يتم الحديث عنها فيما بعد –

٢- أبنــاء الأعاجم ، وهم الذين سبق الحديث عنهم .[١]

٣- المشاة "يايا"وكانوا يعرفون بإسم "الجماعة" وكانت موزعة بين العاصمة أستانبول،ومواقع الحدود.[٢]

أهم الرتب والوظائف في الجيش الإنكشاري:-

١- أغا[*] الإنكشارية :-

"ينــي جري أغاسي"هو القائد الأعلى للجيش الإنكشاري بإعتباره أعلــى ضــباط هذا الجيش رتبه. [٣] وكان للواء الإنكشارية ضباط آخرين ذوي رتب عالية، مثل السكبان باشي وكتخدا العبيد ورئيس فــرقة الألغام ، وكاتب الإنكشارية وكان يطلق على هؤلاء الضباط قديماً أغوات القطار ثم أطلُق عليهم بعد ذلك أغوات الإنكشارية .[٤]

وأغــا الإنكشــارية يعــد شخصية بارزه في الدولة العثمانية والقصــر السلطاني ، وكانت القوات التي تحت قيادته تعد من أهم الفــرق فهي سلاح المشاة ودائماً تحت تصرف السلطان ، كما أنه بحكــم منصبه ومكانته شغل وظيفتين أُخرتيين ، هما: رئيس قوات

---

[١] مخطوط متن باضيه حاصر ليان : مبدأ قانون بكيجري ، ورقة ٢٥ ، ٢٦ ، انظر ص٤١ . ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩١، ٩٢ .

[٢] أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص٣٨٤.

[*] الأغا :- صار معناها الرجل الذي تم إخصاءه بعملية جراحية وهو طفل صغير .

[٣] مخطوط متن باضيه حاصرليان : ورقة ٢٥ ، ٢٦ . شمس الدين سامي : قاموس مادة يكجري ، ص ١٥٥١، ١٥٥٢ ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١، ص٤٨٢.

[٤] عبد الرحمن شرف ، مصدر سابق ، ج١ ، ص ٣٠٠.

الشرطة في العاصمة أستانبول ، وعضوية مجلس الدولة وإن كانت مثل هذه العضوية لا تعد وظيفة بالمعنى العام[١]

وأغـا الإنكشــارية هو الشخص الوحيد الأمر الناهي لجنود الإنكشارية وهو يعد بمثابة قائد القوات البرية ، وللأغا مكانة خاصة فــي القصــر السلطاني ، حيث له محلاً مخصوص وباب وديوان يجــتمع فــيه ويــنظر في كل الأمور العسكرية ، ومن هنا جاءت خطورة هذا المنصب ، فقد كان يمتلك إمتيازات خاصة وصلاحيات جســيمة مــنها تحديــد مقدار وعدد الجنود الموجودين في القلاع والأماكن الإستراتيجية. [٢].

وعلـــى هذا الأساس كان لهم تأثير مباشر على الإنكشارية ، فقــد حرضـــوهم فـــي اغلب تمرداتهم ، مستندين على صلاحياتهم الواسعة على الإنكشارية خاصة وعلى السلطان والدولة عامة وبعد فساد الإنكشارية ، أصبحوا المتحكمين في كل الأمور .

وكـــان يجري إختيار أغا الإنكشارية للتعين في هذا المنصب مـــن قبل السلطان مباشرة ويختاروا من ضباط الأوجاق حتى القرن العاشـــر الهجـــري، أوائـــل القرن السادس عشر الميلادي ويجري تنصـــيبه في القصر السلطاني ويكسى خلعة الأغا [٣]، أما بعد عودة السلطان سليم الأول من حملة إيران، فقد تغير نظام إختيار أغوات الإنكشارية فكان يجري إختياره من بين رؤساء السكبانية بوجه عام، ولما بدأ يشارك رؤساء السكبانية في بعض التمردات شرعت الدولة

---

[١] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٤٨٢ .

[٢] عبد الرحمن شرف : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٠٠.

[٣] أرشيف رئاسة الوزراء باستانبول : وثيقة رقم ١٧٢٣٧ HAT.H .

فـــي تعييـــن أغـــا الإنكشـــارية من بين ضباط السراي أي الجنود السـلطانية ، وذلك في عهد السلطان سليمان القانوني حتى يحد من طغيانهم وجبروتهم ،وابتداء من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشــر المـــيلادي حدث تغيير في تعيين أغوات الإنكشارية حيث رُؤى أن يخـــتاُر مـــن بيـــن الضـــباط أصحاب رتب وكيل الأغا " قوكتخداسي " والزغارجية ، بل ومن بعض السعاة المعروفين بإسم " جوخـــه دار " ، كمـــا كـــان أغا الإنكشارية في الوقت نفسه كبير ضباط أوجاق العجمية .[1]

والأغـــاوات أعضاء في ديوان همايوني " مجلس الوزراء " برتـــبة بكلربك " فريق أول " أي على رتبة وزير ، ويمكنهم التكلم والتصويت في الديوان حول الموضوعات التي تهم حاميهم ، الجيش والحرب فقط فلا يمكنهم التصويت كالوزراء في كل الموضوعات ، كمـــا أنه ينتظر حتى نهاية الاجتماع ليدخل غرفة العرض " عرض أوطـــه سي " ويعرض على السلطان أمور الأوجاق . أي أن الأغا ناظـــر من الدرجة الثانية ، وأكثر هؤلاء الأغاوات متخرجون من الأنـــدرون[*] مقـــربون إلـــى الســـراي ، سياســـيون أكثر مما هم عســـكريون.[2] وأغا الإنكشارية فضلاً عن مهامه العسكرية ، كان

---

[1] أكمـــل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ج ١ ، ص٣٨٤ ، أنظر عبد العزيز الشناوي ، مرجع ســـابق ج ١ ، ص٤٨٢ . أنظـــر أيضاً عبد الرحمن شرف ، مرجع سابق ، ج١ ص٣٠١ . أرشيف رئاسة مجلس الوزراء : خط همايوني H.H . وثيقة رقمها ١٥٨٣٧ .

[*] الأندرون :- مدرسة القصر السلطاني . عبد العزيز الشناوي : ج١ ، ص٤٨٢

[2] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ , ص٣٩٠ .

Eyyub Efendi : Kanunnamesi . I . u . Ktp. Ty . ٧٣٤ . s, ١٤ a – b .

مسؤلاً عن الأمن في قسم كبير من استانبول ، وحفظ النظام وحماية الأملاك ، ولذلك يبدو وكأن أعماله بعيدة عن اهتمامات القصر السلطاني إلا أنه بصفته الرئيس الأعلى للإنكشارية فقد كان دائم التحريض لأتباعه داخل القصر وكان أتباعه سريعي الإستجابة له . كما كان مسؤلاً أيضاً عن إطفاء الحرائق التي تشب في العاصمة بجانب الصدر الأعظم . وله ديوان يعقد تحت رئاسته يشكل مع قادة الإنكشارية ، ويعرف بإسم " ديوان الأغا " " أغا ديواني " يناقش فيه أمور الأوجاق ويستمع إلى القضايا المتعلقة به ، وإصدار القرارات الخاصة بالحامية مثل أمور العزل والتعيين داخل الأوجاق ، أما القضايا التي تختص بكاتب الإنكشارية تتم بعرض طلب منه ، والمسائل التي تتجاوز صلاحياته ، فكان الأغا يحولها إلى الديوان الهمايوني ، وكان له مهمة التجول مرتين أو ثلاثة مرات في الأسبوع صباحاً ومساء ليتفقد حالة الأهالي والطرق ، وله حق معاقبة المخالف .[1] وكان الأغاوات يسكنون في قصور كبيرة تسمي " أغا سراي " ويوجهون الحامية من هناك . [2]

وفي بعض الأحيان يحصل الأغا على رتبة وزير حيث يتم تعيينه على هذه الرتبة من قبل السلطان مباشرة ، ويمنح الوزارة ويكسى الخلعة من الباب العالي ، ويطلق على الآغا في هذه الحالة

---

[1] عبد الرحمن شرف : مصدر سابق ، ج ١ ، ص ٣٠١ . يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢، ص٣٩١ .

[2] Eyyub Efendi : Kanunnamesi . i. u . ktp. Ty . 734 . s, 14 a -b .

إسم " أغاباشي " وكان يقيم في الحي المــعروف بإسم " باب الأغا" " أغاقا بيسى " في إستابنول.[1]

وطــبقاً للمراسم السلطانية العثمانية فقد كان الأغا الذي بدرجة وزيــر يــتقدم مــن تقل رتبته عن وزير ، يتقدم أيضاً جميع القادة العســكريين[*] مهمــا كانــت رتــبهم خصوصاً في أيام الأعياد ، والإحــتفالات الرســمية، وكــان له مقر خاص في عاصمة الدولة ومكاتب في المناطق التي تتواجد فيها الفرقة ، وكان لا يتقدم الآغا القائد للإنكشارية في ميدان القتال . [2]

وأول أغــا للإنكشارية مُنح رتبة وزير هو سليمان كنعان أغا باشــا فــي عام ١٠٦٤ هــ/ ١٦٥٣م وبعض الأغاوات أعتلى هذا المقــام مرتيــن ، وأعتلاه الواحد منهم عدة مرات ، وحصل تسعة وعشــرون أغا على مرتبة وزير ، ثلاثة منهم ظلّوا في هذا المقام أطــول مدة ، ما يقارب من ست إلى تسع سنوات ، ووصل خمسة وعشرون من الأغوات إلى مراتب الصدور العظام . بعضهم توفي بعضهم أثناء الخدمة ، والبعض الآخر استشهد ، وأولهم شجاع الدين أغا الذي استشهد في فتح المجر . [3]

---

[1] أرشــيف رئاســة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ١٦٤٠٤ . أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص٣٨٦.

[*] وكانت الأسبقيه عليه لقادة فرق السباهية وبولوكات السلحدار ، لأن هذين السلاحين أقدم عهداً من سلاح الإنكشارية . أنظر عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج١ ، ص٤٨٢ .

[2] مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٨٢ .

[3] يلماز اوزتونا: مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩١ .

وفــرض القانون على الشخص الذي يعين أغا للإنكشارية أن يقدم للصدر الأعظم هدايا أو تعرف بإسم " جائزة " كان يتلقاها هو الأخــر مــن ضــباط الأوجــاق الأخرين ، وإذا تدنت مكانة أغا الإنكشـــارية أو عزل وأخرج من الأوجاق كانت العادة أن يعُين في الغالب أميراً على سنجق قسطموني ، أما إذا أستحق الترقية ، فهو يـــتحول إلـــى " بكلر بكي " أمير الأمراء أو يصبح قائداً للأسطول العثمانـــي " قبطان دريا " وكان عزل الأغا بيد السلطان واستمر ذلـــك حتى ، عام ١٠٠٢هــ /١٥٩٣م . ثم اصبح من صلاحيات الصدر الأعظم بعد هذا التاريخ . [1]

حــتى نهايــة القــرن السادس عشر الميلادي بالتحديــد عام ١٠٠٣هـــــ/ ١٥٩٤م كــان أغا الإنكشارية يخرج إلى الحملة مع الســلطان " البادشـــاه " فقط ، وإذا كانت قيادة الجيش لدى الصدر الأعظـــم ، يشترك الإنكشارية في الحملة بقيادة سكبانباشي . ويبقى أغـــا الإنكشـــارية برفقة السلطان في إستانبول . وبسبب قلة خروج الســـلاطين إلى الحملات بعد القرن السادس عشر الميلادي أصبح أغاوات الإنكشارية يشتركون في الحملات مع الصدور العظام . [2]

ممـــا زاد فـــي نفوذ الأغوات بدرجة كبيرة في أعقاب القرن الحـــادي عشر الهجري على إعتبار أنهم صاروا يختارون من بين رجال القصر وكبار ضباطة خاصة بعدما زاد نفوذهم داخل القصر بحكم وضعهم .

---

[1] Eyyub Efendi : kanunnamisi i.u. ktp . Ty . ٧٣٤. S,١٤ a-b . أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ،ج١ ، ص٣٨٦ .

[2] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ٣٩١ .

وفـــي وقت الحرب كان يلتف حول أغا الإنكشارية مجموعة من الجنود يطلق على الواحد منهم لفظ شاطر ولهم علماً مخصوصاً بهـــم ابـــيض اللـــون ويمـــتطون جـــياداً ويتعقبون أغا الإنكشارية بالموسيقى العسكرية ، ويصاحبونه عند ذهابه إلى الديوان . [1]

أمـــا عن لباس أغا الإنكشارية فقد تميز بزي خاص حيث كان زيـــه الرسمي من المخمل، أو الستان الموشى ، ويضع على رأسه غطـــاء رأس يعرف بإسم " مُجوّزة " أثناء توجهه إلى الديوان ، أما فـــي الأيام المعتادة فكان يرتدي معطفاً من الفراء " الشمور" مكسواً بالمخمل الأحمر ، ويضع على رأسة عمامة حمراء اللون وبيضاوية الشكل .[2]

٢- سكبان باشي :-

كان يساعد الأغا في قيادة فرقة السكمان ، ويدعى " سكبان باشي " أو ســـكمان باشـــي الذي كان بالإضافة إلى وظيفته كمساعد أول للأغا ، وكقائد لفرقة السكمان، كان ينوب عن الأغا في قيادة الجيش أثناء الحرب، وفي قيادة العاصمة.[3]

ورئـــيس السكبانية هو قائد بلوكات السكبان ، أي القائمة على تربـــية الكلاب التي تشكلت في البداية لأجل رحلات الصيد ، وهو تـــابع لأغـــا الإنكشـــارية ، وصارت فرقة السكبان تحت إدارة أغا الإنكشارية وصار موقعة الضابط الثاني في أوجاق الإنكشارية بعد

---

[1] عبد الرحمن شرف : مرجع سابق ،ج١ ، ص٣٠١ .

[2] Islam Ansiklopea Cilt ١٤, Ankara ١٩٩٠ " Yeni Ceri" maddesi . أكمـــل الديـــن إحـــســـان أوغـــلـــي : مرجع سابق ،ج١ ، ص٣٨٦ . لمزيد من المعلومات عن لباس أغا الإنكشارية الرجوع إلى محمود شوكت : مرجع سابق ، ص٨٩ - ٩٠ .

[3] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ج١ ، ص٨٢.

أن جـــرى إلحـــاق تلك البلوكات به على ايام السلطان محمد الثاني الفاتح وكان يصبح السكبان عند الترقية أغا للإنكشارية في الغالب ، أما في حالة خروجه من الأوجاق ، فكان يعين أميراً على أحـــــد السناجق، أوضابطاً من ضباط الفرق . [١]

ويقوم السكبان باشي مقام أغوات الإنكشارية في حالة واحدة فقـــط ، وهـــي الحـــرب وذلك عندما يكون أغوات الإنكشارية مع الجيش، فيبقوا رؤساء السكبان في إستانبول قائمون مقام الأغا . [٢]

كـــان الســـكبان باشـــي بدرجة سنجق بل " لواء " وفي حالة ترقيتة يصبح بك على لواء كبير ، وبعد القرن السابع عشر الميلادي رقـــي إلـــى بكلـــربك . لقد ظهر من بين السكبان باشي قادة حرب مقتدرين بعضهم شغل فيما بعد منصب الصدارة العظمى ، والسكبان باشـــي يديـــر الحامية من الناحية العسكرية بصورة مباشرة بسبب كون " أغا الإنكشارية" و " قول كتخداسي" – الذي سيأتي ذكره – شخصيتين سياسيتين [٣]

وقـــد بدأ يفقد أهميته إبتداءاً من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي حتى حلّ محله وكيل الأغا . أو وكيل الجند " قول كتخداسي " .[٤]

٣- قول كخيا أو كخيابك نائـــب الأغا.[٥]

---

(١) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ،ج١ ، ص٣٨٦ .

(٢) عبد الرحمن شرف : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٠٢

(٣) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ص٣٩٢ .

(٤) أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٨٧

(٥) أرشـــيف رئاســـة الوزراء بإستانبول " BOA" : تصنيف مهمة دفتري رقم ٢٦/ص٩١ . جورجي زيـــدان: تـــاريخ الجـــند العثماني ، ص٤٥٨ . أنظر جورجي زيدان : مصر العثمانية ، تحقيق محمد حرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة : دار الهلال ، ١٩٩٧م ، ص٦٦ ، ٦٧ .

وهـــو الرجل الثالث للحامية ، ووكيل الجنود أو وكيل الأغا ومعـــاون لأغـــا الإنكشارية وخلال بعض الفترات تقدم على سكبان باشي ، وأصبح الشخص الثاني ، وكان ذلك في النصف الثاني من القـــرن الســـابع عشر الميلادي ، وهو برتبة لواء ، وفي حالة علو شـــأنه يصبح بكلربك، وكان مسؤلاً عن ثكنات الإنكشارية الموجودة في إستابنول وعن حاميتها ، وكذلك عن أمن المدينة . (١)

٤- يني جري كاتبي " كاتب الإنكشارية :- (٢)

يطلـــق علـــيه بلغـــة الشـــعب ينـــي جرى أفـــــند يسى " أفندي الإنكشارية "وهو الرجل الرابع للحامية ، لكنه ليس إنكشارياً ، وليس عســـكرياً " وهـــو لواء مالي يعينه الصدر الأعظم ويختار عادة من أمـــناء المخازن السابقين . وميزانية الحامية العظمي والمصروفات والرواتب كلها في عهدة هذا اللواء المالي ، أصبح عمله خطيراً بعد أن صـــارت حامـــية الإنكشارية وكراً لسوء التصرفات إعتباراً من أواخـــر القرن السادس عشر الميلادي ، وقد كان تحت إشرافه مائة من الكتبة . (٣)

٥- قورنا جيباشى :-

هو الرجل الخامس للحامية ، وكان في الحقـــيقة قائـــد الأورطـــة " سرية الإنكشارية " الثامنه والستـــين ، إلا أن هذه الـــسرية يديرها

---

(١) يلمـــازا وزتونـــا : مصدر سابق ج٢ ، ٣٩٢ لمزيد من المعلومات الرجوع محمد شوكت ، مرجع سابق ، ص٩٥ .

(٢) جوزجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٥٩ .

(٣) يلمـــازا وزتونـــا: مصـــدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٢ .أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول ، تصنيف HAT.H ٤٢٣٨ .

أحد الرواد نيابة عنه ، ويعمل القورنا جيباشى في المقر .[1]

٦- صولا قباشي :-

هــو الــرجل الســادس في الحامية ، وأحد قواد الخاصة التابعين لشــخص السلطان ، والصولا قباشي هو قائد سرايا الإنكشارية رقم ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢، ٦٣ ، وكان حملة ألقاب صولاق يرتدون الملابس المزيــنة بالجواهــر ، ويــرافقون السلطان ، ويشتركون في القتال بصورة فعلية ، وهؤلاء يجب أن يكونوا ذوي مظهر خارجي أنيق ، ومهــرة في إستعمال الأسلحة ، ومن مهامهم الأساسية في الحروب حمايــة السلطان والحفاظ على حياته ،إذ لم يكن بإمكان أي شخص الإقــتراب من السلطان قبل أن يقتل جميع هؤلاء الصولاق ،وكان هــؤلاء يضعون على رؤوسهم " صور غوج " وهي شارات مزينة بالــرياش الــنادرة ، وكان لباس راس الصولاق كذلك مزيناً بهذه الشــارات " صول " يسار ، " صولات " معنى أعسر ، وقد سُمّوا بهذا الاسم لتمكنهم من إستعمال السلاح بأيديهم اليسرى .[2]

٧- **سمو نجي باشي :** هو قائد الأورطة نمرة ٧١ .[3]

٨- **زغرجي باشي :** قــائــد الأورطــة نمــرة ٦٤ .[4] ضمن أورطــات [*] الجماعة ، وتأتي درجته بعد وكيل الجند ، وقد تشكلت تلك الأورطة لتربية كلاب الصيد ، واستمر وجودها

---

[1] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٢ .

[2] مصدر سابق : ج٢ ص٣٩٣ .

[3] جوزجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٦٠ . أنظر هاملتون جب : مرجع سابق ، ص٣٨٧

[4] زغــار : هو كلب الصيد الخفيف الحركة ، وكان هؤلاء الزغارجية ، مكلفين بتربية هذا النوع من الكــلاب والحفــاظ عليها ، لمزيد من التفاصيل شمس الدين سامي : قاموس تركي ، د.ط ، إستانبول مطبعة سي ، ١٣١٧هـ ، ٦٦٨ . جورجي زيدان : مصر العثمانية ، ص٦٧ .

[*] لمزيد من التفاصيل : أنظر شمس الدين سامي : المصدر السابق ، ص٦٨٥ .

حتى بعد أن ترك السلاطين هذه الرياضة .[1] كما وجد رئيس الصكسونجيه . [*][2]

٩- **محضر أغا :-** وهو المقدم الثالث للحامية ، ويعمل في الخدمة المباشرة للصدر الأعظم مع ٦٠ إنكشاري يسمون " محضر" وهو العسكري الحارس " حرس " له ، وفي الوقت نفسه ينفذ أوامـــره[3] وكانت وظيفة المحضر الأساسية هي تولي عملية الإرتباط بين الباب العالي والأوجاق . [4]

١٠- **خصكي أوبا شخاصكي :** وهـــو قائد الوحدات الرابعة عشرة والتاسعة والأربعين المؤلفة من جنود الحرس السلطاني الذين يســمون "خاصكي"[5] وكان ينوب عن الأغا في القيادة على الحدود[6].

١١- **باشجاويش " الباش تشاووش ":** - وهــو قــائد الأورطة الخامســـة ، ورئـــيس مجمـــوع التشاووشات المكلفين بـــنقل الأوامـــر ، والـــذي يحـــل في نهاية الأمر محل الكيتخدابك والمهزر أغا ، الذي هو أيضاً قائد إحدى وحدات الأغا ، كما أنه الوسيط ما بين الأغا والديوان السلطاني [7].

---

[1] أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ج ١ ، ص٣٨٧ .

[*] هكســون نــوع مــن الكلاب المستخدمة في القبض على المجرمين ، وهؤلاء الصكسونجية كانوا يقومون على تربيتها ورعايتها .

[2] شمس الدين سامي : المصدر السابق ، ص٨٢٩ .

[3] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ج٢، ص٣٩٣، ٣٩٤ .

[4] أكمل الدين إحسان أو غلي : مصدر سابق ، ص٣٨٨

[5] شمس الدين سامي : مصدر سابق ، ص٥٦٨ هاملتون جب : مرجع سابق ، ص٢٨٩ .

[6] جورجي زيدان : تاريخ الجندالعثماني ، ص٤٩٩.

[7] هاملتون جب : مرجع سابق ، ص٢٨٩ .

١٢- **كخيابري :** وهــو يــنوب عن الأوجاق لدى الإغا . [١] وهو معــاون قــول كتخدا ، وعندما يعلو شأنه يصبح محــــضر باشي [٢]

١٣- **ديوه جيباشى :** - ويسمى كذلك " باشا ديوه جي " أي الجمال الأول. [٣] ويســمى بالفارسية " سرشتربان " وقد كان رئيساً ل ٢٥ أورطــة يقومون بنقل حاجيات الإنكشارية من أسلحة وذخــيرة ومؤنــة بالجمــال إلى المناطق التي سيتوجه لها الإنكشارية . [٤]

١٤- **باشيا ياجي :-** وهــو قائد السرية ١٠١ ، وكان يشرف على معامل البنادق الخاصة بالحامية .

١٥- **عسى باشى :** قــائد الانضــباط للحامية ، ورئيس الشرطة العسكرية .

١٦- **بيك باشي :-** قــائد جماعــة " البيك " وهم جنود الخاصة للبادشاه أي السلطان .

١٧- **باشبولو كباشي :** قائد سرايا الإنكشارية الخيالة .

١٨- **زمير كجيباشي : أوزنير كجي باشي :-** وهــو قائد سرية الزمبركجــي ال ٨٢ ، والزمــبرك عــبارة عن مدفع هاون صغير يحمل على البغال . [٥] وأفراد هذه السرية جميعاً من

---

[١] جورجي زيدان : مصر العثمانية ، ص٦٧ .

[٢] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٤ .

[٣] أكمل الدين إحسان : أو غلي : مرجع سابق ، ص٣٨٨ .

[٤] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٤ . أرشيف توب قابي سراي : وثيقة رقم ٩٢٩٨ / E ١٣.

[٥] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ،ج٢ ، ص٣٩٤ .

ضباط الأوجاق من الدرجة الثانية ، وكان يعين أمام الأوجاق من بين جنوده الذين حصلوا على العلم في المدارس الدينية .[1]

١٩- **تعليمخانه خافة جيباشي :-** وهو المسؤول عند تدريب الأسلحة لأفراد الحامية .

٢٠- **أوجيباشي :-** وهو ضابط للتدريب على الأسلحة النارية فقط .[2]

٢١- **تفنكجيباشي :-** وهو رئيس مصلحي البنادق ، حيث يقوم بفحص بنادق الإنكشارية التي أعطيت لهم .[3]

٢٢- **باشفنكجي :-** وهو المهندس المسؤول عن صناعة البنادق للحامية .

٢٣- **يني جري أمامي :-** وهو رجل دين وليس عسكرياً .

كما كان يوجد بالجيش الإنكشاري ما يسمي بالشوربجي ، لقواد الأورطة " السرية " وفي بعض السرايا يا باشي وباشبولو كباشي ، أخذ مكان هذه الالفاظ كلمة "بكباشي" اعتباراً من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي .[4]

وإلي جانب ذلك كان يوجد لكل أورطة ضباط يقتسمون قيادتها ، وإدارة شؤونها على هذه الصورة :-

١- الجورجي وهو رئيس الأورطة .

---

[1] أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ،ج١ ، ص٣٨٨ .

[2] يلمازا ورتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٤ .

[3] أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص٣٨٨.

[4] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٤ –٣٩٥ .

٢- أوده باشـــي وهـــو نائـــب الجور بجي في المناورات العسكرية .
٣- وكيل الخرج وهو الذي يتولى أمر الطعام والشراب .
٤- بيرقدار وهو الذي يتولى الأعلام والبيارق .
٥- باشي أسكي وهو الذي يتولى قيادة فرقة القراقولات .
٦- اشجى وهو الطاهي . [١]

أعداد جند الإنكشارية :-

كـــان الإنكشارية يتألفون من أبناء النصاري الأيتام ، وهؤلاء لـــم يكن عددهم في أول الأمر يتجاوز الف جندي . [٢] وأخذ يتزايد مع مرور الوقت ، فقد كان عدد فرقة الإنكشارية أثناء فتح إستانبول ثلاثة آلاف ، وأرتفع هذا العدد عند وفاة السلطان الفاتح إلى عشرة ألاف ، ثـــم أنخفض إلى ثمانية ألاف ، وأستمر هذا العدد في عهد السلطان سليم الأول . [٣]

وعـــندما تولى السلطان مراد الثالث لم يكن عدد الإنكشارية يـــتجاوز عشرين ألفاً ، لم يكن الاعتماد الرئيسي عليها في حروب الدولـــة العثمانية، وإنما كان على فرق أخرى من الجنود التي كان الأمـــراء والعمـــال يأتون بها من الولايات ، وتعرف كل منها بإسم خـــاص كالتمرجية والعزب وغيرهم ، ويسمون " يرلي قولي " أي الجند المحلي . [٤]

---

[١] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٩٩ ، مصر العثمانية ، ص٦٧ .
[٢] علي سلطان : مرجع سابق ، ص٢٨ .
[٣] دائرة المعارف الإسلامية : ص ٤٧٥ .
[٤] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٦٢ .

وقد ازدادت أهمية الإنكشارية ، وتزايد عددهم ، حتى بلغ في عهـد مـراد الثالث ٢٧ ألف . [١] على أن بعض السلاطين اهتموا بتنقـية الإنكشارية ، والتدقيق في طرق الدخول ، فقل عددهم ، ثم عادوا للتكاثر. ومن إحصاء أعداد الإنكشارية نستنتج ما يلي :[*]

١- الـنمو المطـرد لأعـداد الإنكشارية عبر فترات السلاطين العثمانية ويبدو أن السبب في ذلك هو اعتماد الدولة العثمانية إعتماداً كبيراً على الإنكشارية في الفتوحات التي قامت بها ، ويؤيـد هـذا الرأي المؤرخ الإنجليزي الأستاذ جرانت حيث يقـول " إن المشـاة الإنكشارية كانوا أكثر أهمية من سلاح الفرسان . وكان مصير أو مستقبل الدولة العثمانية يعتمد إلى حـد كبـير جـداً على الإنكشارية " ويقول أيضاً " أن الدولة العثمانـية أحـرزت انتصـاراتها في ساحات القتال بفضل الإنكشارية . [٢]

وقـد صدق هذا المؤرخ في قوله إلى حد بعيد إذ أنه بمجرد تمرد الإنكشارية وفساد نظامها تراجعت فتوحات الدولة العثمانية ، بـل وبـدأت تخسر أراضيها تباعاً ، ووقفت موقف المدافع عنها . وهذا يثبت أن الدولة العثمانية لم تعتمد عليها في الفتوحات فقط بل في الدفاع عن البلاد المفتوحة أيضاً .

---

[١] أحمد جودت باشا : ورقة ١١٠ .انظر روبيرما نتران : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٢٨٨ .

[*] أنظر الجدول في الملاحق .

[٢] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٩٢ ، ٩٤٣ .

٢- يُمـــثل عهـــد السلطان مراد الثـــالث ٩٥٣هـــ - ١٠٠٣هــ/ ١٥٤٦م - ١٥٩٦م عهـــد ازدهـــار للجند الإنكشارية ، فقد ازدادت أهميـــتهم وكـــثرت أعدادهم حتى وصلت إلى سبعة وعشرين ألف جندي .[١]

وبـــنهاية القرن الثامن عشر الميلادي قُدر عدد الإنكشارية ما بيـــن مائـــة وخمسين ألفاً ، ومائة ألف ، منهم ثمانية عشر ألف في العاصمة فقط أما المؤرخ جوشرو فقد وصل بعددهم إلى أربعمائة ألف منهم ستين ألفاً يأخذ أجراً بينما لم تستطع الدولة أن تجمع منهم في حروب تلك الفترة أكثر من خمسة وعشرين ألف رجل ، ومعنى ذلك أن قادة الإنكشارية كانوا يسجلون أسماء وهمية للحصول على أجورهم.[٢] وكان ذلك من أسباب الخلل وتوقف الفتوحات .

أسلحة الإنكشارية :

لقـــد تنوعـــت الأســـلحة والألات الحربـــية التي استخدمتها الإنكشارية ، في أوقات السلم والحرب ، واختلفت بمرور الزمن في الدفاع والهجوم .

ففي أوقات السلم لم تكن الدولة العثمانية تسمح بحمل السلاح لجند الإنكشـــارية ، فكـــان الإنكشارية الموجودين في العاصمة يحملون النبابيت[*] " massues " فقط ، ولم يكن يسمح لهم بحمل السلاح في أوقـــات السلم ، ويسمح لهم فقط بحمل سكين يضعونها في أحزمتهم أمـــا العسكريون المتمركزون في الحدود ، والبحرية في الموانئ ،

---

[١] أحمد جودت : ورقه ١١٠ .

[٢] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٥٣ .

[*] مفردها نبوت وهو العصى الخشبية الغليظة .

فقـــد كان مسموحاً لهم أن يحملوا السلاح ، وهو السيوف ، أما في أوقات الحرب ، فكان على العسكري أن يجهز نفسه بالسلاح الذي يريده ويختاره على حسابة الخاص ، وله مطلق الحرية في ذلك .[١] فكان المقلاع والقوس والسهام ، هي الأسلحة الأولى لهم ، وقد ظلت تســـتخدم إلى جانب الأسلحة النارية حتى عام ٩٥٥هـــ/ ١٥٤٨م ، ومـــن أسلحتهم التي أستخدموها أيضاً الخنجر والمخرطة والمزراق ورجـــل المهـــا، والبندقية ذات الفتيل والبندقية ذات الزناد والبندقية القصيرة والطبنجة والسجة ، وقد أدخلت هذه الآلة عام ١١٥١ هـــ/ ١٧٣٨م وتركـــت ، واستعملت ثانية عام ١١٦٨هـــ/ ١٧٥٥م . [٢] كمـــا كـــان لــــــديهم الأرقبوز البندقـــية القـــداحة " arquebuse " " massedarmes " والدبـــوس الحديدي . والصفيحة " cimeterre " الفأس وهي الأسلحة التي استخدمها جند المشاة، أما أسلحة الخياله ، فهـــي السيف والرمح ، والغدارة ، والقوس ، والسهم ، والمزراق " الـــرمح القصـــير " أو الحـــربة بأطوالها المختلفة والأسلحة النارية وأحياناً " بنادق الفتيل ، والصوان " . [٣]

كمـــا كانـــت هناك [*] أسلحة عامة مثل الصولجان والسياط ومدقـــة الحرب والبلـــط والمنجل ، والرمح الذي في رأسة بلطة ، والـــرمح المتعدد الأسنان والسيوف المستقيمة ذات الحد أو الحدين والحسام ، والخناجر ، والرمح والتروس ولبـــاس الزرد ، كما كان

---

[١] ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٢ .

[٢] دائراة المعارف الإسلامية : ج٥ ، ص١١٤ .

[٣] ياسين سويد : ج١ ، مرجع سابق ، ج١ ، ٩٢ .

[*] انظر جدول المصطلحات في الملاحق .

للجـند الإنكشـارية خوذ نحاسية أو مصنـوعة من الصلب والتي تشـبه قمـتها الطربوش وتنتهي بطرف مدبب . [١] وقد أجاد الجند الإنكشارية في استخدام كل هذه الأسلحة .[*] [٢]

وكـان العسـكري يعتنـي بأناقـة سلاحه ، وبتزينه إلى حد المـبالغة، فكانـت هناك السيوف المفضضة أي المطلية بالفضة ، كذلك المسدسات التي زينوها وزركشوها برموز ، وأسماء ، وآيات قرانـية رسمت كلها بخط بديع مذهب ، وكانت الدولة تتعهد بوجود مخـازن للأسلحة والذخيرة سواء في داخل العاصمة ، أو في عدة مواقـع خـارج حدود الدولة العثمانية . وكان جيش السلاحية " أو القرداحية " " Djebedjis au armutiers " هو المسؤول الوحيد عن تعهد هذه المخازن ، وهو الذي كان ينقلها إلى ميدان الحرب ، حيث يقـوم القادة بتوزيع الأسلحة و الذخيرة على الجند الذين يستطيعون الحصـول علـى السلاح أو الذخيرة ، وكان كل سلاح يخرج من مخازن الدولة يعتبر مفقوداً ولا يعود إليها . [٣]

وفي ساحة المعركة يقاتل الإنكشارية في وسط التشكيل القتالي أمام السلطان على تسع صفوف ، حيث كان كل صف يخلي مكانه للصف الذي يليه بعد قيامة بالرمي ، وذلك عن طريق حركة تناوبية وعند الزحف كانوا يلتفوا حول السلطان ، ويحموة نهاراً وليلاً . [٤]

---

[١] دائرة المعارف الإسلامية : ج٥ ، ص١١٤-١١٥ .

[*] لمزيد من المعلومات عن أسلحة الإنكشارية الرجوع محمود شوكت : مصدر سابق،ص٧٦ -٧٨ .

[٢] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٥٢ .

[٣] ياسين سويد : ج١ ، مرجع سابق ، ص٩٧ .

[٤] هاملتون جب : مرجع سابق ، ص٢٩٠ .

الراية :- Banniere

كان للجيش الإنكشاري راية كبيرة " بيرقاً " يسمى " الإمام الأعظم" وذلك تيمناً بإسم الإمام أبي حنيفة صاحب المذهب الحنفي في الإسلام ، وهو مذهب الدولة الرسمي ، وكانت هذه الراية من قماش الحرير الأبيض ، وقد طرز عليها بخط كبير آيات قرآنية تناسب وظروف حملها، كتلك التي تدعو إلى الجهاد في سبيل الله ، والتي تدعو لأولى الأمر بالنصر المبين ،مثل قوله تعالي (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) (*) ومثل (إن ينصركم الله فلا غالب لكم) (**) ، وكانت هذه الراية توضع في ميدان الحرب أمام خيمة الأغا ، قائد الجيش مع أعلام الفرق الأربع مطوية ضمن أغماد حمراء ، ومع التوغل " toyg " ذي الثلاثة أذناب ، وهو العلم الخاص بالأغا علم المواكب " الجنرال قائد الجيش " كما كان لكل أورطة علمه أوبيرقها نصفه أحمر ، والنصف الثاني أصفر ، وكان ينصب أمام خيمة قائد الأورطة . وتحمل تلك الرايات والأعلام عند مراسم الخروج إلى الحرب أو الاستعراضات في المواكب حملة الأعلام "بيراق دار " من الجنود . (١)

وقد خصصت الدولة لكل أورطة من الإنكشارية شارة توضع على ابواب ثكنتها وعلى أعلامها ، وعلى خيامها التي كانت تقام في

(*) سورة الفتح آية ١ .

(**) سورة آل عمران آية ٣ .

(١) ياسين سويد : Osmanli " Tarih ve medeniyet" Ircica , istanbal ١٩٩٩ . CiH I , s, ٣٨٤ – ٣٩١ مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٧ .

ســاحة القتال . وكانت خياماً مستديرة واسعة ، وهذه الشارات إما علــى شكل مفتاح أو سمكة أو خطافاً " هلبا" ، وإما هراوة (*) ذات طــرف مدبب، وجرت عادة الوشم عند الإنكشارية عن طريق نقش شارة لهم مميزة على أذرعهم وسيقانهم .[١]

رواتب الإنكشارية " العلوفة " :-

جمــيع رواتب الإنكشارية كانت تثبت في دفاتر خاصة بهذا الأمــر ، حيــث يتم رفعها للسلطان لإصدار الموافقة عليها ، كما احــتوت هــذه الدفاتــر علــى أسماء المتقاعدين والفرسان وأمناء الأســلحة [٢]من المفترض على الجندي الإنكشاري في زمن السلم ، أن يخدم ثلاث سنوات حتى يصبح له الحق بالمعاش ، وكان يبدأ بــ " أقجــة " في اليوم ، إلا أن الجندي الشجاع كان يتميز عن أقرانه فيــنال زيــادة تتراوح بين أقجتين وثلاث بعد المعركة ، وظل هذا الــنظام معمولاً به حتى عهد سليمان القانوني ٩٢٦هــ- ٩٧٤هــ/ ١٥٢٠م- ١٥٦٦م الــذي أعاد تنظيم رواتب الجند ، فوضع ثلاثة أصــناف مــن الرواتب ، الأول : للجنود " كوجك Koetschek من ثلاثة إلى سبعة أقجه يومياً "ويعرفون بأنهم أصحاب الخدمة الفعلية". الثانــي :- الجــنود القدمــاء الذين يتميزون بشجاعتهم أثناء القتال ويحملــون علــى أجســادهم اثار أفعالهم المجيدة في الحروب من جراحات وغيرها ، ويعطون من ثمانية إلى تسعة أقجة يومياً .

(*) عصى غليظة .

[١] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٧ . أنظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٨.

[٢] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة رقم ١٦١٢٢ HAT.H .

الثالـــث :- للضباط والجنود مشوهي الحرب ، أو المتقاعدين " من ثلاثين إلى مئة وعشرين أقجة يومياً . [١]

ويـــبدو أن إعطـــاء الجندي الشجاع أكثر من غيره كان من الأســباب التي خلقت بين الجنود جو المنافسة الشريف ، ولكن مع مـــرور الوقت أصبحوا يتسابقون على القتل وتشويه أجسادهم حتى ينالوا أكثر ، ولم يعد يهمهم الجهاد أو الإنتصار في المعركة .

أما عن كلمة العلوفه [*] فالأصل في ترتيبها أن تدفع يومياً ، لكنها لم تدفع إلا مرة كل ثلاثة أشهر ، تخفيفاً للثقلة ، فكانوا يؤدونها أربـــع مرات في السنة ، وتعرف في كل مرة بإسم مُؤلَّف من أول الأحرف الثلاثة للشهور، فالربع الأول من السنة مؤلف من محرم وصـــفر وربـــيع فيصبح الإسم " مصر " وعلى هذا المنوال كانوا يســـمون الربع الثاني " رجج" ، وقد يأخذون الحرف الثاني من إسم الشـــهر مراعاة للفظ ، فالربع الثالث والذي يأتي فيه رجب وشعبان ورمضان يسمونه "رشن" بإقطاع النون من رمضان بدل الراء. كما كانت لهم رسوم في تفريق العلوفة خاصة بهم.[٢]

كـــان الســـلاطين يزيدون رواتب بعض الأورط دون البعض الأخر ، لاسباب مؤقتة كأن تكون أورطة في حرب ، تفتح حصن ،

---

[١] ياســين سويد : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٣ .لمزيد من المعلومات الرجوع ، محمود شوكت : مصدر سابق ، ص٦٤ ، ٦٥ .

[*] العلوفة : الراتب الموسمي الذي يدفع للإنكشارية وبعض موظفي الدولة العثمانية ويدفع مرة كل ثلاثة أشهر ، ومصدر الكلمة من علف الحيوانات . سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية ، ص ١٥٥ .

[٢] جورجي زيدان : مصر العثمانية ، ص٧٠

أو بلد ، أو تقوم بعمل عظيم فيزيد السلطان علوفتها إلى الضعف ، أو أكثر أو أقل ، وربما يقترح السلطان على جنده ، أثناء الحصار أن الأورطة التي تفتح هذا الحص تزيد علوفتها إلى كذا ، فينتج عن ذلـــك تفـــاوت الرواتب بين الأورط المختلفة . [١] وكان يتم صرف مواجـــب للإنكشـــارية الذيـــن يقومـــون بحراسة القلاع والحصون المختلفة . [٢]

وكـــان للإنكشـــارية هدايا ينالونها في الأعياد ، أو عند تولية السلاطين ، فقد كان على السلطان عند تسلمه الحكم أن يغدق عليهم العطايا ، يقال عنها " بقشيش الجلوس " وقد يزيد راتب الإنكشارية إكـــراماً لذلك الجلوس فضلاً عن البخشيش . ولهم أعطيات أخرى يحصـــلون عليها في مواضع أخرى . ولكي نعرف قيمة النقود التي كان الإنكشارية يحصلون عليها مقارنة بنقود هذه الأيام ، نجد مثلاً أن أقـــة اللحم الضاني سنة ١٠٠٠ هـــ/ ١٥٩١ م كانت تباع بثلاثة دراهـــم ، وكـــل أربع اقات من الخبز بثلاثة دراهم ، وكلما زادت العلوفـــة زادت الأســـعار. كمـــا وأن بخاشيش أغاوات الإنكشارية تختلف بإختلاف مناصبهم ، فالإغا بخشيشة ١٠,٠٠٠ درهم ، وأغا الأســـتانة ٦,٠٠٠درهـــم ، ومـــثله أغـــا غاليبولي وأغا الأناضول والروملـــي ٥,٠٠٠ درهم ، وهكذا حتى الجندي الإنكشاري البسيط فكـــان بخشيشـــه ٣,٠٠٠ درهـــم ، وبعد جمع هذه الأموال نجد أن

---

[١] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٦١.

[٢] أرشيف توب قابي سراي : وثيقة رقم ٩٢٩٧ E .

الخزينة تدفع مالاً طائلاً قد يزيد على ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم تتكلفها الدولة نتيجة لأعطيات الإنكشارية.[١]

ونجـد أنـه فـي فـترة حروب الدولة العثمانية كانت هذه الأعطـيات مـرهقة بالنسبة للدولة والخزنية ، فكانت تضطر إلى دفعها وإلا فإن الإنكشارية ستقوم بثورة وتمرد ، وهكذا تسببت في تعطيل سياسة الدولة العثمانية كثيراً .

وقـد أصبحت هذه الاعطيات تقليداً راسخاً لا يستطيع سلطان مهما أوتي من قوة أن يتجاهل ذلك ، وإلا تعرض للمهانة على أيدي الإنكشـارية. ثم ألغيت هذه العطايا منذ عام ١١٨٨هـ /١٧٧٤م ، بعد تولي السلطان عبد الحميد الاول عرش الدولة العثمانية في عام ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣م وكان السبب في الإلغاء سبباً قوياً ، وهو أن الدولـة العثمانـية كانت تعايش أزمة ماليه عصيبة بسبب ضخامة الإنفـاق العسكري على القوات العثمانية إبان الحرب التي أشتعل فتـيلها بيـن الدولة العثمانية وبين روسيا ، وهي الحرب التي طال أمدها ست سنوات ، وتحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان.[٢]

أما عن راتب أغا الإنكشارية فقد كان يتسلم راتباً يومياً قدره ٤٠٠ اقجة ، والسكبا نباشي كان يتقاضى ٧٠ اقجة يومياً .[٣]

---

[١] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ٤٦١

[٢] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٩٤ ، ٤٩٥ .

[٣] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩١-٣٩٢ .

وذكـر أيضـاً أن الراتـب ٥٠٠ اقجـة إضافة إلى منحة سنوية تقدر بثمانين ألف أقجة . أنظر عبد الرحمن شرف: مرجع سابق ، ج١ ، ص٣١ .

أمـــا الضـــباط العاملون في الخدمة الفعلية ، فكانت رواتبهم اليومـــية تـــتراوح في عهد السلطان ســـليمان الأول بيـــن ١٢٠ أقجـــة " وهو الحد الأدنى لراتب أمير السرية ، أو قائد الأورطة ، ويشـــكل فـــي الوقت ذاته ، الحد الأعلى لراتب الضابط أو الجندي المشوه أو المتقاعد " و ٢٤ ألف قرش (*) ، أو ١٥٠٠ اقجة " وهو الحـــد الأعلـــى لراتب الأغا قائد الجيش " ، وكان هؤلاء يقبضون رواتبهم مع الجند.

بالإضـــافة إلـــى ذلك ، فقد كان للأغا وكبار قادته امتيازات ماديـــة إضافية يستفيدون منها على حساب الجند الصغار ، فقد كان للأغـــا مـــثلاً ، الحـــق فـــي ترقية أي ضابط إلى رتب مختلفة في الجـــيش ، ويقبض على ذلك مكافأة مالية من الضابط المرقى ، كما يقـــبض مكافـــأة من الضابط الذي يظل في منصبه سنة بعد أخرى علـــى اعتـــبار أن التجديد للضباط في مناصبهم يتم سنة بعد سنة وهـــذا يـــتم بعد موافقة الصدر الأعظم ، ونتيجة لحصوله على هذه الأمـــوال يجـــتمع لديه سنوياً نحو مائتي ألف قرش ، يتوزعهم مع مساعده الأول ، وهو " القول كيخيا " والثلثان له والثلث الباقي للقول كيخـــيا ، كمـــا كان الأغا ، وقادة الوحدات ينالون من رواتب الجند نسبة ١٢% تقريباً لهم . وإذا ما غاب أحد الجنود عن إستلام راتبة

(*) قرش : إسم أطلق على المسكوكات الأجنبية المتداولة في الدولة العثمانية بوجه عام ، وإذا كان القرش ذهباً أطلق عليه القرش الأحمر وإذا جاءت مجردة قصد بها السكة الفضة . ثم ظهر القرش العثماني في نهايات القرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري وكان من الذهب ويزن ستة دراهم. سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية ، ص ١٧٨،١٧٩ .

لســبب ما ، فقائد الأورطة له الحق بالإحتفاظ بالراتب اليومي لهذا الجــندي حــتى تصبح عشرون أقجة يعطي قسماً منها للأغا الذي يعطي بدوره قسماً منه لمكتب الكتبة " أي أمانة سر الجيش ". [١]

حــدث ذات مرة أن مات أحد رجال الإنكشارية وترك أربع بنات أيتام ، وكان يصرف لهن من خزينة معسكر الإنكشارية مبلغاً مــن المــال ونظراً لمشاركة الأغا لهم في هذا المبلغ أرسلوا إلى الســلطان العثماني يلتمسن زيادة إحسان السلطان عليهن . وصدر أمــر ســــلطاني بزيادة الراتــب بل وصرف مبلغ معين لكل بنت منهن . [٢]

كذلــك كــان للأغا ، وقادة الوحدات الحق بأن يرثوا ضباط الجــيش وجنوده ، وكان ذلك يتم على يد بيت المالجي " أي ضابط الخزانه في الجيش " الذي عليه أن يحمي تركة الموروث ، ويحصر إرثــه ، فــإن كــان له ورثة شرعيون يؤخذ من تركته العشر فقط ويوزع على الأغا ، وبيت المالجي ، وقائد أورطة الموروث ، وإن لــم يكن له ورثه تذهب كل تركته إلى الأغا ، وهذا الأخير يعطي العشر إلى بيت المالجي ، وقائد الأورطة، هذا إذا كانت التركة تزيد عــن عشــرة ألاف قرش ، أما إذا كانت عشرة آلاف قرش أو أقل فإنهــا تصــادر وتعــود إلــى خــزانة الدولة هذا الحال في داخل إســتانبــول ، أمــا فــي الأقاليم ، فإن قادة الأقاليم أو المقاطعات

---

[١] ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١ ص٩٤ .

[٢] أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : خط همايوني وثيقة رقم ٢١٢٦٥ .

" الســـردار serder " يتمتعون بنسبة في تركات الجند في أقاليهم بحـــق الإرث الذي يتمتع به الأغا نفسه في العاصمة ، مع فارق أن يتركوا للأغا كل إرث يزيد عن ألف وخمسمائة قرش . [١]

وهنا يتضح لنا ضخامة ثروة أغا الإنكشارية ، وما يتبع ذلك مـــن نفوذ في القصر وخارجه وفي الدولة نفسها مما اثر سلباً على الدولة العثمانية ، وأكبر فائدة مادية كان يجنيها الضباط هي المبالغ الطائلـــة التـــي كانوا يحصلون عليها من جراء حاصل الفرق بين مجمـــوع رواتب الجند والتي كانوا يقبضونها حسب العدد النظري للجـــنود الأورطة ، وبين ما كانوا يدفعونه من رواتب للعدد المحقق من الجند في هذه الوحدات ، إذا أن العدد النظري للوحدة كان يزيد بصـــورة دائمـــة عن العدد الحقيقي ، وفي عهد السلطان مصطفي الثالـــث جرى تعديل على هذه الرواتب بسبب المبالغ الباهظة التي تـــنفقها الدولـــة على الإنكشارية ، وبسبب الترف الزائد الذي كان يصـــيب الضباط من جراء كثرة الأموال في أيديهم ، قد تم تخفيض رواتب الضباط حتى أصبحت رواتب أمر السرية ، أو قائد الأورطة لا يـــتعدى المائـــة وعشـــرون اقجة يومياً " وهو اعلى حد لراتب الجـــندي" كمـــا أصبح الحد الأعلى لراتب الضابط العام ١٥٠ اقجة يومياً ، وراتب الأغا قائد الجيش ثلاثمائة اقجة يومياً .[٢]

---

[١] ياسين سويد : مر جع سابق ،ج١ ص٩٤ .

[٢] مرجع سابق ج١ ، ص٩٤-٩٥ .

ويظهـــر أن هـــذا التعديل لم يفيد الدولة إذا أنه كانت لاتزال الأســـعار مـــرتفعة ، مما سبب العصيان والتمرد .كما يبدو أن أغا الإنكشـــارية ، وكـــبار قادته كان لهم امتيازات مالية كبيرة ، كانت على حساب الجند سواء في مرتباتهم أو إرثهم .

ملابس الإنكشارية :-

كـــان الأساس في التفريق بين الرتب في الإنكشارية ، وتميز أصـــحابها بعضـــهم عن بعض بأشكال " القلانس " القاووق ، أو " الأقبية " وهو القفطان " أو الأحزمة وهي " الكمر " أما ألوانها فكان لكل طائفة من رجال الدولة قلنسوة شكلها خاص بهم وألوان خاصة بها ، وكذلك الأقبية والأحزمة وغيرها اختصت كل طائفة بشكل في أزاريـــرها فضلاً عن اختلاف أعلامها . وقد أختلف المؤرخون في وصـــف هـــذه الألبســـة ، كما أختلفوا في أسمائها ، وأشكالها ،[1] فالبعض سمى القباء أو الرداء قفطان، أو تنورة والحزام الكمر ، ونجـــد أن إخـــتلاف هـــذه الملابس على وجه الخصوص جاء عند ضـــباط الإنكشـــارية ، ورؤسائهم ، بإختلاف السلاطين ، والفترات الزمنـــية ، والرتـــب ، فأغا [*]الإنكشارية عمامته كبيرة منفوخة ، وعلـــيه القفطان ، والجبه ، وحول وسطه الحزام ، وفيه الخنجر ، ويرتدي في قدميه نعال مكشوفة ، أما نائبة قول كخيا فرداءه يختلف عن ذاك إختلافاً كبيراً ، وفي قمتة يضع شبه مروحة من الريش.[2]

---

(1) جورجي زيدان : مصر العثمانية ، ص٧١ .

(*) مراجعة الصور في الملاحق .

(2) جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٦٣ .

لقـــد تميزت البسة الإنكشارية بالبورك " القلنسوة " التي كان يلبسها الحاج بكتاش عندما باركهم ، وهي أساساً غطاء لرأس على طـــريقة الأخـــيان . كانـــت تتدلى على الكتفين بمساحة ٤٥سم٢ ، وموشـــاة حول الجزء المتدلي بالرأس بالذهب والفضة ، ومقدمتها مزيـــنة بالأحجار الكريمة ، أما عن الجزء المتدلي من فوق الكتف فقد كان رمزاً أسطوريا ً لكم جبه الحاج بكتاس الذي بارك رووس الإنكشارية .[1] كما أشرت إلى ذلك في بداية المبحث .

لقد أعطى العثمانيون لغطاء الرأس أهمية خاصة ، والذي كان يمـــيزهم عن أعدائهم ، كما أن سكان الولايات العثمانية أولوه هذه الأهمـــية، سواء كان ذلك زمن السلم ، أو أثناء الحرب . وقد حاز اللون الأبيض في قماش غطاء الرأس على الأهمية الأولى ، حيث أستحســـنه المؤرخون وأعتبروه أفضل الألوان ، واستندوا في ذلك إلى إتخاذ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضي الله عنهم اللون الأبيض رمزا لدولتهم ، كما أعتبر بعض المؤرخين العثمانيين أن اللـــون الأبـــيض علامة الإستقلال الذي أرسى دعائمه السلطان عـــثمان الأول ، والـــذي أعتبره عنوان السلام الذي أقرته الأجيال المتعاقبة العثمانية[2] .

لم تكن الدولة تتكفل بألبسة أكثر من اثنى عشر ألف إنكشاري في العاصمة وذلك لأن النظام الذي وضعه السلطان محمد الثاني ، قد حدد عدد الجيش الإنكشاري باثني عشر ألف رجل ، وعندما زاد

---

(١) على سلطان : مرجع سابق ، ص١٦٨- ١٦٩ .

(٢) محمود شركت : مرجع سابق ، ص٦٨ .

عـدد الإنكشـارية بعد عهده لم يتغير النظام الذي وضعه رغم كل الضـغوط التي مارستها الإنكشارية في سبيل ذلك ، وكانت الدولة تقدم لهؤلاء الجند كل سنة ، كمية من الجوخ السالونيكي " Drap de salonique " وتقسـم هـذه الكمية إلى إثني عشر ألف قطعة كل قطعة منها مقاسها سبعة أذرع . [1]

وهـذا القماش من النوع الثمين جداً وهو مغزول من صوف احمـر قرمـزي اللون . [2] وعندما بدأت تتعسر الدولة في تزويد الإنكشـارية بـالقدر الكافـي من الجوخ إبتداءاً من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي صارت الدولة تمنحهم ما يقابله من البدل النقدي .

إضافة إلى ذلك كانت الدولة تخصص لكل جندي سبعة أذرع مـن القمـاش الأبيض المشبوب بالصفرة للعمامات ، وسبعة أذرع أخـرى للقمصان ، وقد كانت هذه البضاعة تسلم إلى قائد الأورطة الـذي كان يوزعها حسب هواه الشخصي على جند وحدته ، وكان يفضـل عادة أن يعطيها لأقدم الرتب والجنود في الخدمة . [3] وهذا بالتالي قد يؤدي إلى أحقاد وفتن داخل الأورطة الواحده فكان هناك من يأخذ قماش والأخر لا يأخذ مما ولد الحقد في نفوس أولئك الذين لا يحصلون على شيء .

---

[1] ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٦ .

[2] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٨١ .

[3] ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٦ .

وكانـــت معظـــم الصـــناعات اللازمـــة متوفرة في الجيش الإنكشاري بما يشبه الإكتفاء الذاتي ، فكانت بعض الوحدات متفرغة لأعمـــال التزجـــيج " الزجاج " والسلاحية " أي تصليح الأسلاحة " وقيادة الزوارق ، وصنع الصناديق . [1]

أمـــا عن الزي العسكري : ففي مطلع عهد الدولة العثمانية ، أي في عهد السلطان عثمان الأول ، لم تكن البزة العسكرية تختلف كثـــيراً عـــن لباس العثمانين العادي ، لأنه لم يكن في ذلك الجيش سوى العسكريين من متطوعي الأقاليم ، وعندما أنشأ أورخان فرقة الإنكشـــارية لم يغير كثيراً في الزي العسكري لهذا الفرقة بإستثناء لـــون القلنســـوة ، والتي أعطاها اللون الأبيض تميزاً لها عن ألوان القلانـــس التـــي كـــان العامة يلبسونها في العادة ، إلا أنه في عهد السلطان مراد الأول بدأ ضباط الإنكشارية يلبسون القلنسوة الحمراء مقلدين بذلك الأمير سليمان باشا إبن أورخان .

ثـــم أصـــبح للإنكشـــارية بعـــد ذلـــك بزة عسكرية موحدة " jmiforme" فكان الجند والرتباء أي أصحاب الرتب العسكرية لا تتميز قبعاتهم " casque " أو العمائم " التي يرتدونها " turban " أو القلـــنســـوة الخاصة بالحـــفلات " ketche " بشكل معين أو لـــون معين . [2]

أما الضباط قادة الوحدات في مختلف الفرق ، كان لا يميز زيهم إلا بلـــون الحذاء ، إذ كان ضباط " البلك " ينتعلون أحذية حمراء ، أما

---

[1] ياسين سويد: مرجع السابق ،ج١، ص٩٦ .

[2] مرجع سابق ، ج١ ، ٩٦ .

ضباط باقي الفرق فكانوا ينتعلون أحذية صفراء . والرتباء أحذيتهم سوداء . ولم يكن الضباط يرتدون الملابس الرسمية التي فقدت رونقها ولمعتها ، كما كان للضباط ملابس خاصة للمراسم ، ولكل فرقة أو سرية رمزها الخاص بها . [1]

مسكن الإنكشارية :-

كانت أولى الثكنات التي اقيمت للإنكشارية توجد في أدرنه ، وعندما تولى السلطان محمد الفاتح أقام لهم اثنتين أخريين في أستابنول ، كانت إحداهما بجوار جامع " شهر زاده " ، والأخرى في " اقسراي" . فكانت الثكنات الأولى تعرف بإسم الفرق القديمة " أسكي أوطه لر " بينما تعرف الأخرى بإسم الغرف الجديدة " يكي أوطه لر " وكان لهذه الغرف عدة أبواب للدخول إليها ، والخروج منها بشكل محكم منظم ، والغرف الجديدة كانت مسرحاً لحركات عديدة من التمرد والعصيان . وكانت هذه الثكنات تنقسم من الداخل إلى أقسام ، أو غرف مخصصة لكل أورطة بلوك . كما كانت الغرف الجديدة تضم عدة أماكن مختلفة مثل التعليمخانة، وساحة تعرف باسم " أت ميدان " ، ومسجداً يعرف بإسم " أورطة جامعي " ومطبخاً، وتكية ، ومعملاً ، وغير ذلك [2] وكانت ثكنات الإنكشارية في استانبول تحتوي على تسعين ساحة ، و عشرين قصراً ، ومئة وأربعة وثمانون إسطبلاً ، و ستمائة وتسعة وثمانين صالة مجهزة

---

[1] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٦ ، لمزيد من المعلومات عن ملابس الإنكشارية الرجوع إلى محمود شوكت : مصدر سابق ، ص٧١ – ٧٦ .

[2] Osmanli “Tarin ve medeniyet” Ircica, istanbal ١٩٩٩ cilt I, S, ٣٨٤-٣٩١ أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٨٨

بوسائل الراحة ، وعدد كبير من المساجد ، وجدران الثكنات مكسوة بالحجـــر الخزفـــي " الضـــي " ، وكل غرفة تحتوي على فوانيس عـــديدة ، وقـــد صرف السلطان محمود الأول مبالغ طائلة لتجديد إنشـــاء أكبر ثكنة للإنكشارية في ميدان أقراي ، فقد كان السلاطين يرصدون المبالغ الطائلة لبناء هذه الثكنات وتزيينها بالأبواب الرخام المطعمـــة بالذهب ، وعادة ما يصرف من تجارة الحرير على بناء الثكـــنات لإتمام العمل بسرعة . أما غرفة إطفاء الإنكشارية تحتوي علـــى خمسمئة وواحد وثلاثين طلمبة جي " أي افراد الإطفاء الذين يحملون ويستعملون الة ضخ الماء " [١]

وقد شبت الحرائق مرات كثيرة في غرف الإنكشارية ، وكان يعاد إصلاحها ، أما في عام ١٢٤٢ هـــ/ ١٨٢٦ م فقد جرى تدمير تلك الغرف في حادثة الوقعة الخيرية ولم يعاد بناءها بعد ذلك . [٢]

ولـــم تكـــن ثكنات الإنكشارية تحتوي فقط على أماكن النوم للضباط والجنود، بل كانت تحتوي على كافة الحاجيات المدنية لهم مثل المطابخ ، ومخازن للأسلحة الذخائروغير ذلك . [٣]

طعام الإنكشارية :-

كانـــت الدولـــة تقدم للجيش الإنكشاري بعض المواد الغذائية الأساســـية مـــثل اللحـــوم والـــرز والخبز ، وكانت تزود الوحدة " الأورطـــة " بكمـــية من لحم الغنم ، والخبز يومياً . وخلال القرن

---

[١] يلمـــازا وزتونـــا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٩٦ .أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : وثيقة رقم ٣٦٦٤ HAT.H .

[٢] Iilam Ansiklo pedesi, cilt ١٤, Ankafa ١٩٩٠ yeni Ceril maddesi أكمل الدين إحسان أو غلي : مرجع سابق ، ص٣٨٨.

[٣] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٧٨– ٤٧٩ .

العاشـــر الهجري – الحادي عشر الهجري كان يصرف لكل جندي لــيلة الجمعـــة بمئة درهم خبز وبستين درهم لحم وبخمسين درهم بـــرغل وزيـــت وبخمسين درهم أرز وحلويات . أما عن التعيينات السـنوية فيصـــرف بمـــبلغ ٩,٣٠٤,١٧٠ أقجه لحوم وخبز بمبلغ ١٥,٠٠٠,٠٠٠ أقجـــه ومن بقية المواد ١,٢٠٣,٠٠٠ أقجه. أما في الأعياد كعيد الأضحى ، كان يقدم خروف لكل أورطة ، وهذا كل ما كانت تتسلمه الأورطة من الدولة كمواد غذائية طبيعية ، إلا أن قائد الأورطـــة كان يزود الأورطة بالكمية اللازمة من الرز ، والزبدة ، والخضار ، وهكذا نجد أن توفير الكميات اللازمة من الطعام كانت تقـــع علـــى عاتق ضابط الأورطة بالدرجة الأولى. أما في أوقات الحـــرب فقـــد كانت الدولة تزيد من الكميات لكل أورطة من اللحم والخـــبز ، أمـــا باقـــي المواد اللازمة للتغذية فكانت أيضاً من قائد الأورطـــة نفســـه ، وهـــذا هـــو حـــال باقي جيوش المشاة : مثل الـــسلاحية ،المدفعية والنقل أما الخيالة فلم تكن تزود بشيء من هذه المواد على حساب الدولة[1] . كما كان لكل أورطة ، أو بلوك خزان خـــاص للطعام " وهو ما يطبخ فيه حساء الجند " كما كانوا يأخذون حاجـــتهم مـــن اللحم من أماكن معينة ، وبأسعار ثابتة ، وإذا زادت الأســـعار كانـــت الدولة هي التي تسدد عنهم فارق السعر . وكانت الدولـــة فـــي بعض الأحيان تقدم لبعض جنود الإنكشارية قدراً من

---

[1] أحمـــد راسم : عثمانلي تاريخي ، ج١ ، إستانبول ، د. ط ، ١٣٢٨هـــ ، ص٨٧ . ياسين سويد : مـــرجع ســـابق ، ج١ ، ص٩٥ .ولمزيد من المعلومات الرجوع إلى محمود شوكت : مصدر سابق ، ص٦٥، ٦٦ .

الخبز كل يوم يعرف بإسم . " فود له " [١] .

وكانت أسماء رؤساء الإنكشارية كأسماء خدم المطابخ، والموائد، ولـــذا أطلق على رئيس الفرقة الأكبر " تشوربجي باشي" أي رئيس طباخي الحساء، والذي يليه رتبة "سقاباشي" أي رئيس السقاة، وهذه الأســماء التـــي لا علاقة لها بمناصبهم العسكرية، كانوا ينتحلونها ليدلوا بها على مقدار حرصهم على غذائهم، وغذاء جنودهم.

ولا شـــك أنهـــم كانوا مصيبين في ذلك إذ أنهم كانوا يقضون جانـــباً لا يســـتهان بـــه مـــن وقتهم في الحروب، ولاسيما في أول عهدهم. فمن كانت هذه عيشته لابد له من أن يكون ذا صحة تامة. والمحافظة على الصحة تتطلب الغذاء الجيد.[٢]

وقـــد كان للإنكشارية عادات خاصة نشأت فيهم من إختلاف عناصرهم، ومن طبيعة نظامهم ، ومن أغربها عاداتهم في الطعام ، وأدواتـــه ، وكيفـــية توزيعه. وأهم أصنافه الشورباء التي تصنع في قـــدور خاصـــة ثـــم ترســـل إلى الأجناد في قدور أكبر من الأولى يحملونهـــا معلقـــة بأعواد مستعرضة، ويحمل القدر إثنان من الجند يقال لهما "قراقول أقجي" يتقدمهما ضابط إسمه "باش قراقول أقجي " يحمـــل على كتفه ملعقة كبيرة من الحديد. ويمر بالأماكن التي فيها عســـاكر من نفس أورطته، وهم في إنتظار وصوله، ويضع القدر

---

[١] . Iilam Ansiklo pedesi, cilt ١٤, Ankara ١٩٩٠ yeni Ceril maddesi

Osmanli Ciarin ve medeniyet Ircica , Istanbul ١٩٩٩ cilt I , S, ٣٨٤ – ٣٩٧ .

[٢] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٤ .

علـــى الأرض، ويفـــرق لمن يأتي بطبقه على قدر حاجته بالملعقة الحديديـــة . وللطعـــام شـــأن كبير عند الإنكشارية، وفي مطبخ كل أورطة قدراً كبيره ، اهتم بها الإنكشارية واحترموها .[1]

كما كان للقدور عندهم رمزاً إعلامياً يعبرون به عن مسلكهم، فكانوا لا يجتمعون حول القدور لتناول الطعام فحسب، بل وللتشاور في أمورهم الخطيرة أو المهمة، فإذا ما قرروا القيام بحركة تمرد أو عصيان عسكري جماعي قلبوا القدور " القزانات" على أفواهها بعد تـــناول الطعام الموجود بها، ووضعوها صفوفاً متراصة أمامهم في ساحة " أت ميدان" أي ميدان الخيل، والموجود في ثكناتهم، ويمكثوا أمام القزانات بعض الوقت، وهم في هرج ومرج شديدين. فإذا أقبل رؤســـائهم ســـاد جو من الصمت والهدوء المطبق ، حتى يعلن أحد الرؤســـاء تفاصـــيل الـــتمرد العسكري وأهدافه سواء قتل شخصية كبـــيرة، أو عـــدة شخصـــيات، أو حتى تنظيم مظاهرات عسكرية تتعرض لمواكب السلطان في أثناء مروره، أو الهجوم على القصر الســـلطاني والمـــناداة بخلع السلطان، وتنصيب غيره وبعدها ينطلق الإنكشـــارية وحوشـــاً ضارية لتنفيذ مخطط العصيان. وإذا ما قتلوا شخصاً أو أكثر حملوا رؤوس قتلاهم معهم ووضعوا هذه الرؤوس أمـــام كـــل قزان مقلوب. وعند إنتهاء ونجاح مخططهم تصدر لهم الأوامـــر من الرؤساء بإعادة القزانات إلى ثكناتهم تعبيراً عن إنتهاء التمرد العسكري.[2]ومن الطرافة في هذا الأمر أن قزانات الأورطة

---

[1] جورجي زيدان : تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٤٦٧.

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق، ج١، ص٤٩٦-٤٩٧.

الواحـــدة متســـاوية في الكرامة مع شعارها وعلمها. فقد كانت كل أورطة مجهزة بثلاث طناجر كبيرة تستعمل لإطعام الجند. حتى أنهم كانوا يغيرون عليها بمقادر معادل لغيرتهم على علمهم أو شعارهم. نظــراً لأهميتها وقدسيتها عندهم. وإذا ما انتزع العدو هذه القزانات من أورطة في أثناء القتال، فإن جميع ضباط هذه الأورطة يعاقبون بتخفــيض الرتبة العسكرية لهم ، وإذا عاد إعتبارهم ، فلا يمكن أن يعــودوا لنفس الأورطة. ولا يحق لهذه الأورطة إطلاقاً بعد ذلك أن تحمل قزاناتها في عرض عام، وهذه إهانة تلحق بالوحدة، ولا تزول عنها أبداً.[١] كما مثلت هذه القزانات ملجأً للمجرمين والعصاة ، فمن أتـــى إليها مستنجداً ، وجب على الإنكشارية حمايته ، والدفاع عنه كما كان يفعل العربي في حماية من يستجير بهم.[٢]

قواعد وأنظمة خاصة بالإنكشارية:

لقـــد قام علاء الدين أخو أورخان بتنظيم الجيش العثماني بعد ما انتهى من تنظيم صفوف الإنكشارية. وقرر علاء الدين أن يوزع الأراضي التي يتم فتحها على الجنود، والقادة بدلاً من الأموال، كما كـــان يعطـــي هـــذه الأراضي للجنود النظاميين، والإنكشارية، وقد أخذت هذه العادة شكل التيمار بعد ذلك، وقد كان القائمين على تلك الأراضي مضطرين إلى تمهيد الطرق وإصلاحها للجيوش في حالة الحرب، حتى أنه تم اختيار وحدة من الإنكشارية تستخدم في أعمال

---

[١] ياســين سويد : مرجع سابق، ج١ ، ص١١٦ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق، ص ١٢٣، ١٢٤.

[٢] جورجي زيدان : تاريخ الجند العثماني ، ص٤٦٧ .

الحفــر، وإصـــلاح الطرق، وكان عدد تلك الوحدة في البداية ألف شخص.[1]

فقــد منح الجنود المستحقون مكافأة لهم إقطاع صغير، ويقوم بزراعته[*]، وعليه أن يقدم الجندي عدداً من الفرسان من اثنين إلى أربعة، أو عدد من البحارة لخدمة الأسطول، كما يمكن منحه إقطاع أكبر مساحة يطلق عليها "زعامت" ويطلق عليه " الزعيم" الذي يبلغ دخلـــه مائة ألف "أقجة" وهذا الأخير يقدم عن كل خمسة آلاف أقجة رجـــلاً والأقجة الفضية تعادل ربع وزن الدرهم. ولكن نجد أن قيمة الأقجة اختلفت من عهد سلطان لآخر ما بين ارتفاعاً وانخفاضاً على أن الـــنظام الإقطاعي لم يلاقِ نجاحاً في الولايات العثمانية بقدر ما لاقاه في الموطن الأصلي للعثمانيين، حيث ثبت فشله بعد الاتساع الذي حققته الدولة العثمانية، ويعود السبب في ذلك إلى أن البكلربك – الباشـــا– قـــد عمد إلى تفتيت إقطاعه وتوزيعه بين غير مستحقيه ممـــن يعملـــون معه من الأتباع. بينما أنشأته الدولة لينالـه من يقدم للدولة خدمة عسكرية ممتازة في ميادين القتال. ولذلك عمد السلطان ســـليمان القانوني إلى إيجاد "قانون نامه" حيث حرم على البكلربك حـــق الـــتحكم في إقطاعه ، إلا بعد الرجوع إلى السلطة المختصة،

---

(١) جوزيف فون هامر ، ج١ ، مرجع سابق ، ص١٠٠.

(*) لقــد حـــاول المؤرخ هاملتون جب تشويه نظام الإقطاع حيث ذكر أن الأراضي كانت تنزع من المزارعيـــن وتعطى للجنود، ويبقى المزارعون أصحابها أصلاً ، عبداً أجير فيها، ثم يقدموهم للخدمة العســـكرية. وهـــنا يحاول تشبيه هذا النظام بالإقطاع في أوروبا، مع العلم أنه يختلف فالجنود يمنحوا الأراضـــي الجديـــدة ، كما وأن المزارعين ليسوا عبيداً، وإنما أصحاب الإقطاع، وإذا حدث هذا الأمر فإن ذلك وقت ضعف الدولة العثمانية وليس طوال عهدها.

كذلــك صـــار أبــناء أصــحاب الإقطاع عليهم أن يثبتوا مقدرتهم العســكرية قــبل أن يمنحوا حق إقطاع خاص لهم، فإذا بلغ أحدهم التاســعة عشر ولم يقدم عملاً عكسرياً، فإنه يحرم من قطعة أرض، إلا أنـــه غالباً ما تمت مخالفة هذا القانون بعد تطبيقه، وذلك للتهرب من الضرائب التي أخذت تزداد قيمتها يوماً بعد الآخر.[١]

ولكن بعد مرور الوقت تم حصر أراضي التيمار على ضباط الإنكشـــارية المتقاعدين كمعاش لهم، أما الجنود غير النظاميين فقد خصص لهم أراضي ليست كمعاش الإنكشارية المتقاعدين ، وليست بمقدار الأراضي التي يطلق عليها التيمار[٢].

أمـــا عن الزواج : لم يكن يسمح للإنكشارية بالزواج ، فكان الفـــرد يعـــيش منهم دون الأمل في أن تكون له زوجة، أو أبناء، و لكـــن حـــب الجهاد في سبـــيل الله ملأ قلبهُ وحياتـــه والقرآن هو مـــنهجه ودســـتوره، والســـلطان العثماني والده، والثكنة العسكرية مأواه.[٣]

وعـــندما ســـمح لأفـــراد هذه الفرقة بالزواج في نهاية القرن العاشـــر الهجـــري السادس عشر الميلادي، تحولت الإنكشارية إلى وظـــيفة وراثية فقد صار الإلتحاق بها بالوراثة دون العناية بالمقدرة علـــى أداء الخدمة العسكرية، ثم ضعف أمر الإنكشارية بعد ذلك ، كمـــا أن زيـــادة الأســـعار وتأخر رواتبهم، جعلهم يضطروا إلى

---

(١) هاملتون جب: مرجع سابق، ص ١٩٤، ١٩٥.

(٢) فون جوزيف هامر: مرجع سابق، ص١٠٠، ١٠١.

(٣) Osmanli “ Tarin ve medeniyet” s, ٣٨٤-٣٩١ عبد العزيز الشـــناوي: مـــرجع ســـابق، ج١ ، ص ٤٧٩.

الإشـــتغال بـــبعض الصناعات اليدوية، أو الإلتحاق بخدمة السفراء الأجانـــب، كمـــا فعل بعض من ضباط الإنكشارية [١] قد حرم على الإنكشـــارية الإساءة في معاملة الفلاحين ، أو عمل أي شيء بدون إذنهـــم ، أو تعويضهم ، كما أن الإنكشارية كانت تعتمد على نفسها فـــي المـــؤن دون الأخذ من الأهالي، و كانت تحافظ على صلاتها وخاصة صلاة الجمعة في أثناء الحرب.[٢]

كان للإنكشارية أعمال أخرى غير الحرب والقتال، فقد كانت الدولـــة تعـــزز جيوشها بها في الأقاليم المفتوحة حديثاً، وكان لهذه القـــوات الصـــدارة على سائر جيوش الدولة العثمانية في الولايات العثمانية في أوروبا، وفرق الحاميات العثمانية في الولايات العربية، ونذكـــر علـــى سبيل المثال بلاد الشام بتقسيماتها الإدارية، ومصر، والعـــراق. فقد كان الإنكشارية في هذه الممتلكات يخضعون لإمرة الـــولاة المحليين، ويتقاضـــون مرتباتهم من الحكومة المحلية في الولاية.[٣]

كمـــا كان للإنكشارية الحق في تولي إمارة قافلة "حج دمشق" وكان ولاة دمشق يعينون أحد كبار الإنكشارية أمراء للجيش ، كما أنهم شاركوا في جمع الضرائب من دمشق، حيث استمرت الدولة العثمانـــية في إرسال عدد من الإنكشارية لمساعدة دفتر دار دمشق

---

[١] محمود السيد: مرجع سابق، ص٢٠٠. وقد أكد على ذلك كارل بروكـــلـــمان : مرجع سابـــق ، ص٤٦٧ .

[٢] من شبكة المعلومات العالمية "الإنترنت"

http:/ www. Geocities. Com/ The Tropics/ Paradise/ 5831 ottoman 2. Httm.

[٣] عبد العزيز الشناوي: ج١، مرجع سابق، ص٤٩٤.

في جمع الضرائب من دمشق بشكل دائم، وأصبحوا يجمعوا الضرائب من الأهالي مضاعفة عن المحدد من قبل الدولة، ويتعسفوا في جمعها ويظلموا الأهالي، وكانوا يرسلون المقدار المطلوب للسلطان، والباقي يحتفظوا به لأنفسهم.[1]

وهذا يفسر كره أهالي الشام للحكم العثماني والجند العثماني على حدٍ سواء نظراً لإثقال كاهلهم بالضرائب من قبل الإنكشارية والتعسف في جمعها.

أما عن العقوبات العسكرية المفروضة على الإنكشارية فكان يجب توخي الحذر والحيطة قبل تنفيذ الأحكام حيث يتم استجوابهم ومعرفة مدى تورطهم في أي قضية [2] فقد خصتهم الدولة بعدة امتيازات ،منها منحهم حصانة تمنع القبض عليهم، أو فرض العقوبات عليهم من قبل السلطات المدنية، فكان ضباط الإنكشارية دون غيرهم يقومون بتنفيذ العقوبات العسكرية التي يحكم عليهم بها،[3] ولقد تعددت ، أو تفاوتت تلك العقوبات بين الجلد ، والسجن، والحبس وغيرها، حيث كان يوجد في أنظمة الجيش الإنكشاري خمسة أنواع من العقوبات العسكرية هي:-

١- الحبس المؤقت، وكان الحكم به من صلاحية الضباط الأعوان.

---

(١) نوفان رجا الحمود: العسكر في بلاد الشام في القرنين ١٦ و ١٧م ، د.ط، بيروت: دار الآفاق العربية، ١٤١٠هـ -١٩٨١م، ص١٠٤، ١٠٧، ١٠٨ .

(٢) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : وثيقة رقم ١٧٣٥٧ HAT.H .

(٣) محمد سهيل طقوش: مرجع سابق، ص٢٨.

٢- الجلد البسيط، وكان الحكم به من صلاحية الأوذاباشي "رئـــيس الفرقة" الذي ينفذه بيده وبالسوط ويجلده تسعوة وثلاثين جلدة على ظهر المحكوم عليه.

٣- الجلد الكبير، وكان الحكم به من صلاحية قائد الأورطة الذي كان يأمر بجلد المحكوم عليه تسعة وسبعين جلدة بالســوط يــنفذها شاويش القطعة. ويتطلب حكم الجلد بنوعــيه، لتفنــيذه موافقة الأغا قائد الجيش، والصدر الاعظم.

٤- الحــبس المؤبــد، وكان المحكوم عليه ينفذه في إحدى قلاع الدردنيل، أو البوسفور.

٥- الموت، وكان المحكوم عليه ينتظره في إحدى قلاع الدردنيل، أو البوسفور، حيث ينفذ فيه الحكم ليلاً، خنقاً بالأنشوطة ، ثم ترمى جثته في المحيط.(١) فقد كانت تصدر الأوامر إلى سلاح الطوبجية "المدفعية" بإطلاق طلقة واحدة من المدفع إيذاناً بتنفيذ الحكم، فإذا تم التنفيذ رميت جثة الإنكشاري بعد أن تشد إلى القدمين قلة من الحديد.

كمـــا كانـــت توقع على الإنكشاري عقوبة الخصاء، إذا اعتاد الإجرام، أو تعددت حوادث خروجه عن قواعد الإنضباط العسكري، فـــيأمر "ينـــي شـــرية أغاسي" أي رئيس الإنكشارية بإجراء عملية

---

(١) ياسين سويد: ج١، مرجع سابق، ص٩٧-٩٨.

الخصـــاء الجزئـــي، أو عملية الخصاء الكلية له، ويفقد الإنكشاري رجولته، ويلحق بالخدمة الداخلية في القصر السلطاني.[1]

أمـــا الضـــباط العامون، فيعاقبون عادة بالتجريد من الاموال والممتلكات، ثم النفي.

لـــم تكـــن هذه العقوبات تنفذ علانية على الإنكشارية إلا في الضرورة إذا كانت الجريمة واقعة على شخص ما، و لا يتم تنفيذها إلا بأمـــر مـــن السلطان مباشرة [*]، وكان المتهم يمثل أمام محكمة مؤلفـــة من ستة ضباط كبار، يرأسها الصدر الأعظم، ويشترك فيها الأغا قائد الجيش، ويتم تجريد المحكوم عليه قبل تنفيذ الحكم به، بأن تنتزع عمامته عن رأسه، ويمزق طوق سترته علامة تجريده، وذلك كي ينزل برتبته إلى مســـتوى العامة، ثم ينـــفـــذ الحكم به.

وكانت عقوبة الفرار في زمن السلم الحبس أو الجلد، أما في زمن الحرب، فبالإضافة إلى العقوبات السابقة كان يشهر بالعسكري الفار، ويعتبر منبوذاً ، ومرذولاً، وجباناً لا يستحق شرف الذود عن حماية الدين والدولة، وكثيراً ماكان رؤساء هؤلاء العسكريين يغالون فـــي معاقـــبة مرووٴســـيهم الفارين بأن يقطعوا أنوفهم، أو آذانهم أو يحكموا عليهم بالموت خنقاً، ويتم تنفيذ الحكم الأخير في الميدان في

---

[1] عبد العزيز الشناوي: مرجع سابق، ج١ ، ص٤٧٩.

[*] حيـــث حدث ذات مرة أن محافظ قنديه أعدم أكثر من جندي إنكشاري دون أمر من السلطان ، نتج عنه عزل هذا المحافظ نتيجة لسوء تصرفهُ وإقدامه على أعمال مخالفة لعادات الأوجاقات العسكرية .

جـــناح خـــاص بالجلاديـــن يســـمى "لـــيك – تشادري" "Leilek-Tochadir"[1].

ومـــن هذا الإستعراض لتأسيس الإنكشارية وأنظمتها ورتبها نجـــد أن الدولة العثمانية قد أسست جيشاً على أسس سليمة، عملت هـــذه الأسس بمنتهى الكفاءة، عندما سارت عليها الإنكشارية، ولكن عندما انحرفت عن طريق الجادة، وتركت قوانينها وأسسها الأصلية، فقدت المعنى الذي وجدت من أجله وهو الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام، واصابها الخلل والفساد ، وجيش الإنكشارية أنشأته الدولة العثمانية في وقت كانت أوروبا تعاني الأمرين من جيوش المرتزقة، التي لا يضمن ولائها.

وفكـــرة جـــيش الإنكشـــارية وأنظمته لم تكن غريبة في ذلك الزمان فقد كانت عدة جيوش اعتمد تكوينها على الأطفال المشردين، ومـــع ذلـــك تركـــت هذه الجيوش ، ولم يتعرض لها المستشرقين بالجـــرح أو التشويه، وتعرضوا للجيش الإنكشاري المسلم بالتشويه وطمس الحقائق وهذا موضوع المبحث القادم.

---

[1] ياسين سويد: ج١، مرجع سابق، ص٩٨-٩٩.أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : خط همايوني H.H رقم الوثيقة ١٩٣٠٤ .

المبحث الثالث

آراء المستشرقين ومن شايعهم حول الإنكشارية والرد على هذه الآراء .

إذا كـان ظهـور الدولـة العثمانية على مـسرح الأحداث السياسـية ، غـير وجه التاريخ في منطقة آسيا الصغرى والبلقان والبلاد العربية بل وشرق أوروبا ذاتها ، فإن الجيش الذي حقق هذا التغـير كـان له إسهامات فاعلة في تنظيم الجيوش السائدة في ذلك الوقت .

وإذا كان ذهن السلاطين العثمانيين قد تفتق عن فكرة تدريب الغلمان المشردين لإعدادهم عسكرياً ، فإن هذه الفكرة لم تكن جديدة علـى الشـعوب في ذلك الوقت ، فقد وجدت منذ زمن بعيد ، في الوقـت الـذي لم تكن لأوروبا في تلك الأوقات ، عساكر متفرغة مهيـئة دائمـاً للحرب ، وإنما كانوا يجمعون العساكر من أطراف البلاد عند إعلان الحرب . [١]

لقد عاش الجندي العثماني حياة الحرب مئات السنين ، احتفظ خلالهـا بكافـة الفضائل الحربية الرائعة في كل الظروف ، والتي جعلته نموذجاً مثالياً للرجل المحارب . على أن هذا الجندي تعرض لمحن كثيرة أثناء مسيرته الشاقة ، كما ظهرت عليه أعراض الفساد والإنحراف ، مثل جندي الإنكشارية . ومع هذا بقي في داخلهُ عاملاً ثابـتاً لم يتغير عبر الزمن وهو " الإيمان " بعدالة قضيتهُ وبحقهِ في حماية دينهُ والدفاع عنه. وكان هذا الإيمان هو الذي حشد كل أبناء

---

[١] أحمد جودت : مصدر سابق ، ورقة ١٧١ .

الدولـــة العثمانـــية ، وجـــعلهـــا تحمل على عاتـــقها حماية ونشر الإسلام . [1]

للأسف إن الأقلام الحاقدة على الإسلام قد اتجهت إلى تشويه تاريخ الدولة العثمانية الإسلامية ، وذلك لأن العثمانيين أخذوا على عـــاتقهم الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام في أصقاع أوروبا طبقاً لأحكـــام الشريعة الإسلامية وحماية الإسلام ، ومن قام بهذه الحركة الجهادية ، هو الجيش العثماني الذي قوامه المشاة أي الإنكشارية ، وبالتالي أتجه التجريح والتشويه لهذه الفرقة المجاهدة في سبيل الله .

يكـــاد يجمــــع جميع المستشرقين على نص واحد في تشويه الإنكشـــارية وأصـــلهم وطريقة جمعهم ، وافتراض وجود ضريبة الغلمان وما صاحب ذلك من تعديات على الأسر المسيحية .

وقـــد جـــزم جميع المستشرقين بصحة ضريبة الغلمان ، وأن الدولة مارستها لمدة طويلة من الزمن ، ولم يورد أحد المستشرقين دلـــيلاً واحـــداً أو مرجعاً موثوقاً ذكر هذه الضريبة التي تعتبر من أخبث الافتراءات التي ألصقها المستشرقون بتاريخ الدولة العثمانية ، والتـــي تـــزعم أن العثمانييـــن كانوا ينتزعون الأطفال الصغار من أحضـــان أسرهم ، فيما يسمى " بضريبة الغلمان أو " ضريبة اللحم البشري" ثم يكرهوهم على اعتناق الإسلام لأن الإسلام لا يبيح لغير المسلمين حـــمل السلاح ، بـــمــــوجب نظام أو قانـــون يدعى نظام " الدوشـــرمة" ومـــن ثـــم الالـــتحاق بالجيش العثماني . وقد أدعى

---

[1] بسام العسلي : فن الحرب الإسلامي في العهد العـــثماني ، د. ط ، دار الفكر ، د . ت ، ج٥ ، ص٥١٩ .

المستشـــرقون أن هذه الضريبة فرضتها الدولة العثمانية على رعايا المســيحيين الذين اعتنقوا المذهب الأرثوذكسي ، مثل الجزية حيث يـــتم أخذ أطفال في سن صغيرةٍ من أسر الفلاحين المسيحية ، وبعد تربيتهم في الدوشرمة ، يتم إلحاقهم بالإنكشارية ، حتى يحاربوا مع الدولة العثمانية .

وقـــد حـــاول هـــؤلاء المستشـــرقون أن يسرفوا في استثارة المشـــاعر الإنســـانية فـــي المبالغة بتصوير المعاناة والآلام النفسية القاسية التي يلقاها هؤلاء الأطفال عند انتزاعهم من أسرهم ، وحال الأبويين عند انتزاع أطفالهم . كما أدخلوا هذا الأمر في أن السلطان كان له الحق في انتزاع خمس الغنائم له شخصياً . [1] وهذه الحصة تكون في الأطفال بمعدل خمسة أطفال من كل مدينة ، حيث يرسل الســلطان وكـــيلاً إلى كل مدينة وقرية مسيحية ، يطلع على كشف يقدمه له قسيس الكنيسة بأسماء الأطفال الذين تم تعميدهم في الكنيسة فيخـــتار الوكـــيل عـــدداً من الأطفال ما يعادل خمس مجموعهم ، تتراوح أعمارهم ما بين الثامنة والعاشرة وقد يصلوا إلى العشرين ، ويـــنقل هؤلاء الأطفال التعساء إلى العاصمة ، حيث تنقطع الصلة بينهم وبين أسرهم نهائياً . وفي العاصمة تجرى لهم عملية الختان، ثـــم يلتحقوا بأربعة مدارس في إستانبول مع أنها لم تكن فتحت في عهد أورخان أو السلطان مراد الأول ، وهما اللذان تزعم الفرية أن أحدهمـــا ابـــتدع هذه الضريبة ، ويتعلموا في هذه المدارس مبادئ الإسلام ، واللغة التركية ، والتاريخ الإسلامي بشكل عام ، والتاريخ

---

[1] زياد أبو غنيمة : مرجع سابق ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

العثماني بشكل خاص، إضافة إلى النظم العثمانية ، وذلك كله وفق مناهج وضعت خصيصاً لمحو كل أثر للنصرانية . [1]

ويدعـــي الـــبعض أن صاحب هذه الفكرة هو هابيل الأسود ، وزيـــر السلطان أورخان ، والذي زين الفكرة للسلطان وحببها إلى قلـــبه ، فأخذ بها أورخان ، وكانت هذه الضريبة عوناً كبيراً للدولة على إيجاد مورد آدمي لا ينضب ، لإيجاد فرق عسكرية كاملة من المشاة . يضعون عقولهم وأجسامهم وخبراتهم في خدمة السلطان ، لإحراز انتصارات عسكرية في ميادين القتال ، بهدف تحقيق مزيداً مـــن الفتوحات في أوروبا ، وتلتها أفريقيا في أوائل القرن السادس عشـــر.[2] ولم يكن جميع أفراد الإنكشارية حصيلة ضريبة الغلمان مـــن البلاد الأوروبية المفتوحة ، [3] بل ضمت بين صفوفها أطفالاً اشتروا بالمال أو أسروا في الحرب .[4]

وإذا نظرنا إلى أقوال المستشرقين كلاً على حده ، نلاحظ أنهم اتفقـــوا تمامـــاً فـــيما سبق ووجدت بعض الزيادات عند بعضهم أو اختلافات ، لكنها لا تخل بمضمون الفرية الأساسي .

فـــالمؤرخ الألماني المستشرق كارل بروكلمان ، جاء كلامه مطابقـــاً تمامـــاً لمـــا سبق ، وإن كان زاد عليه أن سبب إنشاء هذا الجـــيش ، مغـــالاة الناس في المطالب مقابل الخدمة في تنظيم هذا الجـــيش ممـــا أثار مخاوف السلطان أورخان ، فقرر الاستغناء عن

---

[1] زياد أبو غنيمة : مرجع سابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٧٤ ، ٤٧٥ .

[3] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٣٧ .

[4] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٧٦ .

استخدام الإقطاعيين ، واختلف أيضاً أنه نسبها إلى نصيحة جاندرلي بإحياء العرف الإسلامي القديم بالاحتفاظ بخمس الغنائم ، وكانت النواة ألف غلام نصراني . كما زاد على ذلك بروكلمان ، أنه تحدث عن كيفية تدريبهم ومعاملتهم ، والتي وصفها بأنها التزمت بالمبادئ الإنسانية لأبعد الحدود ، ثم يقسموا إلى خمسة أصناف ، ثم نسب الضريبة إلى سليم الأول ، ثم حدد مدة لجمع هؤلاء الغلمان إذ أنها كانت تجمع كل خمس سنوات ثم تقاصرت المدة حتى صارت تجمع كل سنة . (*)

وقد تمادى في غيه إذ قال أن الدولة صارت تنتزع جميع الأطفال السليمي البنية في وقت متأخر ممن تتراوح أعمارهم ما بين العاشرة والخامسة عشر . ووصف أن هذا الأمر لم يخلوا من التلاعب والعبث بالقانون ، إذ أن الموظفين العثمانيين كانوا يأخذون الرشاوي من أباء الغلمان الأثرياء ثمناً لحرية أبناءهم ، ثم يعود مرة أخرى إلى الحديث المتناقض فيقول مهما يكن من شيء فإن المستقبل اللامع الذي ينتظرهم يخفف كثيراً من صرامة هذه الضريبة ، الأمر الذي أدى إلى استثارة حسد الأتراك أنفسهم فكانوا يسعون كثيراً إلى دس أبنائهم في صفوف الغلمان النصارى . [1]

أما برنارد لويس فلم يضُف على الفرية الكثير ، ولكن ظهر التناقض واضح عندما ذكر أن المجاهدين كانوا من الأتراك

(*) ذكر أن هذه الضريبة فرضت على جميع البلدان البلقانية واليونانية ، وبعد ذلك المجر ولم يعف من هذه الضريبة إلا قليل من المناطق المتمتعة بمعاهدات مثل غلطه ورودس وإستانبول . كيف تتمتع العاصمة بمعاهدة ، وهذا يدل على عدم صدق إدعاءه . كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص٤٦٥

[1] مرجع سابق ، ص ٤٦٥ .

أنفسـهم ولقـرون عديدة ، ثم استخدموا المسيحيين اليونانيين الذين أسـلموا وصاروا مجاهدين بارزين ، أما عن الأطفال فقد ذكر أنهم كانوا يعملون خدم في القصر السلطاني ، أو يوضعون تحت رعاية السـباهية الإقطاعـية [١] ومع مرور الزمن صار نظام الإنكشارية المشـكوك فـي شـرعيته نـظاماً عثمانياً مقـبولاً على القـرى المسـيحية . [٢] وأتفق مع بروكلمان في أن أصل الفكرة يعود إلى جندرلـي ، ولكـنه أوضح أنها لم تكن من بنات أفكاره وإنما لفت نظره إليها عالم مسلم من قرمان اسمه قره رستم ، وزعم برنارد أن هذا الأمر بدعة من عمل الفقهاء ، وينسب ذلك إلى مؤرخ تركي لا يذكره.[٣]

وقـد اتفق معهم المؤرخ الإنجليزي فيشر ولكنه أضاف نقطة مهمـة ألا وهي إرجاع الفضل في قيام الدولة العثمانية واستمرارها لـيس للعثمانـيين فقـط بـل لـلصـقالبة النصارى من أمهات مسيحـيات . [٤]

المستشـرق الفرنسـي جيـبون وضـع سـبباً لقيام الجيش الإنكشـاري ، وهو فشل مراد الأول في إدخال نصارى البلقان في الإسـلام عـن طـريق العتق من الأسر ، فأنشأ هذا الجيش ونظام

---

[١] برنارد لويس : إستانبول وحضارة الإمبراطورية العثمانية ، ترجمة سيد رضوان ، الـطبعة الأولى ، جامعة بني غازي، د. ت ، ص٦٥-٦٦ .

[٢] برنارد لويس : إستانبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، ترجمة سيد رضوان ، الطبعة الثانية ، جـدة : الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ١٤٠٢هـ ، ١٩٨٢م ، ص٤٦ .

[٣] برنارد لويس : مرجع سابق ، الطبعة الأولى ، ص٦٥ ، ٦٦ .

[٤] هـ . أ . ل فشـر : تـاريخ أوروبا العصور الوسطى ، تعريب محمد زيادة – السيد العرين – إبراهيم العدوي ، الطبعة الثانية القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٧م ، ص ٤٤٨ .

الدوشـــرمه ، لإكـــراه الأطفـــال على الإسلام ، حتى أن كثير من الصـــقالبة اليونانيين فضلوا الدخول في الإسلام على أن تسلم أبنائها للعثمانييـــن ، ثـــم يتحدث على أن السلوك الحسن والمثل الجادة ، وترك الحرية الدينية مع إقامة الشعائر من صفات الإنكشارية.[١]

وقـــد وضع بيري أندرسون فلسفة جديدة لنظام الإنكشارية إذ وصـــفهُ بأنـــه التوفيق بين التقليد الغزوي في تغيير الدين والتوسع العســـكري مـــن جهة ، والتقليد الإسلامي القديم في التسامح وأخذ الجـــزية من غير المسلمين من جهة أخرى ، ويقصد بكلمة الغزوي أي مبادئ الغزو وأخذ الأسرى . [٢]

ولكـــن أحداً لم يصل إلى حد إفتراء وتشويه بول كولنز حيث ربط نظام الدوشرمة ، بنظام الرق الذي أقره الإسلام ، حيث فسرها من وجهة نظره ، إذ أوضح طالما أن هؤلاء ليسوا مسلمين ، فمن حق العثمانيين أخذ ضريبة الرأس منهم ، ولأن عدد الأسرى لم يكن كافياً لتلبية حاجات القصور من عبيد ، فقد وضع العثمانيون سياسة اســـترقاق [*] الغلمان ، وقد زاد جمع الأطفال بمرور الزمن . وقد

---

[١] محمد فؤاد كويريلي : قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، د. ط ، دار الكتاب العربي ، د. ت ، ص١٠ ، ١١ .

[٢] بيري أندرسون : دولة الشرق الاستبدادية ، ترجمة بديع عمر نظمي ، الطبعة الأولى ، بيروت : مؤسسة الأبحاث العربية ، ١٩٨٣م ، ص١٥ .

[*] لقـــد تحدث عن نظام الرق بشكل جارح دون فهم لتعاليم الشريعة الإسلامية فوضح أن الإسلام أقر الـــرق طالمـــا كانـــت الشعوب المسترقة غير مسلمة ، أو لم تقدم ضريبة الرأس وهي ضريبة يراها المســـلمون حقـــاً لهم، أي ضريبة تحدث عنها ربما قـــصد الجزية ولكن هذه الجزية تقدم مال وليس رقـــيق . ومن الواضح أنه أخذ نظام الرق في أوروبا ووضعه مكان الجزية في الإسلام . كما تحدث عن نقل العبيد بطريقة سيئة لكنهم ينالوا مكافأة عندما يدخلون عالماً جديداً غنياً ، ونسي هذا الكاتب =

اتفــق بــول كولــنز مــع بــروكلمان في أن هذه الضريبة لم تلق الامتعاض والاستياء الكافيين من الأهالي ، إذا ما قورنت حياتهم في الإنكشارية بحياة البؤس والحرمان والفقر في قراهم المسيحية . (١)

أمــا روبــير مانــتران فقد أستفاض في الحديث عن ضريبة الغلمــان ، لدرجــة أنه قال أنها ارتكزت بشكل أساسي على أسرى الحــروب ، والذين جمعوا بطريقة أكثر تحدياً من العشر (*) العائد للسلطان ، إضافة إلى شرائهم من أسواق النخاسة ، ثم أقل عدد كان يأتــي من نظام الدوشرمة، كما أضاف أن أطفال المسلمين خضعوا لهــذه الضــريبة باســتثناء أهل البوسنة والهرسك الذين اعتــنقوا الإســلام ، وأوضــح أنه من شدة قساوة هذه الضريبة على الأسر المســيحية ، فقــد صــورها التراث الشعبي رمزاً لصرامة الحكم العثماني ، كما نقل روبيرما نتران عن ستيفان جيرلاش أن عدداً من المســيحيين كــانوا يلجــأون إلى تزويج أبنائهم وهم في الثامنة أو التاســعة من العمر ، حتى يعفوا من التجنيد ، لكنه يناقض نفسه إذ يقــول أن هناك شهادات تكشف عن تذبذب هذه الظاهرة ، لأن هذا

= كيف أن أوروبا الغنية استعبدت شعوب إفريقيا بمنتهى الوحشية ثم يناقض الكتاب كلامه حيث يقول أن العبــيد يفضــلون العيش في قصور الأغنياء على حياة قراهم الفقيرة ، وأن المعاملة السيئة المهينة للسيد لا تفرق عن حياة قريته التعيسة !

لقد وضح التناقض في كلامه تارة يتحدث عن المعاملة الوحشية ، وتارة يتحدث عن أن العبيد يفضلوا هذه الحياة ، وهذا يدل على مدى التلفيق والتشويه .

(١) بــول كولــنز : العثمانــيون في أوروبا ، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ ، د . ط ، القاهرة : الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٩٣م ، ص٥٢ ، ٥٤ ، ١١٥ ، ١٦٢ .

(*) ليس العشر وإنما سهم من الخُمس هو من حق ولي الأمر .

التجنـــيد فـــي نظـــره يكفل لابن الأسرة مستقبل مشرق ، حتى أن المســـلمين كانوا يستبدلون أبنائهم بأبناء المسيحيين حتى يتيحوا لهم هذه الفرصة السعيدة . كما قام بوصف حياتهم إذ قال أنهم يعملون كعبـــيد عـــند الفلاحيـــن أو العســـاكر ، وبمجـــرد وصـــولهم إلى الإنـــكشارية ، أو وظائف الدولة ، فلا ينطبق عليهم معنى مصطلح العبيد إذ لا يجوز بيعهم أو إلحاقهم بخدمات غير خدمات الدولة . [١]

هاملتون جب كرر نفس الكلام دون وعي أو إدراك للحقيقة ، بـــل وأضاف سبباً جديداً لإنشاء الإنكشارية ألا وهو أن المحاربين الأوائل لم يكونوا سوى رجال عصابات وقطاع طرق ، لذا لم يكن مـــن الســـهولة الاستفادة منهم ، فسعى السلطان [*] للتخلص منهم ، واســـتبدلهم بالعدد الوفير من الغنائم والأسرى الذين جاءوا إليه من أولى حملاتهِ على أوروبا. [٢] وأضاف أن هذا الأسلوب الجديد الذي ابـــتكره آل عـــثمان لم يكن يكلف السلطان شيئاً من المال ، ولكن العيب فيه هو مخالفتهِ لأحكام الشريعة كل المخالفة . [٣]

خليل إينالجيك سار على نفس خطاهم ، ولم يختلف معهم في الفـــرية ذاتهـــا ، ولكنه قال أن هذه الضريبة استثنت أطفال المدن والوحـــيد لأبويـــه. وقد أكد أن الأتراك المسلمين استثنوا من نظام الدوشـــرمة ، وذلك على حد تفسيرهِ حتى لا يسيئوا استخدام الميزة

---

[١] روبير مانتران : تاريخ الدولة العثمانية ، ج١ ، ترجمة بشر السباعي ، الطبعة الأولى ، القاهرة : دار الفكر للدراسات والنشر ، ١٩٩٣ ، ص٢٥٥ – ٢٥٨ .

[*] لم يحدد اسم السلطان في هذه الفقرة .

[٢] هاملتون جب : مرجع سابق ، ص١٠٣ ، ١٠٦ – ١٠٧ .

[٣] مرجع سابق ، ص١٠٨ .

الممـــنوحة لهم ، إذ سيقوم أقاربهم بإضطهاد الرعية ، وسيرفضوا دفع الضرائب ، أما أبناء المسيحيين فحين يعتنقون الإسلام يصبحوا غيورين على الدين ويصبحون أعداء لأقاربهم ، وأرجع أقوالهِ إلى مصـــدر عثمانـــي مـــن القرن السابع عشر ولم يذكر اسمه أو أي معلومـــات عنه . وأكد أن العائلات المسلمة في البوسنة كانت تقدم أولادهـــا للدوشرمة . وقد ناقض نفسه مثل باقي المستشرقين حيث أوضح أن الأهالي المسيحيين كانوا يحاولوا تفادي هذه الضريبة في الوقـــت الذي كان فيه مسيحيوا المناطق الجبلية يقدمون أبنائهم عن طيـــب خاطـــر لهذه الضريبة ، وقد حدد المواعيد التي يجمع فيها الأطفال على حد زعمه كل ثلاث أو سبع سنوات ، حسب الحاجة ، مســـتنداً إلى الوثائق العثمانية، حيث أوضح أن إحدى الوثائق تشير إلى أنه في خلال القرن السادس عشر الميلادي كان يجمع كل سنة ألـــف ولـــد ، بينما تشير الأخرى إلى أنه كان يجمع كل سنة ثلاث آلاف ولد في نفس القرن السابق . (١)

أمـــا المؤلـــف الإنجليزي المجهول والذي ترجم كتابةُ حسين لبيـــب فلم يختلف عن باقي المستشرقين ، إلا أنه تحدث عن حياتهم وتربيـــتهم ، وهي متأرجحة ما بين شظف العسكرية ، والتعلم على احـــتمال الفقر ، وبين الهبات والعطايا والترقي السريع ، وقد شبه الجيش العثماني بالفرق الرومانية ، التي تأخذ أسرى الحروب لأنها تجـــد الـــربح الســـريع ببيعهم ، وعندما زاد عدد الأسرى ولم يجد

---

(١) خلـــيل إينالجـــيك : تـــاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الإنحدار ، ترجمة محمد الأرناؤوط ، الطبعة الأولى، بيروت : دار المدى الإسلامي ، ٢٠٠٢م ، ص١٢٤ ، ١٤٢ .

العثمانيون من يشتري هذه الأعداد الكثيرة . أخذوا خمس الغنائم من الأسرى ليصبحوا أطفال الدوشرمة، وأضاف أنه يتم إعفاء الأسرى من الفدية وإطلاق سراحهم إذا اعترفت الدول المسيحية ، وتم عقد معاهدة بين الطرفين . (١)

ونضيف آراء محمد الأرناؤوط (*)في هذا الأمر والذي أورد فـــي كـــتابهِ دراسات ووثائق حول الدفشرمة وثائق تثبت أن الدولة العثمانية قامت بجمع ضريبة الغلمان فيما يسمى" بنظام الديوشرمة " من الأسر المسيحية في بلاد البلقان ، معتمداً بالإضافة إلى الوثائق على كتابات الرحالة الغربيين . (٢)

فـــي الـــبداية جـــزم بأن قوات الإكينجي " الخيالة السريعة " مهمتها إرهاب وإثارة فزع أهالي القرى المسيحية وذلك بهدف أسر أولادهم وأخذ الخمس منهم ضمن أولاد الديوشرمة . (٣) وأوضح أن الحال تغير بعد معركة أنقرة ٨٠٥هـــ/ ١٤٠٢م إذ توقفت الفتوحات

---

(١) حسين لبيب : مرجع سابق ، ج١ ، ص١٢ .

(*) ذكر محمد الأرناوؤط الدراسات السابقة التي تختص بهذا الموضوع :-

١- بحـــث نشره أحمد رفيق عام ١٩٢٦م بعنوان أصول الدفشرمة وأولاد العجم . أحتوى على عدة وثائق مختصرة وفرمان كامل يعود إلى عام ١٦٢١م .

٢- بحـــث قدمـــه غ غالابوف الباحث البلغاري نشر فيه كثير من الوثائق الخاصة بالدوشرمة . قدم كثير من المعطيات وأعتمد على وثيقة مأخوذة من قانون نامة قديم .

٣- الباحـــث أوزنتشـــار شـــيلي قدم بحث يعتبر أكبر بحث كتب حول الدوشرمة ، حيث أعتمد على الوثائق وقدم من خلالها معلومات ذات صلة وثيقة بالموضوع .

لكـــن كـــل هـــذه الدراسات أعتمدت في الأغلب على وثائق موجودة ضمن مجموعة تاريخ مقدونيا القديمة في أرشيف فيريا . ومعهد التاريخ القومي في سكوبيه وقليلاً من الوثائق الموجودة في إستانبول .

(٢) محمد الأرناؤط : مرجع سابق ، ص٢٩-٣٣ .

(٣) المرجِع سابق ، ص٣٦ .

العثمانــية ، وبالتالـــي توقف تدفق الأسرى على السلطان العثماني والــذي كـــان يحصل على خمس أسرى الأطفال منهم ، في الوقت الــذي كانــت فــيه الدولة العثمانية في أشد الحاجة إلى شبان للقيام بفــتوحات جديــدة . ومن هنا جاءت فكرة انتزاع الأبناء من الأسر المســيحية . حيث صدر قانون الدوشرمة عام ٨٢٤هــ / ١٤٥١م فــي عهــد مراد الثاني، والذي أثبت أن هذا النظام عملي أكثر من خمس الأولاد الذي يحصل عليهم السلطان من غنائم المعركة ، لأن هــذه الضريبة تغذي الإنكشارية بفيض من الشباب الأقوياء ، وأكد الارنـــاوؤط على أن هذا القانون عمل جنباً إلى جنب مع استمرار أخذ خمس أسرى الحرب ، وقد تركزت على شعوب البوسنة وبلاد الــيونان والــبلغار والأرمن . [1] كما أورد أن أعمار الأولاد كانت متفاوتة وتتراوح ما بين تسع أعوام إلى ثمانية عشر عام . [2]

واســتفاض في الحديث عن مقاومة السكان لهذه الضريبة من تقديــم رشوة لجامعي الأولاد ، خاصة من الآباء الأغنياء ، إضافة إلـــى لجــوء الأسر بأكملها للهرب أو هرب الأولاد فقط ، أو لجوء الأهالـــي إلى الهجوم المسلح على جامعي الأولاد ، حيث أورد أنه صــدر فرمانيين في عام ١٦٠١م بهما أوامر صريحة مفادها شنق أي أب أو أي شـــخص من الكافرين يرفض تسليم ابنهِ ، كما توجد عقوبات صارمة لمن يخفي أبناءه عن جامعي الدوشرمه جاءت في فرمان صدر عام ١٦٢٢م . كما أشار الأرناوؤط إلى عدة فرمانات

---

[1] محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص٣٦-٣٩ .

[2] مرجع السابق ، ص٤٠ .

بهـــا أوامر صريحة بالتأكد من عدم هروب الأولاد من القافلة أثناء السـير إلـى إسـتانبول أو بعد الوصول إليها ، أو حتى بعد تعيين الشبان في إحدى القلاع . (١)

كـان هـذا عرض لبعض أهم آراء المستشرقين حول نشأة الإنكشـارية، ويوضح العرض السابق مدى الحقد الذي يكنهُ هؤلاء للإسلام والعثمانيين بالتالي ، وقد سار على نهجهم للأسف كثير من المؤرخيـن المسـلمين العرب ، واقتنعوا بآرائهم وسلموا بها دون مناقشة أو تمحيص للمعلومة لمعرفة مصدر المعلومات .

لقد أكد كثير من المؤرخين (*) العرب هذه الفرية في كتاباتهم والتـي سـماها عبد العزيز نوار ضريبة الدم . (٢) وأضاف أحمد شـلبي أن نظام البدل كان معروفاً ، وهو عبارة عن دفع مقدار من المال لإعفاء بعض الغلمان من الضريبة . (٣)

أما عبد الوهاب بكر فقد تفرد بوصف خاص عن الإنكشارية حيـث أطلق عليهم جهاز تفريخ القوى البشرية التي تزود الجـيش بالرجال منـذ عهد أورخان . (٤)

---

(١) محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص ٤٩-٥٧ .

(*) ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص٣١ ، محمد كمال الدسوقي : مرجع سابق ، ص١٧ . أحمد شلبي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص٨٤٩ ، ٨٥٠ . أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص٤٤. حسـن الضيقه : الدولة العثمانية ، الطبعة الأولى ، دار المنتخب ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٧م ، ص٩٢ . عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق،ص٣٨،٣٧.عبد العزيز الشناوي،مرجع سابق،ج١ ، ص١٢٠ .

(٢) عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص٢٣ .

(٣) أحمد شلبي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص٨٥٠ .

(٤) عبد الوهاب بكر : مرجع سابق ، ص٥٧ .

أمـــا عبد السلام عبد العزيز فهمي فقد أشار إلى قضية جديدة وهي أن اختيارهم لم يتم على حسب جنسيات الغلمان ، وإنما حسب وجودهم وقوة أجسامهم وبراعة عقولهم . [١]

أمـــا إسماعيل ياغي فقد جزم بفرض الدولة العثمانية ضريبة الغلمـــان، لكـــنه عاد فتحدث عن البلاد المفتوحة ، إذ قال أنه ربما تعرضـــت البلاد للخراب من جراء الحروب ، مما أدى إلى هلاك كثـــير من الأسر جوعاً . وهذا يعني أن الدولة كانت تتبنى الأطفال اليـــتامى فـــي كثير من الأحيان ، ولولا تبني الدولة لهم لتعرضوا للهـــلاك ، ثـــم أكد أن الدولة العثمانية ، تولت المسيحيين بالحماية وإعفـــائهم من الخدمة العسكرية ، وكان على المسيحيين أن يدفعوا في المقابل ضريبة الرأس . [٢]

أما أحمد عبد الرحيم مصطفى فقد جزم أن العثمانيين اختاروا أذكى أبناء المسيحيين وأخذوهم . [٣]

أما عبد العزيز الشناوي فقد جزم بصحة الفرية ، وأنها كانت تجمع كل سنة لكثرة الحروب والتكتلات الصليبية التي تواجه الدولة العثمانية.[٤]

لكن الحصري زعم أن دار الروم " أو الروم إيلي " كانت دار حـــرب مـــن الوجهـــة الشرعية فيسوغ فيها الإسترقاق كما يزعم

---

[١] عـــبد الســـلام عبد العزيز فهمي : السلطان محمد الفاتح ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار الـــقلم ، ١٣٩٥هـــ ، ١٩٧٥م ، ص٢٨، ٢٩ .

[٢] إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص٢٥٤ .

[٣] أحمد عبد الرحيم مصطفى : مرجع سابق ، ص٢ .

[٤] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٧٧ ، ٤٧٨ .

الحصـــري . ولذلك فقد أبتكر آل عثمان في عهد السلطان أورخان طـــريقة تضمن لهم تكوين جيش دائم يحسن الحرب والجهاد فأخذوا يقومـــون مـــن وقـــت لآخر بغارات إلى ما وراء حدودهم في بلاد النصـــرانية بقصد استرقاق الأطفال ولقد عرف هذا الجيش فيما بعد بالإنكشارية فكان محور قوتهم واستطاعوا به فتح البلاد في أوروبا التـــي لم تكن دخلت في حوزة الإسلام من قبل مما أدى إلى زيادة عدد الرقيق مع كثرة الفتوحات والتوسع في أوروبا . (١)

ذكـــر عـــبد الكـــريم غرابيه في الرواية التالية أن السلطان العثماني(شعر أنه بحاجة إلى " كلاب " لتحرس قطعانه أو رعيته ، وتغير على قطعان غيره ، فلم يجد أمامه من وسيلة إلا أن "يصادر الإنسان " ويدجنه، ويدربه ، كما يفعل مع الحيوان ، ودون أن يدع العاطفـــة تفســـد عليه عمله وخططه) . ثم يكرر في موضع آخر (وأخـــيراً ابـــتدع أحدهم فكرة مصادرة أولاد النصارى وتدجينهم ، وتأسيس جيش محترف منهم لا يدين بالولاء إلا للسلطان). (٢)

وقـــد جـــاءت هذه الفرية أيضاً في بعض المصادر (*) التي تناولـــت التاريخ العثماني والموثوق فيها ، إذ لم يقتصر الأمر على كتب المؤرخين المحدثين .

ومن خلال استعراض أقوال المستشرقين الأجانب والمؤرخين العرب ، نجد أنهم انقسموا إلى قسمين :

---

(١) ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص١٦-١٨ .

(٢) نقلا عن زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص١٣٨-١٣٩ .

(*) محمد كرد : خطط الشام ، أحمد محمد الحموي : فضائل سلاطين بني عثمان ، ص٥٨ .إسماعيل سرهنك: تاريخ الدولة العثمانية د. ط ، لبنان : دار الفكر العربي ، ١٤٠٨هـ ،١٩٩٨م ، ص١٥ .

القسم الأول :

المستشـــرقون والذيـــن تـــناولوا التاريخ الإسلامي بكثير من الحقد وتشـــويه الحقـــائق ، وقـــد اعتدنا علىهذا الأسلوب منهم ، خاصة الموضـــوعات التـــي تخـــتص بالفتوحات الإسلامية والانتصارات العظيمة التي حققها المسلمون في سبيل نشر الإسلام . وقد ساءتهم تلـــك الانتصارات ، فأخذوا يبثون سمومهم فيها ، بهدف القدح في إنجـــازات المســـلمين عامة ، والعثمانيين خاصة ، حيث بحثوا عن ثغـــرة يدخلون منها إلى أهدافهم فوجدوا أن الطعن في طريقة إعداد الجـــيش العثماني هو الطريق الأمثل ، خاصة وأن فتوحات الدولة العثمانـــية أعتمدت على الجيش وبالأخص فرقة الإنكشارية ، التي كـــان لها الفضل بعد الله سبحانه في الانتصارات التي حققتها الدولة العثمانـــية ، وبالتالي وجدوا أن هذه الفرقة مناسبة لتحقيق أهدافهم ، فصـــوروا طريقة جمع الأطفال بمنتهى القسوة والبشاعة وكأن ليس للمسلمين قلوب .

ومـــن ناحـــية أخرى أوضحوا أن أبناء الإنكشارية كانوا من أفضـــل الأســـر المســـيحية وأعرقها ، وبالتالي فهم بذلك يرجعون الانتصارات التي حققتها الإنكشارية والشجاعة والقوة التي تمتع بها هؤلاء إلى أبناء جلدتهم، محاولين بذلك التهوين من شأن العثمانيين كقوة إسلامية والحط من قيمة أعمالهم .

القسم الثاني :

هم فئة من المؤرخين العرب الذين رددوا كلام المستشرقين دون أي تمحيص للحقائق أو محاولة كشف المزيف منها ، وقد أوقعوا أنفسهم

في الخطأ دون أن يشعروا .

ومن خلال ما تقدم من أقوال المؤرخين والمحدثين والباحثين حول قيام فرقة الإنكشارية نخلص إلى عدة أمور رئيسية :

أولاً :

هناك تباين واضح حول سبب تكوين الإنكشارية ، فالبعض يرجح أن الرغبة في الجهاد ونشر الإسلام هي السبب الرئيسي لتكوين هذه الفرقة ، والبعض الآخر يرجح أن إحياء العرف الإسلامي بأخذ خمس الأسرى والغنائم هو السبب ، أو قلة خبرة الأتراك في حروب الحصون والقلاع ، أو جلب الرقيق للخدمة في القصور .

ثانياً :

اختلاف أقوال المؤرخين حول كيفية تربية هؤلاء الأطفال بين القسوة والشدة في تعليم اللغة التركية والتدريبات العسكرية ، إضافة إلى إكراههم على اعتناق الدين الإسلامي ، والتسامح والتزام العثمانيين بالمبادئ الإنسانية في تربيتهم .

ثالثاً :

اختلاف المستشرقين حول صاحب فكرة تكوين فرقة الإنكشارية ، فمنهم من رجح كفة أورخان ، وأما البعض الآخر فقد رجح أن علاء الدين هو صاحب الفكرة ، وآخرين ألصقوها بالعالم قرة رستم ، وهناك من أكد أنها فكرة قرة خليل جندرلي .

رابعاً :

تناقضت أقوال المستشرقين بشكل واضح حول موقف الأسر المسـيحية ، فقد تأرجحت الأقوال ما بين الترحيب بالضريبة ، بل وتقديم الأبناء عن طيب خاطر ، وبين التذمر والإعراض ، ودموع الأمهات وآهات الأطفال .

ومن الملاحظ أن المستشرقين لم يتركوا مجالاً إلا وتمادوا في تشـويه الإنكشـارية والافتراء عليها ، وقد استطاعوا أن يصوروا الأمـر بمنـتهى القسوة والبشاعة ، معتمدين على ركيزتين الأولى العواطـف الإنسانية ، فصوروا الآلام النفسية التي تتحملها الأم عند انتزاع طفلها من أحضانها ، والدموع التي تذرفها حزناً على فراق الابن الغض ، وبذلك صورت ضريبة الغلمان على أنها أبشع أنواع الظلم والقسوة واختفاء الرحمة ورمزاً للتسلط العثماني ، ومن سوء حظ الأهالي المسيحيين أن دولتهم تهزم على يد الأتراك العثمانيين ، ويدفـع الشعب ثمن هذه الهزيمة من أبناءهُ . كما يؤكد المستشرقون أن العثمانيين سلبوا أقوى العناصر من الشعوب المسيحية التي دانت لحكمهـم . أما الركيزة الثانية فهي إكراه الغلمان على الإرتداد عن المسيحية واعتناق الإسلام . [1]

وهـذا الأمـر لا يعنـي أنـه لم يتصدر مؤرخون وباحثون مسـلمون للدفـاع عن ضريبة الغلمان من حيث المبدأ ، وقد استند هؤلاء إلى أن الفتوحات الإسلامية العثمانية تركت كثيراً من الدمار ممـا أدى إلـى هـلاك الكثير من العائلات المسيحية جوعاً ، أو

---

[1] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٨٥ ، ٤٨٦ .

هــروبهم من بلادهم ، وترك عدد كبير من الأطفال المشردين دون آباء ، فجمعتهم الدولة العثمانية ، ووفرت لهم حياة كريمة ، وتعليم وجعلــتهم نــواة لجيشــها ، ولولا هذا العمل لتعرضوا للهلاك أو الانحراف .[1]

مــن الملاحظ أن الغالبية العظمى من المؤرخين والباحثين قد مالوا إلى القول بفرض ضريبة الغلمان وانتزاع الأطفال من ذويهم وإكراههم على اعتناق الإسلام ، ولكن في المقابل هناك أدلة وقرائن تدحــض هــذه الآراء، وتوضح أنها مجرد محض افتراء ومحاولة لتشويه صورة الدولة العثمانية.

وبعــض المستشرقين زادوا على الفرية الأساسية ، اجتهادات خاصـــة بهــم ، والبعض الآخر ردّد الكلام دون وعي ، ولكن في مضمونها جاءت بنتيجة واحدة .

مــنذ البداية وموقف النصارى واليهود معروف من الإسلام فمنذ بعثة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء يحاولوا الكيد للإســلام والمســلمين ، ولم يرضوا يوماً عن المسلمين ، والتاريخ الإســلامي تعرض للتشويه والافتراء على مر العصور ، لكن أكثر دولــة إسلامية تعرض تاريخها للتشويه كانت الدولة العثمانية . وما إفــتراءهم وتشويههم هذا إلا حلقة جديدة في سلسلة كره النصارى واليهود للإسلام والمسلمين .

ولذلــك من الأهمية بمكان الرد أولاً على هذه الفرية بشكل عام ثم الرد بعد ذلك على إضافات المستشرقين والمؤرخين العرب .

---

[1] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٨٦ .

إذا أردنـــا الرد على هذه الفرية ، فإننا نجد أن هناك بعض الأدلة والبراهين التي تثبت عدم صدق دعوى المستشرقين . إن أول مـــا يــرد فـــي هـــذه الفـــرية هو انتزاع الأطفال عنوة من ذويهم كضـــريـــبة ، لقد نسي هؤلاء المستشرقون مدى ترسخ الإسلام في نفوس العثمانيين ، فقد استقروا بعض الوقت في طبرستان وخراسان وجـــرجان ، وبذلـــك اقـــتربوا من الأراضي الإسلامية التي فتحها المسلمون بعد معركة نهاوند وسقوط الدولة الساسانية في بلاد فارس سنة ٢١هـــ /٦٤١م وهكذا بدأ اتصالهم بالعالم الإسلامي . وفي عهد عمـــر بن الخطاب – رضي الله عنه – تعاون الترك مع المسلمين لمحاربـــة الأرمن ، ولم يقع بينهم قتال أبداً ، وإنما سار الجميع إلى بـــلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام بها ، وبزوال الدولة الساسانية ، ونتـــيجة للفـــتوحات الإسلامية ، أصبح الباب مفتوحاً أمام تحركات شـــعوب تلك البلدان ، ومنهم الترك للاتصال بالشعوب الإسلامية، وإعتـــناقهم الإســـلام بل والجهاد في سبيل الله ، وإزداد دخولهم في الإســـلام فـــي عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فأصبحوا من المدافعين عنه والمشاركين في الجهاد لنشر الإسلام . [1]

واعتـــناقهم للإســـلام جـــاء على المذهب السني ، مما هذب أخلاقهـــم وأوجـــد فيهم حب الجهاد في سبيل الله . وبذلك صارت الدولـــة العثمانية دولة إسلامية سنية أخذ مؤسسوها وسلاطنيها على عـــاتقهم مهمـــة حمايـــة الإسلام والجهاد في سبيل الله طبقاً لأحكام الشريعة الإسلامية .

---

[1] أميره مداح : مرجع سابق ، ص ٨ ، ٩ .

وعلى هذا فإن المشروع في الإسلام أن أهل الذمة إنما يؤخذ منهم الجزية فقط ، وذلك مقابل إقامتهم في ديار الإسلام كل عام لقوله تعالى (**حتى يعطوا الجزية**) [*] ومن السنة " أن المغيرة بن شعبه قال لجند كسرى يوم نهاوند أمرنا نبينا رسول ربنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تؤدوا الجزية" وإن دفعوا فإنه يحرم قتالهم والاعتداء عليهم وهي تؤخذ من أموال القادرين فقط فلا تجب مثلاً على المرأة والصبي والفقير[1] وإذا كان الأمر كذلك فمن باب أولى ألا يؤخذ الصبي نفسه من أهل الذمة. فلا يغلب أهل الذمة على صبيانهم ولا نسائهم سواء كانوا أغنياء أو فقراء بل إن الفقراء يُعفون من أداء المقرر من الجزية تسامحاً معهم ومراعاة لوضعهم وحالتهم الاجتماعية فكيف يسوغ أن يقال إن العثمانيين كانوا يأخذون الصبيان من أهل الذمة . وبالتالي هذا يثبت عدم صدق دعوى من قال أن العثمانيين كانوا يأخذون أطفال النصارى عوضاً عن الجزية ، إذ أنه من غير المعقول أن يخالف العثمانيون الإسلام في شيء كالجزية وهم من أعتنق الإسلام منذ فترة مبكرة جداً قبل ظهورهم على مسرح السياسة .

وعلى هذا لم تنتزع الدولة العثمانية أطفالاً من ذويهم بل أعتمدت على ما تقدمه العائلات المسيحية طواعية من أبنائها للإنخراط في الديوشرمة ، كما أنه لا توجد وثيقة واحدة تشير أو تؤيد هذا القول أو تدل على أن العثمانيين مارسوا أي وسيلة للضغط

---

[*] سورة التوبة آية ٢٩ .

[1] الموفق إبن قدامه : المغني ، ج١ ، د. ط ، بيروت : دار الكتاب العربي ، د. ت ، ص٥٦٧.

علـــى الأســـر المسيحية ، بل أن هذه الأسر كانت تتنافس في تقديم أبـــنائها لإعجابهـــا بالإنكشـــارية ، ونظـــروا له على أنه نوع آخر للفروســـية ، فاق فروسية أوروبا في العصور الوسطى، إضافة إلى أن نظـــام أهـــل الذمة الذي طبقته الدولة العثمانية كجزء من نظمها الإسلامية ، بهرت به أوروبا في وقت انعدمت عندهم الحرية الدينية أو كـــادت بـــل إن إقبال الأسر المسيحية على تقديم عدد كبير من أبنائها للإنكشارية ، دفع بالسلطان أورخان إلى إصدار خط شريف بـــألا يقبل منهم إلا من الإبن السادس إلى الابن العاشر في الأسرة الواحدة . [١]

كما أن هناك نقطة مهمة وهي أن نظام الفروسية في أوروبا خـــلال العصور الوسطى ، قد عود إحساس الأم والأب على فراق أبـــنائهم ، كمـــا أن كـــثرة الحروب وما تخلفه وراءها من دمار ، إضافة إلى انتشار الأمراض القاتلة وانتشار عادة بيع الأطفال نتيجة للجوع والفقر ساعد على دعم هذا الإحساس في نفوس الأهالي .

وفـــي هـــذا الصدد نورد ملاحظة مهمة ، وهي إذا كان حقاً يؤخـــذ الأولاد ما بين العاشرة ، والعشرين من أهلهم لإدخالهم في الإنكشـــارية ، فهل من المعقول أن ينسى هؤلاء أهلهم وهم في هذه الأعمـــار ، ولنفترض أنهم أكرهوا على اعتـــناق الإسلام ، ودخلوا فيه ، فهل يعقل أن ينسى الشاب الصغير ذو الخمسة عشر عاماً أمه وأبـــاه وقريـــته ورفاقه ! إذ لا نجد تفسير لهذا ، كما أنه صار من

---

[١] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص٢٠ . خلف الوذياني : مرجع سابق ، ص٩٥ ، ٩٦ . محمد عبد اللطيف البحراوي : من خصائص تاريخ العثمانيين ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ .

هؤلاء الأطفال صدور عظام ووزراء وولاة ، وتسلموا رواتب عالية فلـم تذكـر لـنا كتب التاريخ شيئاً عن تقديم هؤلاء خدمات مميزة لقراهم أو أسرهم ، ألا يتذكر هؤلاء آبائهم وأمهاتهم بعد أن أنعم الله سـبحانه عليهم بكثيراً من النعم . إن السكوت عن هذه الأمور يدل أصلاً على أن عملية الانتزاع هذه لم تكن تجري أصلاً ، أو حتى لو صارت لم تكن بتلك القسوة ، كما أنه لم يرد أبداً أنه قامت ثورة أو تمـرداً أو قـدم طلباً للدولة العثمانية من القرى المسيحية ، يتضمن احـتجاج على انتزاع الأطفال ويطالب بإلغائها . أما إذا كان عمر هؤلاء الأطفال فوق أثنى عشر عاماً فهم يستطيعوا المقاومة بسهولة بل والهرب فالشاب في سن الخامسة عشر أو السادسة عشر يكون رجـلاً قـادراً على الزواج وإنجاب الأبناء ولا يستطيع أي شخص إرغامه على فعل شيء ضد رغبته .

كمـا أنه ليس هناك سبب عقلي يجعل دولة قوية تتحمل عناء انـتزاع أطفال مسيحيين وتربيتهم والصرف عليهم واستغراق فترة مـن الزمان حتى يشب هؤلاء الأطفال ويصبحوا قادرين على حمل السـلاح ، بل والعمل أثناء ذلك على إكراههم على اعتناق الإسلام وتغيـير معـتقداتهم ، فما الذي يجعل الدولة العثمانية تصرف هذا الوقـت والجهد والمال ، في الوقت الذي يوجد فيه أطفال المسلمين الذيـن تربوا أصلاً على تعاليم الدين الإسلامي ، والجهاد في سبيل الله وإعلاء راية الإسلام .

لقـد خاض المستشرقون بعد ذلك في أمراً لا دراية لهم به ، وهـو مسألة إكراه الأطفال على اعتناق الإسلام ، إن حكم الإسلام

فـــي هـــذه المســـألة واضح وصريح لا غبار عليه لقوله تعالى (**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي**) [*] وهذه قاعدة شرعية ثابــتة ، وهــي مــن مبادئ الإسلام وبالتالي من مبادئ العثمانيين المســلمين ، إذ لا يجــوز إجــبار ولا إكراه أحد على الدخول في الإســلام ، الــذي يــرفض هذا الأمر رفضاً تاماً ، فالآية الكريمة واضـــحة إذ وضـــح الحق من الباطل والهدى من الضلال في أمر الإكراه .[1]

فإذا كان الإسلام يمنع الإكراه في الدين، فكيف يسمح بانتزاع الأطفـــال مـــن أحضان أسرهم لإرغامهم على الإسلام، إن الإسلام يهـــتم بتنشئة الطفل في كنف أسرته ، فليس هناك ذكر في الإسلام لهذه الضريبة العجيبة . [2]

كمـــا أنـــه لا يمكن أن يتصور إنسان كيفية إكراه آخر على اعتقاد شيء في قلبه الذي يمتلكه بين ضلوعه فلربما تظاهر بالإيمان مـــثلاً ولكن ظل في قرارة نفسه على معتقداته الأصلية وبذلك ينجو مـــن الأذى والضـــرر، وفـــي أول معركة يخوض غمارها ينضم لصـــفوف الأعداء ويحارب ضد العثمانيين لأنه يحقد عليهم ويكره ديـــنهم ، لأنه غصب على إعتناقهُ ، ولكن لم يحدث ذلك قط ، وإن حدث لكانت أقلام المستشرقين الحاقدة أول ما كتبت هذه الأحداث . بل العكس تماماً كانت الإنكشارية تحلم بالشهادة دائماً ، فالإنشكاري

---

[*] سورة البقرة ، آية ٢٥٦ .

[1] محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، الطبعة الثانية ، لبنان : دار القرآن الكريم، ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م ، ج١ ، ١٦٣ .

[2] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص١٢٨ .

يـــرى جنات ربه وهو يتلوى محترقاً تحت سيل من الزيت المغلي الذي تصبه قوات الأعداء المدافعة عن الأسوار . وإذا انفتحت ثغرة فـــي تلـــك الأسوار كان التكبير يتردد في المعسكر العثماني وكأنه زلـــزال الحشـــر ، وبروح فدائية حقه كانت القوات العثمانية تريد كسب الدنيا والآخرة معاً .[1]

إضـــافة إلى ما سبق فقد كانت الإنكشارية كتلة واحدة تشعر بواجبها الإسلامي وبالمهمة التي أعدوا من أجلها ألا وهي الجهاد ، السيف سلاحهم ، ودعوة الحق شعارهم ، يذهبون إلى ساحات القتال وهـــم يقولـــون فـــي قرارة أنفسهم " إما غازي ، وإما شهيد " وقبل خوض المعركة كانوا يستعدون للشهادة ، يتطهرون ويصلون لربهم ويطـــيلون السجود في صلاتهم خشوعاً لبارئهم . فيدخلون المعركة إمـــا أن ينتصـــروا على الأعداء ، أو يستشهدوا في القتال ، [2] لقد أعترف ملوك النصارى بشجاعتهم ، لم يخافوا الموت لقوله تـــعالى (**ولا تحســبن الذيــن قــتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون * فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون**) [*] ويتضح هذا الأمر في أثناء حرب الدولة العثمانية ضد الفرس ، الذين كانوا يسألون هل بين الجنود من يكثر السجود ، وهم بذلك يقصدون الإنكشارية . [3]

---

[1] عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص ١٣ .

[2] خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص ٩٦ . ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص١٧ .

[*] سورة آل عمران آية ١٦٩ ، ١٧٠ .

[3] أحمد جودت : تحقيق عبد اللطيف الحميد ، ص١٩٥ .

كما أن الصبي إذا لم يكن له والدان أو كانا غير معلومين فإن التبعـــية في الدين تنتقل إلى تبعة الدار ، وبما أن كثيراً من الصبيان لم يكن يُعلم أباؤهم فإن التبعية تكون للدولة العثمانية المسلمة صاحبة الدار. وكذلك إن انتقل الصبي من دار أخرى إلى دار الإسلام بسبب الحـــروب كما كان سائداً في ذلك الزمان بين الأمم فإن الصبي يتبع الإسلام ، فهو مسلم بالتبعية التي انتقلت إلى دار الإسلام . [١] ومن هذا يتضح أن كلمة إكراه لا تنطبق مطلقاً على هؤلاء الغلمان على ترك معتقدهم بينما هم أنفسهم يتطلعون إلى تحقيق مستقبل باهر من خـــلال الإخـــلاص للســـلطان ، ولا يتم ذلك الأمر إلا إذا اعتنقوا معـــتقدات سلطانهم دون إكراه ومن تلقاء أنفسهم . كما أن السلطان أورخـــان الـــذي تناولته الفرية كان رجل مسلم متدين ، بل أن أخاه علاء الدين الذي استحسن الفكرة كان رجلاً عالماً في الشريعة ، فلا يعقل أن يشير على أخيه بأمر تأباه الشريعة .[٢]

أمـــا أن الإســـلام لا يبيح لغير المسلمين حمل السلاح ، فتلك كلمـــة حق أريد بها باطل ، لقد فرض الإسلام القتال على المسلمين باعتبارهم مسلمين يدينون بالولاء للإسلام ، وليس من شأن الإسلام أن يفـــرض الجهاد على أناس لا يدينون به بل فرض الإسلام على المســـلمين حمايـــة لهم وللدفاع عن أرواح وأموال غير المسلمين

---

[١] الكاساني الحنفي : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ، ج٧ ، الطبعة الثانية ، بيروت : دار الكتاب العربي، ١٤٠٢هـــ ، ص ١٠٤ .

[٢] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ١٤٤ ، ١٥٣ .

الذين يعيشون في كنف المسلمين ويؤدون لهم الجزية ، دون تحميل هؤلاء عناء الجهاد . [١]

وقـــد أورد كامل باشا رواية تذكر أن السلطان أورخان أختار عـــدد مـــن شباب الترك والبيزنطيين وألحقهم بالجيش وركز على تربيـــتهم وفـــق التعالـــيم الإســـلامية . ثم لم يلبث أن تزايد عدد المجاهدين الذين انضموا للجيش الجديد . [٢]

وكان الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام الدافع وراء انطلاق عثمان ومن بعده إبنه أورخان في جميع المعارك ضد البيزنطيين ، وبالتالي هو الدافع في إنشاء الجيش الجديد .

وقد أكد على هذا القول المؤرخ التركي أحمد رفيق في كتابه "بيوك تاريخ عمومي " أن أورخان وعلاء الدين كانا متفقين على أن الهـــدف الرئيسي لتشكيل الجيش الجديد ، هو مواصلة الجهاد ضد البيزنطييـــن ونشـــر الإســـلام في أراضيهم ، والاستفادة من هؤلاء البيزنطييـــن الذين أسلموا في الجهاد في سبيل الله ونشر الإسلام . ولعل وجود عدد من المسلمين البيزنطيين ، أمراء وعساكر في هذا الجـــيش هـــو الـــذي أوجد للحاقدين ثغرة يدخلون من خلالها ينفثوا سمومهم.[٣]

وهكـــذا يتضح لنا أن العثمانيين لم يكرهوا أحداً على اعتناق الإســـلام، بل كانت الحرية الدينية مبدأ ثابت في الدولة العثمانية ،

---

(١) زياد أبو غنيمة : مرجع سابق ، ص١٥٢ .

(٢) نقلاً عن زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

(٣) نقلاً عن زياد أبو غنيمة : مرجع سابق ، ص١٥٤ ، ١٥٥ .

وكانـــت أقـــوال المستشـــرقين محاولة يائسة لتشويه تاريخ الدولة العثمانية.

لقـــد أسلم الإنكشارية بمحض إرادتهم وحسن إسلامهم وكانوا أثناء القتال مع الأعداء يتوقون إلى الشهادة ، وذلك لأنهم اقتنعوا منذ صـــغرهم بمبادئ الجهاد الإسلامي ، ولم يكرهوا عليه ، لقد كانوا يتلقون العدو بصدور وقوة وعزيمة وثقة بالنصر .[1]

أمـــا عـــن إحياء العرف القديم بأن السلطان كان له الحق في انـــتزاع خُمـــس الغنائم للإنفاق منها على الجيش ، فهذا كلام غير صحيح من أساسهُ ، وذلك أن أخذ خمس الغنائم وليس انتزاعها حق مشـــروع للحـــاكم في الإسلام ، وهو ليس عرف قديم والدليل قوله تعـــالى (**واعلمـــوا أنما غنمتم من شيء فإن لله خُمسهُ وللرسول ولذي القـــربى واليـــتمى والمســاكين وإبن السبيل**) [*] إن الآية صريحة وواضحة ، وقال المفسرون أن الغنيمة تقسم خمسة أقسام ، الخمس الأول يقســـم خمســـة أســـهم الأول للرســـول ، والسهم الثاني لذي القـــــربى ، والثالـــث لليتامى ، والسهم ا لرابع للمساكين ، والسهم الخامس لإبن السبيل ، وباقي الغنيمة توزع على الغانمين ، [2] وهذا يعنـــي أن نصـــيب الســـلطان قليلاً جداً وليس بالضرورة أن يكون الخمـــس أطفـــال ، فقد يكون الأموال أو المتـــاع أو حتى بغال أو أســـلحة ، مما يؤيد أن هذا الأمر فرية قد ألصقت بأورخان ومراد

---

[1] أحمد جودت : تحقيق عبداللطيف الحميد ، ص١٧١ ، ١٧٢ .

[*] سورة الأنفال آية : ٤١ .

[2] محمد علي الصابوني : مصدر سابق ، ج١ ، ص٥٠٦ .

الأول لتشـــويه صورتهما وتصويرهما على أنهما حاكمين ظالمين .

وفـــي هـــذا الجزء يظهر واضحاً تناقض أقوال المستشرقين وعدم اعتمادهم على مصدر موثق ، وإنما أعتمدوا على أهوائهم ونزعاتهم الشخصـــية وذلك لأنهم استرسلوا في الافتراء حيث قالوا أن عملية جمع الأطفال كانت تتم بصفة دورية عن طريق إرسال الوكلاء إلى كـــل قـــرية مســـيحية للإطلاع على قائمة بأسماء الأطفال الذين تم تعميدهم في الكنيسة ، ثم يختار الوكلاء خُمس هؤلاء الأطفال ، وقد قالوا في البداية أن الأطفال هم خُمس الغنائم ، وهذا يعني بعد انتهاء المعركة يتم جمع الغنائم في وقت الحرب فقط ، فما الذي جعلها تتم بهذا الشكل المنظم وتتكرر كل فترة معينة ، بل تحولت إلى ضريبة غلمـــان تجـــبى كل خمسة أو ستة أعوام أو أقل، وبهذا المفهوم لا يمكـــن اعتـــبار أنها خُمس الغنائم مما يدل بوضوح على أن الأمر مجرد تركيب جمل دون ترابط . ومحض افتراء .

وإذا نظـــرنا فـــي ظـــروف الفتح الإسلامي العثماني للمدن البيزنطـــية ، نجد أن عدداً كبيراً من الأطفال فقدوا أبائهم وأمهاتهم وأســـرهم لموتهم في المعارك التي صاحبت الفتح ، أو أثناء هروب الأسر من مدينة إلى أخرى، وهذا أمر يصاحب كل ضم ، وبالتالي بقي أولئك الأطفال مشردين في الطرقات يتامى بلا مأوى أو مكان يسترهم ، فسعت الدولة العثمانية لاحتضان هؤلاء الأطفال ، وتأمين مستقبل كريم لهم ، ولا يتوفر هذا المستقبل إلا في ظل الإسلام . [١]

---

[١] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩ .

ففكرة نظام الإنكشارية في أساسها ، عبارة عن مؤسسة تقوم بتربــية الأطفــال ، وتدريبهم عسكرياً وتعليمهم الدين الإسلامي ، وليس نظام قهري واستبدادي كما صوره المستشرقون وأداة للتحول القهري للإسلام.

أمــا قولهــم بــأن المناهج التي كان يدرسها هؤلاء الغلمان وضــعت خصيصاً لمحو كل أثر للنصرانية ، فلا يعقل أن تستطيع أي مــناهج كانــت محو أثر ديانة من طفل عمره عشر سنوات أو أكــثر، إن الاتجــاه إلــى الله فطرة في الإنسان بصرف النظر عن ديانــته . والدليل على ذلك أن الإنكشاريين حسن إسلامهم وجاهدوا في سبيل الله بكل ما أوتوا من قوة، لأنهم اقتنعوا بالإسلام فلم يتلقنوه كمــادة مفروضة عليهم ، لقد وضحت الهوية الإسلامية على جندي الإنكشــارية ، لدرجــة أن الأتــراك أطلقــوا علــيه اسم الجندي المحمدي،وذلك تيمناً باسم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.[١]

أما عن نسب فكرة إنشاء الإنكشارية إلى هابيل الأسود وزير أورخان ، فإن هذا الاسم لم يرد ذكره في أي أحداث سياسية مهمة ، ســوى فــي هــذه الفرية المغرضة ، وهذا يدل على اختراع هذه الشخصية ، علماً بأن وزير أورخان كان أخوه علاء الدين . إن كل مــا فــي الأمــر هو أن أورخان قرأ كتاباً ألفه نظام الملك الوزير الســلجوقي "ســفرنامه " ويتــناول هذا الكتاب فن الحكم وخلاصة الــتجارب والأنظمة والدواوين . وقد ورد تفصيل للطريقة المثالية لإيجاد قوة محاربة ، حيث أشار إلى أختيار عدد من الأولاد في سن

---

[١] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص٢٥ .

مـــبكرة ، تتولاهم الدولة بالعناية والتعليم على فنون الحرب ، ومن هذا الكتاب جاء تأثر أورخان ، وأخذ يبحث عن مصادر جديدة للقوة المحاربـــة التي أراد إنشاءها ، فرأى أن يستفيد من أسرى الحروب الدائـــرة علـــى حدود العالم المسيحي .[1] لا أن ينتزع الأطفال من أحضان ذويهم .

وزاد المستشـــرقون فـــي افـــترائهم حيث أضافوا أن جميع الأطفـــال ليســـوا مـــن ضريبة الغلمان ، بل هناك عدد من الأولاد اشـــتروا بالمـــال من سوق النخاسة ، ونسى هؤلاء إن جيش الدولة العثمانـــية لـــم يكـــن جيش عبيد أو مرتزقة مثل الجيوش الرومانية وغيرها ، لقد كانت فكرة أورخان الأساسية هي رغبته في أن يكون جيشه من المسلمين وليس من المرتزقة، وعلى أي حال فإن أسواق النخاسة عموماً نادراً ما تحتوي على أطفال في سن العاشرة ، لأن هـــؤلاء لا يفيدون في العمل أو حتى الحرب، لقد كانت أهم مصادر الإنكشـــارية الأطفـــال المشردين في الشوارع، ثم ما يقدمه الأسر المســـيحية من أبناء حباً في تعليمهم الإسلام ، وطمعاً في المستقبل اللامـــع الذي ينتظرهم ، أما كونهم من أسرى الحرب فهو مصدر ضـــعيف حيـــث أنه في الغالب كان يتم تبادل الأسرى بموجب عقد هدنـــة بيـــن الطرفيـــن ، وإذا عدنا قليلاً إلى عهد عثمان ومن بعده أورخـــان ، فإننا سنجد أن المدن البيزنطية التي فتحها الله عليهما ، كانت تفتح سلمياً دون قتال ، إما سبب تقبل أهلها للإسلام أو بسبب فرار حاكمها وحاميتها ، فيدخلها العثمانيون المسلمون ويقيموا العدل بين أهلها، فيجد فيهم الناس مخلصاً لهم من ظلم البيزنطيين ، فيُسلم

---

[1] أميره مداح : مرجع سابق ، ص ٣٠ .

أكــثرهم والباقــي يدفع الجزية ، وبعض المدن ترفض الاستسلام وتخــتار الحــرب ، فيفتحها الله على المسلمين بعد قتال . وأياً كان الأمــر فقد ترك العثمانيون الحرية الدينية لأهالي البلاد المفتوحة ، كمــا أنه كان من سياسة عثمان وأورخان عدم أخذ أسرى حرب ، وإذا وجد هذا الأمر فإن عدد الأسرى يكون قليلاً، ويتعهدهم العلماء بالتربــية الإسلامية ، أو يتم عقد مصالحة بين الطرفين ، يتم على أثرها تبادل الأسرى . [1] كما حدث في عهد السلطان محمد الأول عــندما تمــرد عليه أمراء الأناضول ، وخاصة أمير أزمير ولكن الســلطان حــل الأزمــة وتــم تــبادل الأسرى بعد مصالحة بين الطرفيــن.[2] إضــافة إلى أن الفتوحات والجهاد في بلاد الروملي كانت متتابعة فكان يأتي الأسرى بأعداد وفيرة إلى العاصمة.[3]

إذا لــم يتم تبادل الأسرى ، فإن هؤلاء يبقوا في أنقره ، ومن هنا جاءت فكرة الاستفادة من الأطفال الأسرى في الجيش ، كما أن الأسرى يكون بينهم رجالاً ونساءً وشيوخ وأطفال ، مما يوحي بأن عــدد الأطفــال غالــباً ما يكون قليلاً أما عن مقولة أن جميع أبناء الجيش الجديد كانوا من أسرى البلاد الأوروبية المفتوحة ، فإن دليل بطلانهــا أن الأمير علاء الدين أخو السلطان أورخان الأكبر ، كان الصدر الأعظم ، وهو الذي أشار على أخيه بفكرة الجيش الجــديد – إلى جانب تأثر أورخان بكتاب نظام الملك السلجوقي – فقد توفى

---

[1] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

[2] كامل باشا : التاريخ السياسي للدولة العلية العثمانية منذ تأسيسها وحتى الفترة الأخيرة للسلطان عبد الحميد، د. ط ، إستانبول : مطبعة إحسان ، ١٣٢٧هـــ ، ج١، ص١٣ .

[3] أحمد زيني دحلان : الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية ، الطبعة الأولى ، بيروت : دار صادر ، ١٤١٧هـــ ، ج٢ ، ص١٢٠ .

عـــام ٧٣٥هـــــ / ١٣٣٥م ولم يكن السلطان أورخان فتح أي مدن بيزنطـــية داخـــل الحـــدود الأوروبية بعد ، إذ لم يتم فتح غاليبولي وجيمـــنك وغـــيرها مـــن المدن والقلاع إلا في عـــام ٧٥٧ هــــ / ١٣٥٦م . ومـــن هـــنا تسقط مقولة أن الجيش الجديد كان من أبناء أسرى البلاد الأوروبية المفتوحة ، لأنها لم تكن مفتوحة عند تشكيل الجيش الجديد . [1]

ومما يؤكد هذا الأمر أن تأسيس الجيش كان في عام ٧٣١هــ / ١٣٣٣م أي قـــبل فـــتح غاليبولي بفترة طويلة ، وهذا يهدم أقوال المستشـــرقين الذين ينسبوا لأورخان أنه انتزع أطفال النصارى من المدن الأوروبية ، أو أن الأسرى كانوا من أبناء الأسر الأوروبية .

إن جمـــيع المستشرقين تقريباً اتفقوا على جوهر هذه الفرية ، ولكـــن كل مستشرق أضاف قصة جديدة من خياله ، ومن الأفضل تفنيد آراء كل مستشرق بمفرده .

وقـــبل كـــل ذلـــك لابـــد أن نســـأل ، من أين استقى هؤلاء المستشـــرقين روايـــتهم ؟ فلـــم يذكروا مصدرهم أو حتى الوثائق المخطوطـــات التـــي اعـــتمدوا عليها ، كما لم يوضحوا في بعض الأحـــيان المكـــان والـــزمان وحـــتى اسم السلطان ، أليس هذا من مقتضـــيات البحث العلمي ، رواية كهذه تحمل تهمة خطيرة لشعب بأسره بل لأمة بل للإسلام الذي كان العثمانيون يمثلونه آنذاك ، أن يورد المؤرخون مصدرها لقد افتقدت هذه الفرية أول دليل بطلانها ،

[1] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص١٣٧ .

لأنهـا لـم توثـق علمـياً ، وافـتقدت للتوثيق التاريخي ، وأفتقد المستشرقون أول سمة للمؤرخ وهي الأمانة العلمية .

كـارل بـروكلمان كان بطل تشويه الإنكشارية ، بشكل كبير حيـث أرجع سبب انتشار جيش الإنكشارية إلى عدم تعود الأتراك علـى الخدمـة النظامية ، وكأنه يقول أن المسلمين عموماً قوم لا يحـبون الأنظمة التي تقيدهم وتضبطهم ، ثم أن الجيش غير المنظم هـنا الـذي تحـدث عنه قد حقق انتصارات بهرت الروم أنفسهم وزلزلت عروشهم ، إذاً فما الداعي لهؤلاء المتطوعة أن يتخلوا عن الاسـتمرار فـي القـتال ؟ وإذا كانت القضية هي التنظيم فلماذا لم تستطع جنود النصارى المنظمة صد هذه الجيوش غير المنتظمة بل والانتصار عليها ؟ ! ولماذا يتخلى هؤلاء المتطوعة عن الاستمرار في القتال وقد حققوا نجاحاً باهراً في فترة وجيزة ؟

وكـل مـا فـي الأمـر أن السلطان أورخان أثارت مخاوفه مطالبهم فقرر إنشاء جيش من المشاة ، ليسهل فتح القلاع والحصون فـي الوقـت نفسـه لـم يستغن عن الإقطاعيين ، فهم ليسوا جيش إقطاعـي بالمعـنى الـذي قصده بروكلمان ، وإنما نالوا الأراضي الزراعية مكافأة لهم عن انتصاراتهم التي حققوها ، وفي وقت السلم يعملوا بالأراضي الزراعية .

ومن معرض حديث بروكلمان جاء أن السلطان أورخان أراد أن يسـتعيض عـن فرقة الأتراك بفرقة من النصارى الذين كانوا يـألفون هذا النوع من الخدمة العسكرية [1]. وكان لسان حاله يقول

---

(1) كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص٤١٤ .

أن المسلمين عامة والعثمانيين خاصة ، لم يألفوا الأنظمة العسكرية ، وهذا مخالف تماماً للأحداث التاريخية ، فالجيش الذي كونه عثمان ثم أرطغرل قد زلزل عروش طغاة الروم . كما أنه لماذا يشك السلطان أورخان في كفاءة وشجاعة جنوده الذين كانوا يهرعون إلى ميادين القتال طلباً للنصر أو الشهادة ، ويستبدلهم بأبناء النصارى الذين ليس بينهم وبين الإسلام صلة، ولا يدركون معاني الجهاد ، ثم ينتظرهم أعوام حتى يتعلموا الإسلام ويقتنعوا بمبادئه ويستحوذ حب الجهاد على أفئدتهم مثل المحاربين الأوائل.

كما أنه لو فكر بروكلمان قليلاً وخلع عن عينيه غشاوة الحقد على الإسلام والمسلمين ، لأكتشف أنه لم يبرع أحداً في ذلك النوع من الخدمة العسكرية ، مثلما برع المسلمون العثمانيون ، وتاريخهم خير دليل ، وقد أكد كارل بنفسهِ ذلك في موضع آخر من كتابه حيث قال "الواقع أن الأتراك اشتهروا ، منذ خروجهم من البوادي ، بأنهم فرسان بارعون وجريئون إلى حد التهور "[1]

ويبدو تناقض أقوال بروكلمان بشكل أكثر ، عندما يقول أن الدولة تنتزع الأطفال من أحضان ذويهم ، لتضمهم إلى الجيش الجديد ، بينما يؤكد أن هؤلاء الغلمان ، كانوا يطمحون في أن يلتحقوا بجيش السلطان ليحققوا مستقبلاً باهراً لهم فكيف يجتمع الضدان في وقت واحد ؟ ومما يدل على عدم صدق هذه المعلومة ، أنه ورد في كتب العديد من المؤرخين النصارى الإشارة بأن الآباء البيزنطيين الذين نور الإسلام قلوبهم ، كانوا

---

[1] كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص٤١٣ .

يتشـــوقون إلى تقديم أبنائهم طواعية للسلطان العثماني ليربيهم تربية إسلامية ويلحقهم بالجيش .

وعلـــى طـــول حديـــث بـــروكلمان يتضـــح لنا مدى التخبط والتناقض في معلوماته ، فتارة يصور العثمانيين المسلمين في غاية القســـوة والوحشـــية أثـــناء جمـــع الأطفال ، ثم في غاية الإنسانية والرحمة في التربية ، ثم يعود فيهدم الكلام السابق عندما يصور أن ضـــريبة الغلمان لم تلق أي اعتراض لدى الآباء ، بسبب المستقبل الباهر الذي ينتظر الأبناء نتيجة انضمامهم إلى الجيش الجديد ، وإذا كـــان الأمر كذلك فلماذا يدفع الأثريا رشاوي للحيلولة ما بين أبنائهم وبيـــن المســـتقبل الباهر الذي ينتظرهم لدرجة أن أبناء المسلمين يـــنظرون إلـــيهم بعيـــن الحسد ؟ ثم أي خمسة أصناف التي تحدث عـــنها ؟ فهو لم يذكر أي من شروطها أو حدودها ، ولم يأت على ذكـــرها بعـــد ذلـــك ، وهـــذا يدل على أنها من خياله . لقد ناقض بروكلمان نفسه ، ففي البداية صور الغلمان بصورة المظلومين ، ثم راح يجعلهـــم فـــي موضع المحسودين ، وهذا يعني أنهم في نعمة كبيرة .

كما أنه من الثابت تاريخياً أن الأسر المسيحية أصبحت تقدم أبناءها للإنضمام في صفوف الإنكشارية لما ينطوي عليه الأمر من فائدة وخيراً عظيماً لهم . [1]

وقـــد تمـــادى بـــروكلمان في غيه إذ زعم أن لهذه الضريبة مواعـــيد وأعمار معينة ، وسليمي البنية ، فهل من المعقول سكوت

---

[1] أميرة مداح : مرجع سابق ، ص٢٠ ، محمد السيد : مرجع سابق ، ص ٢٠٠ .

الأهالي وعدم الدفاع عن أبناءهم ، أو القيام بثورة على هذا الظلم ، لقــد ذكــرا أن الآبـــاء الأغنياء كانوا يدفعوا الرشاوي ثمناً لحرية أبـــنائهم ، والفقراء ماذا سيفعلون ، فهم لا يمتلكون المال ، وبالتأكيد لـــن يرضخوا وسيقوموا بحركة تمرد ولكنه لم يذكر شيء من هذا القبيل ولم يأت بدليل قاطع على أقواله .

بـــرنارد لويس ذكر معلومات مختلفة ، لقد أقر أن المجاهدين الأوائل كانوا من الأتراك أنفسهم ولقرون عديدة كانوا مهيمنون في الفـــتوحات ، ثـــم أنضـــم للجـــيش المسيحيين اليونان الذين أسلموا وصـــاروا مجاهدين بارزين، حسب قوله ، إذا فما الداعي لاستخدام أبـــناء النصارى وخطفهم من أسرهم ليعملوا في الجيش العثماني ؟ ليس هناك سبب عقلي يحتاج دولة قوية بإمكاناتها الذاتية لأن تجلب أعدائها لتستخدمهم في محاربة أعداءهم والذين غالباً ما يكونوا على دين هؤلاء الأبناء المختطفين المكرهين ، بل كيف يعقل أن يطمئن العثمانـــيون إلـــى إخلاص وتضحية هؤلاء الجند ؟ إن من بديهيات الأمـــور أن ينقلـــب هؤلاء الشباب على العثمانيين في أول فرصة ســـانحة ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ثم من هم هؤلاء المسيحيين اليونانييـــن الذيـــن أسلموا وصاروا مجاهدين لماذا لم يذكر مصدر معلوماته، كما لم يأت ذكرها في أي مصدر آخر .

لقـــد كثر حديث المستشرقين ومن ضمنهم لويس عن المعاملة الحسنة التي يلقاها الأطفال في الدوشرمة ، من رعاية واهتمام إلى جانـــب تعلـــيمهم مـــبادئ الإســـلام واللغة بالإضافة إلى التدريبات العســـكرية . وما دام الأمر كذلك ، فمن هؤلاء الذين يعملون خدماً

في القصر أو في رعاية جنود السباهية هل هي هذه المعاملة الحسنة في نظرهم ، أم يدل هذا على أنهم يقولون أي شيء وفي أي وقت .

و فـــي معرض حديثه يشكك في شرعية نظام الإنكشارية من ناحـــية الاســـم ثـــم يؤكـــد أن هذا النظام صار مقبولاً على القرى المســـيحية ، كيف مقبول وهو أصلاً يقوم على اختطاف أبنائهم من أحضـــانهم وغير شرعي بأي منطق يتكلم برنارد ، كما أنه مقبول من الأهالي أم الدولة ؟

ثم يذكر أن السلطان لم يقدم على هذه الخطوة إلا بتوجيه من الفقهاء اســـتناداً على ما جاء في الشريعة الإسلامية ، وفي بدعة من عمل الفقهاء، فكيف يستند السلطان على بدعة ليس لها أصل في الشريعة الإسلامية.

وفـــي نهاية الأمر يسند لنا الرواية عن مؤرخ تركي مجهول لديـــه ، يزعم فيها أن عالم مسلم اسمه قره رستم لفت نظر السلطان إلـــى أخـــذ خمـــس الغنائم والأسرى ، وكأن السلطان لا يعلم أمور ديـــنهُ ، والواقع أن برنارد هو من لا يعرف تعاليم الدين الإسلامي إذ قـــال أن هـــذه بدعة من عمل الفقهاء ، وهنا يبدو الأمر في غاية الغـــرابة . فكـــيف يقـــوم الباحـــث الأكاديمي مثله نقل رواية عن مجهـــــول ، ثـــم لا يكلف نفسه عناء البحث عن أصل هذه البدعة حســـب قولـــه في الشريعة الإسلامية ؟ لكن روح التعصب والحقد والكره للإسلام غلبت على أمانتهُ العلمية والتحري والدقة.

أمـــا فيشر فقد أرجع الفضل في قيام الدولة العثمانية ليس إلى إســـلامية الدولـــة ، وإنما لأن بعض الصدور العظام وبعض كبار

رجال الدولة كانوا من أمهات نصارى ، ولكن هؤلاء إن وجدوا فقد كـانوا مسـلمين بصـرف النظر عن أصلهم " لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى " .

إن دخول العثمانيين في الإسلام على المذهب السني وجهادهم ضـدّ البيزنطييـن جعل من دولتهم نصيرة للإسلام ، وقد شاء الله تعالى أن تأتي هذه الدولة وتصبح ذات شأن كبير وقوة عظيمة لأن العـالم الإسلامي في ذلك الزمن الغابر كان يتطلع إلى وجود دولة إسلامية قوية تجمع شملهم وتؤلف قلوبهم . ولذلك فلاشك أن الإسلام كـان لـه دور فـاعل فـي توجه الدولة العثمانية وبناء مؤسساتها العسـكرية ، ولذلك لا نستغرب أن يقوم السلطان أورخان بتأسيس جيش الإنكشارية ليصبح الأداة الفاعلة في انتصارات الدولة .

أما المستشرق الفرنسي جيبون فقد ركز على إكراه العثمانيين لنصـارى البلقان على إعتناق الإسلام بعد فشل إغرائهم بالعتق من حـياة الـرق، فلماذا يرفض نصارى البلقان عرض السلطان مراد الأول بالإسـلام ولـو ظاهـرياً – مقابل التحرر من الرق ، ثم إذا رفضوا سيكرههم مراد على الإسلام وسيقبلوه على أن لا يأخذ مراد الأول أولادهـم ويحملهـم المعاناة النفسية تلك التي تغنوا بها . إن المـنطق يقول أن نصارى البلقان كان بإمكانهم التظاهر بالإسلام إذ لا يكلفهـم ذلك الكثير أما أن يرفضوا التظاهر لأي سبب كان ، ثم يرضـخون تحت التهديد بانتزاع أطفالهم فيسلموا ، فإن أقل ما يقال حيـنذاك أنهم دخلوا في الإسلام نفاقاً أو تظاهراً، إذاً فلماذا عرضوا أنفسهم لكل هذا العذاب النفسي طالما أنهم سيسلمون في النهاية ؟

كمـــا يتضـــح التـــناقض فـــي حديثه بعد ذلك ، إذ يقول أن الإنكشـــارية كانـــت قـــدوة حسنة في الالتزام بتعاليم الإسلام وترك الأهالـــي في حرية دينية ، يناقض أقواله ، ففي البداية يتحدث عن إكراه النصارى وأبنائهم على اعتناق الإسلام ، ثم يعود فيقول أنهم نشروا الإسلام في أوروبا ، كيف يعقل أن ينشر إنسان مبادئ مكره على اعتناقها .

وقـــد ذكر لإثبات هذا الأمر أن الإنكشارية عبارة عن تداخل المـــبادئ الغزوية والإسلامية القديمة ويقصد بالغزوية الغزو وأخذ الأســـرى والتوســـع العسكري ، أما التقليد الإسلامي فهو التسامح الدينـــي وأخذ الجزية، إذ كان بيري أطلق على توسعات وفتوحات الدولة العثمانية غزو، فهو يعود إلى قصور معلوماتهِ عن الإسلام ، وعـــن الدولـــة العثمانـــية، إن فتوحات الدولة العثمانية كانت لنشر الإسلام ورفع راية الجهاد معتمدة على القوة العسكرية ، والأسرى فـــي أغلـــب الأحـــيان كانوا يدخلون في الإسلام ، وأكثرهم يحسن إسلامهم .

أمـــا وجهـــة نظـــر بـــول كولنز فقد ربط نظام الرق بنظام الدوشرمة [1]، ونسى أن الفرق بينهما كبير، فنظام الرق في الإسلام لـــيس له هـــذا المسمى، وإنما هم أسرى الحروب والفتوحات وكان الأسير إذا قدم الفدية سواءً مالية أو عينية يتم فك أسره ، كما أنه لم يقـــر الإســـلام والدولة العثمانية خطف ا لأحرار وبيعهم على أنهم عبيد ، وإذا حملت الجارية فإن وليدها يعتقها ، هذا هو نظام العبيد

---

[1] بول كولنز : مرجع سابق ، ص ١١٥-١٦٢ .

والجــواري في الإسلام ، وقد تقول بول كولنز على الإسلام وعلى العثمانييــن أنهم يأخذون ضريبة الرأس – لفظ جديد – من الأهالي طالمــا أنهم ليسوا مسلمين ، وقد نسي أن المسيحي إذا دفع الجزية لــيس من حق أي حاكم أخذ أطفاله ، ثم من أين أحضر معلومة أن الأســرى كانوا يعملون في القصور ؟ ألم يربط هو في البداية الرق بنظام الدوشرمة ! وأطفال الدوشرمة لم يعملوا خدماً في القصور ، لأن الخــدم غالباً من الرجال الكبار وليس من الأطفال الصغار، أما أن الدولــة العثمانــية وضــعت سياسة لجمع ضريبة الغلمان لتلبية احتياجات القصور ، فكم سيستغرق هؤلاء الغلمان من الوقت حتى يصــبحوا قادرين على الخدمة في القصور ؟ وهنا يتضح عدم ثبات معلوماته ودقتها فهل الغلمان الذين يجمعوا كانوا يغطون هذه الحاجة مع الأخذ في الاعتبار استغراق حوالي عشرة أو خمسة عشر عاما حــتى يكبر هؤلاء الغلمان ، والتناقض واضح في حديثه ، فهل كان الغلمــان للخدمة في القصور أو الإنكشارية . ثم يعود فيناقض نفسه عــندما يؤكد أن هذه الضريبة لم تلق الامتعاض من الأسر مقارنة بالــبؤس والحرمان الذي يعيشه الأطفال في قراهم بعدما تحدث عن الحملات الشرسة لجمع الغلمان.

أمــا روبــير مانــتران فقــد أفرد جزءاً كبيراً في كتابه عن تنظــيمات الإنكشــارية والدوشــرمة ، ولا شك أن معلوماته كانت صحيحة ، لكن هذا لا يمنع من وجود بعض الدس والإفتراء ، حيث جعــل الإنكشــارية ترتكز أساساً على أسرى الحروب ، ونسى أن الإنكشــارية كــان لهــا شــريان آخر يغذيها وهم الأطفال الأيتام

المشردين في الشوارع ، كما أنه ذكر أسرى الحروب والذين جمعوا بصـــورة أكـــثر تحدياً من العشر أي عشر فهل هو عشراً أم خُمس العـــائد للســـلطان ، وهـــذا يعني أن جميع الأسرى كانوا غلمان ، يأخذهم السلطان دون أن يترك إلا جزء من الغنائم للجند ، فهل هذا منطق يتحدث به ، كما ذكر أنهم كانوا يشتروا من أسواق النخاسة ، ولـــم يذكر مصدره في هذه المعلومة ، ثم قال أن أقل عدد يأتي من الدوشرمة ، والدوشرمة في أساسها هي من يغذي الإنكشارية بجميع جـــنوده ، وزاد فـــي إفـــتراءه أن أطفـــال المسلمين خضعوا لهذه الضـــريـــبة ، وهـــم لم يخضعوا قسراً وإنما أحب المسلمين تقديم أبـــناءهم للإنكشارية لما ينتظرهم من مستقبل باهر كما ذكر سابقاً . ومـــا معنى أن يستثنى أهل البوسنة والهرسك الذين أعتنقوا الإسلام مـــن الضـــريبة ، كمـــا جـــاءت أقوالـــه متناقضـــة جداً مثل باقي المستشـــرقين حول حياتهم والمعاملة الحسنة والمستقبل اللامع الذي ينـــتظرهم وبيـــن أن الضريبة صارت رمزاً للسيطرة العثمانية في التراث الشعبي . وأكد ذلك بقوله وجود شهادات توضح تذبذب هذه الظاهرة ، وطبق عليهم نظرية أنهم عبيد على الرغم من عدم إيراد دليل على صدق أقواله .

كمـــا أعـــترف هو بنفسه بكفاءة هذه الفرقة ، حيث أورد أن المراقبيـــن الغربييـــن والذيـــن هم من كال الاتهامات للإنكشارية ، أوضحوا أن هذا الجيش تميز بانضباط صارم وقدرة على الانتشار بســـرعة ونظام دون إحداث جلبة ، كما عاشوا في تقشف ، ونظافة تامـــة للمخـــيمات ، فـــي الوقت الذي كانت فيه الجيوش الأوروبية

متغطرسة ، مشاغبة ، مدمنة على الخمر ، ومستسلمة للأقدار ، ومثقلة بمؤن غير مناسبة .[١]

وهذا يدل على اقتناع الإنكشارية بعقيدتهم الإسلامية ، ويدل على أن الأوروبيين كانوا يدركوا مدى افترائهم على الإنكشارية .

أما هاملتون جب الذي كرر الفرية مضيفاً هجوماً على المحاربين الأوائل الذي شبههم بقطاع الطرق والعصابات ، هؤلاء هم من قاد الفتوحات الأولى وأدخل الرعب في قلوب البيزنطيين ، فهؤلاء أول من فتح المدن في الأراضي البيزنطية وعملوا على استقرار الدولة العثمانية لأول مرة في شرق أوروبا ، فكيف يريد السلطان أورخان التخلص منهم وهم من قادة الفتوحات ، وإنما أراد الاستفادة من الأطفال المشردين في إنشاء جيش ، لأنه إذا أستمر القتال بهذه الفئة ، ستفنى بعد قليل .

وقد أتهم نظام الإنكشارية بأنه مخالف للشرع الإسلامي، فهل هو يعرف الشرع أكثر من شيوخ الإسلام في الدولة العثمانية ؟ ثم ما هو دليله على صدق أقواله ؟

أما خليل إينالجيك فقد أتهم المسلمين بالتعصب لأقاربهم ، والذين سيطهدوا الرعية إذا ما صار أبنائهم من الإنكشارية ، وهذا تلميح خطير إلى سوء أخلاق المسلمين ، أما في نظرة أن المسيحيين إذا اعتنقوا الإسلام صاروا غيورين عليها ، ويصبحون أعداء لأقاربهم ، هذا طبيعي لأنهم مخالفين لهم في العقيدة ، أما مسألة الغيرة فهي موجودة في قلب كل مسلم سواء كان مسلم

---

[١] روبير مانتران : مرجع سابق ، ج١ ، ص٣٠٨ .

بـــالولادة أو اعتـــنقها في إحدى مراحل حياته، فالإسلام دين أخلاق ومثل يهذب أخلاق المسلم ، كما أن الغيرة تولد في قلب المؤمن منذ لحظـــة اعتناقه للإسلام ، وقد اعتمد خليل أينالجيك في أقواله على مصدر عثماني لم يذكر اسمه أبداً ، فكيف يصدق الباحث روايته ، كمـــا أنه بهذا التلميح يريد بذر بذور التفرقة ما بين أبناء النصارى وأبـــناء المسلمين . ويوضح أن أبناء النصارى في الإنكشارية كانوا الأفضل والأحسن لأن الإنكشارية هي الفرقة التي نسبت إليها أعظم فتوحات الدولة العثمانية. واستند إلى وثائق لم يلحقها بكتابهِ أو يذكر حتى من أين حصل عليها في مواعيد جمع الغلمان ، وهذا يعني أن مصادره مجهولة .

أمـــا المؤلـــف الإنجلـــيزي المجهول الذي ألف كتاب تاريخ الأتـــراك العثمانييـــن . فقد شبه الجيش العثماني بالفرق الرومانية والتـــي تعتمد على المرتزقة ، وأخذ أسرى الحرب وبيعهم ، ونحن نتســـاءل ماذا يقصد بالجيش هل هم الإنكشارية أم الفرق الأخرى ؟ كما أن الجيش يأخذ الأسرى ويبيعهم أو يكون منهم جيش ، وحديثه غـــير مفهوم ولا يمت للواقع بصلة ، كما أنه جزم بإعفاء الأسرى مـــن الفدية إذا تم عقد معاهدة بين الدولتين ، كان هذا في الغالب ما يحدث ، فكيف تجمع عدد كبير من الأسرى مما دعى إلى وضعهم في الدوشرمة ؟!

هـــذا عـــن آراء المستشرقين المسيحيين ، وليس بمستغرب علـــيهم مثل هذا التشويه والافتراء أما المؤرخين المسلمين فإنه من

المحــزن والمؤسف تناقلهم هذه الإفتراءات دون محاولة تنقيتها أو معرفة مدى صحتها .

لقــد اعترف البعض بهذه الضريبة وجزموا بها بل وأطلقوا علــيها أسماء جديدة مثل ضريبة الدم ، أو أعترفوا بنظام البدل أي دفع مال مقابل الإعفاء من الضريبة .

فعــبد الوهاب بكر أطلق على الإنكشارية جهاز تفريخ القوى البشــرية الذي يزود الجيش بالرجال منذ عهد أورخان ، إنه تعبير جــارح جــداً لفرقة حملت راية الجهاد وسقت الأراضي المفتوحة بدمائهــا ، إنهم بشر آمنوا بالإسلام ومبادئ الجهاد وليسوا لدواجن تسعى في الأرض دون هدف .

عــبد الســلام عــبد العزيز فهمي جاء بقضية جديدة ، وهي المقايــيس التــي يتم بناءً عليها اختيار الغلمان ، من جمال الوجوه وقــوة الأجســام وبراعة العقول ، على الرغم من أن هذا كله لا يظهر وهم أطفال ، لأن الجمال يظهر مع أولى سنوات الشباب وقوة الأجســام لا تكون في سن الطفولة ، وإذا كانوا يجمعوا الأطفال من أســرهم المســيحية ويرحلوا إلى العاصمة ، فمتى يكشف المندوب براعة عقولهم وتفكيرهم ؟

وهــذا يقودنــا إلــى ما أورده أحمد عبدالرحيم مصطفى أن العثمانيين اختاروا أذكى أبناء المسيحيين وأخذوهم ، إذ كيف يعرف المندوب الذي يجمع الأطفال مدى ذكائهم فهو يجمعهم عشوائياً دون إخضاعهم لاختبارات ذكاء أو ما شابه .

أما إسماعيل ياغي فقد ظهر التناقض واضح في حديثه وعدم ثبات معلوماته ، كما أنه جزم بضريبة الرأس ، والتي كان على المسيحيين أن يدفعوها في مقابل حماية الدولة العثمانية لهم والإعفاء من الخدمة العسكرية والغريب في الأمر أن كلمة ضريبة الرأس هي اختراع من وحي خيال المستشرقين وليس لها مصدر عثماني موثق .

كما أن الشناوي جزم بصحة الفرية ، ولم ينتقدها بل تخبطت معلوماتهِ ما بين رفض الأسر المسيحية لهذه الضريبة ، وما بين ترحيبهم بها ، مثل باقي المستشرقين ، وهذه النقطة بالذات تكشف عدم صدق إدعاتهم على الإنكشارية ، بل أن الشناوي أتهم الأسر المسلمة بأنها كانت تتسابق لتقديم أبنائها للإنكشارية ، وإن صح هذا الأمر فهذا يعني أن أغلب الأطفال كانوا مسلمين أصلاً ، فلا يوجد إكراه على الدين الإسلامي. كما أوضح أن الأسر المسيحية تلجأ للخديعة إذ تزوج أولادها بعد بلوغ سن العاشرة مباشرة ، لأن القانون يمنع المتزوجين من الأنضمام لصفوف الدوشرمة . أو تقديم رشوة لمندوب (*) الدولة العثمانية حتى يترك أبناء الأسر الميسورة الحال ، أليس هذا تناقض في أقواله !

كما يضيف الشناوي أن أبناء اليهود دخل أبنائهم ضمن ضريبة الغلمان على أنهم مسيحيون . [1] على الرغم من أنه ذكر

(*) وقد وجد هؤلاء المندوبين في هذه الرشوات وسيلة للثراء السريع بطرق غير مشروعة ، ويحقق مصالح متبادلة بين المندوب والأسرة المسيحية . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٤٨٤ .

[1] عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٨٤ ، ٤٨٥ .

فـــي موضع آخر إعفاء اليهود والأرمن والكاثوليك وبعض المناطق كإســـتنابول وهـــي العاصـــمة وإثيـــنا وجزيرة رودوس.[1] لقد أكد الشـــناوي أن أبناء اليهود دخلوا في هذه الضريبة ثم يعود فيناقض نفســـه ، حيـــث نصـــطدم مع إعفاء الدولة العثمانية لليهود الأرمن والكاثولـــيك مـــن هذه الضريبة ، إذ أن جلّ سكان أوروبا الشرقية ومســـرح العملـــيات العسكرية العثمانية هم من هذه الطوائف وأن الكاثوليك بالذات يشكلون النسبة العظمى من سكان أوروبا الشرقية بمعنى آخر ، من بقي من شعوب الروم إيلي ليكره على الإسلام؟

أما ساطع الحصري زعم أن الإغارة على أوروبا كانت بقصد جلب الرقيق ويسمى هذا ابتكاراً تماما مثل ما فعل برنارد لويس مع الخمـــس أو الفيء برغم اختلاف الأجناس إلا أن الذي جمعهم هو العداء السافر للإسلام وأهله ، فهو يسمي الجهاد إغارة ، القصد منها مادي بحت وليس للدين فيه نصيب بينما نجد السلطان عثمان باشر بإرسال الرسل إلى أمراء الروم يدعوهم فيها إلى الإسلام أو الجزية أو القتال .

أما الدكتور الغرايبة نقل لنا هذه الفرية بأسلوب جارح وكأنه أمر لا يمكن الشك فيه ، لكننا نجد في موضع آخر من كتابه يوضح أن إمارة عثمان كانت المتنفس الوحيد للحماس الديني في الإسلام ، وقـــد اجتذبت لها أعداداً من المسيحيين لنصرة الإسلام الراغبين في الجهاد في سبيل الله ، تحت راية الدولة العثمانية ، ومن حقنا هنا أن نتساءل ما حاجة السلطان أورخان ومن ثم مراد إلى بضع مئات من

---

[1] عبدالعزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٤٧٧ .

الغلمـــان النصــــارى الذين يتطلب إعدادهم للجندية سنوات طويلة ، بيـــنما تـــنهمر علـــى الدولة العثمانية من كل حدب وصوب جموع المسلمين لنصرة الدين والجهاد في سبيل الله ؟ وهذا ما أكده الدكتور الغرايــبة فـــي كتابه ، إذاً قال هذه الكلمة ورد على نفسه في نفس الكتاب ، وهذا يدل على تلفيق الحقيقة وعدم صدق إدعاءه. ومع هذا فقـــد أقـــر بأنه لم يقم أحد السلاطين بإكراه الأطفال النصارى على اعتـــناق الإســـلام ، لأن أغلبـــية الأطفال الذين كانوا يربون تربية إســـلامية لم يكونوا نصارى وإنما كانوا أبناء مسيحيين أنخلعوا عن النصـــرانية ، واعتـــنقوا الإسلام وصاروا يقدمون أبناءهم طواعية ليســـتكملوا تربيـــتهم الإســـلامية ، أما باقي الأطفال فهم المشردين والأيتام من جراء الحروب.

أمـــا مـــا أورده محمد الأرناوؤط عن الإنكشارية من واقع الوثائق فعمل يشكر عليه ، ولكن إذا فصلت الباحثة أولاً المعلومات التـــي وردت فـــي صفحات الكتاب ، يلاحظ أنه أعتمد على كتابات الـــرحالة الأوروبييـــن ، وهؤلاء لا يوثق في كتاباتهم بسبب عدم فهمهم لخلفية المنطقة الدينية والاجتماعية ، إضافة إلى وجود فكرة مســـبقة في أذهانهم يعملون بشتى الوسائل لإثباتها حتى ولو اختلقوا الأكاذيب لتحقيق مآربهم ، وبالتالي تأتي معلوماتهم ناقصة ومغلوطة في أغلب الأحيان .

لقـــد أورد الأرناوؤط أن الخيالة السريعة مهمتها كانت إثارة الفزع ، على الرغم من أن الخيالة السريعة هي الفرقة التي تنطلق بسرعة للتمهيد لأي معركة أو فتح قلعة ، فهي لا تنطلق بين القرى

لأخــذ الأطفال كما أن هذه المعلومة لم يرد ذكرها في الوثائق التي أعتمد عليها .

ثم أورد معلومة ألصقت بها تهمة الدوشرمة في السلطان مراد الثانـــي وأنه هو الذي انتزع أبناء المسيحيين من أسرهم والسلطان مـــراد الثانـــي كمـــا هو معروف اشتهر بنشاطه العسكري وحنكته السياســـية واســـتقامته ، إضافة إلى أن عهده تميز بكثرة الفتوحات العثمانية وبالتالي تدفق الأسرى عليه من جميع الجهات ، فما حاجتهُ لإنـــتزاع الأبـــناء من أسرهم ، إضافة إلى أن بلاد اليونان والبلغار والتـــي زعم الأرناوؤط أن الشبان كانوا يجمعوا منها لم يكن الحكم العثماني قد استقر فيها بعد .

كما أورد في كتابه أيضاً أن الأطفال الدوشرمة مختلفين عن أطفـــال الخمـــس ، حيث أوضح أن هذين القانونيين عملا جنباً إلى جنـــب فـــي فـــترة محدودة ، إذ أنهم في النهاية هم الأطفال الأيتام وأسرى الحروب.

وأورد الأرنـــاوؤط فـــي موضع آخر من كتابهِ أنه في عهد السلطان محمد الفاتح أرسل شعب البوسنة المسلم عريضة للسلطان يطلـــبون فـــيها إنضمام أبنائهم للدوشرمه ، فإذا كان الحال بأولاد المســـلمين هكذا فالأولى بأولاد المسيحيين أن يتسابقوا على دخول الدوشرمة . [1]

أمـــا بالنسبة لأعمار الأولاد فقد ناقض نفسهِ إذ قال أن الدولة العثمانـــية كانـــت بحاجة إلى قوات عسكرية ، لذلك لم يكن بوسعها

---

[1] محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص٣٨ .

انـــتظار عشـــرة أو خمسة عشر سنة إلى أن يكبر هؤلاء الأولاد ، فاكتفـــت الدولـــة بأخذ الشباب ممن بلغوا الثامنة عشر سنة وأكثر ، وإخضاعهم لدورة تدريب عسكرية سريعة ، وهذا في مفهومهِ العام تجنيد كما يحدث في الوقت الحالي وليس ضريبة مطلقاً . لأن هؤلاء دائمـــاً علـــى صـــلة أوثق بأسرهم وقراهم ولا يمكن تغيير دينهم ، وبالتالي لابد أن يكونوا مسلمين [١].

أمـــا عن مقاومة الأهالي لهذه الضريبة ، فإن المقاومة جاءت من منطلق مقاومة التجنيد الإجباري ، كما أن هجوم الأهالي المسلح علـــى القافلـــة أثناء سيرها ، يرجع إلى رفض أهالي القرى مبيت القافلـــة عـــندهم نظراً للعبء الاقتصادي الذي يتسبب به مبيت هذه القافلـــة مـــن تدبـــير طعام وشراب ومكان للمبيت لأكثر من مئتي شـــخص . ولكـــي نقتنع بمقاومة الأهالي لهذه الضريبة أعتمد على قصـــص ملفقة من رحالة مغرضين مثل قصة الأم التي تخاف على أطفالهـــا الاثنين من ضريبة الغلمان وهي أرملة ، وهذان الطفلان بالتالي أيتام ، وقد قرر الأتراك أخذهم على حد قولهِ على الرغم أنه أكد في موضع آخر من كتابهِ أن الأيتام معفيون من هذه الضريبة لأنهـــم طماعيـــن وغير مؤدبين وبهذا يتضح التناقض الواضح في الروايات التي استند عليها . [٢]

كمـــا أن العقوبـــات الصارمة التي أوردها الأرناوؤط تسري على من يرفض تسليم إبنهُ للتجنيد وليس للضريبة ، فكلمة الضريبة

---

[١] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : رقم الوثيقة ، H.H ٨٢٦٥ .

[٢] محمد الأرناؤوط : المرجع سابق ، ص٤٣-٥٠ .

أطلقهـا المستشـرقون حـتى يشعروا القارئ بأن العثمانيين قساة ينتزعون الأطفال. كما أن هذه العقوبات كانت تسري على أصحاب الإقطاعـات والتـيمارات والـزعامات ومتولـي الأوقاف ، لأنهم يرفضون تسليم الشبان ، الذين يشكلون أيدي عاملة ممتازة عندهم .

وأخيراً أكد الأرناؤوط أن مقاومة الدوشرمة لم تستمر طويلاً إذ ظهـرت في بدايتها ، ثم تلاشت بعد أن أتضح المستقبل الزاهر والمناصـب العليا التي تنتظر هؤلاء ، فأخذ الآباء يقدمون أبناءهم طواعـية وبرغـبة شـديدة للخدمة في الإنكشارية حتى أن بعض المصادر اعتبرته تكريم ومحاباة لأهل الغلام . [١]

انـتهى العمل بنظام جمع الأبناء والشباب للإنخراط في سلك الإنكشـارية تقريـباً عام ١٠٤٧ هـ / ١٦٣٨م ، في عهد السلطان مراد الرابع .

مـن فحـص وتدقيق الوثائق [*] التي وردت في ثنايا كتاب الأرناوؤط يتضح ما يلي :

١- الوثـائق تركزت في الفترة ما بين ١٥٦٥م – ١٦٤٧م . أي مـنذ آخر سنة في عهد سليمان القانوني وحتى عهد السلطان إبراهـيم الأول . ومـن المعـروف أنه تخلل في هذه الفترة الضـعف والوهن في كيان الدولة العثمانية ، وخلال القرن الحـادي عشـر الهجـري السـابع عشـر الميلادي عمت

---

[١] محمد الأرناوؤط : مرجع سابق ، ص٥٩ .

[*] الوثـائق محفوظـة في أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول ، ونسخ أخرى منها محفوظة في معهد التاريخ القومي في سكوبيه .

الإضطرابات والفوضى والاختلالات السياسية في جميع أرجاء الدولة العثمانية ، فإذا جزمنا مؤقتاً بوجود هذه الضريبة استناداً للوثائق المرفقة ، فإنها لا تشمل كل فترة حكم الدولة العثمانية في المنطقة المعنية . بل مورست هذه الضريبة في فترة محددة جداً . كما أن إختلال الموازين في الدولة العثمانية في تلك الفترة أدى إلى حجب كثير من الحقائق عن السلطان المثقل بالمشاكل الداخلية والخارجية ، وبالتالي من الممكن أن تتم أعمال من عمالهِ وبطانتهِ السيئة دون معرفة السلطان وذلك لأنه أختارهم ووثق فيهم . ولم تذكر وثيقة واحدة أخذ الأبناء بالقوة من بيوت أسرهم . وإنما يرد في الوثيقة جمع " أولاد العجم " وإرسالهم إلى إستانبول وبالتالي من الممكن أن يكون قصد السلطان في الفرمان أو الأمر السلطاني ، الأطفال المشردين أو الذين فقدوا أسرهم في ظروف الفتح أو أي ظرف آخر .

٢- وإذا جاء في إحدى الوثائق مقاومة أهالي القرى ومهاجمتهم لقافلة "أولاد العجم " أو الدوشرمة أثناء طريقها لأستانبول ، وهذا لا يعني أن هجومهم للقافلة بسبب الضريبة ، ولكن من الجائز أن يكون الهجوم لأسباب اقتصادية إذ أن هذه القافلة عندما تبيت في القرية ، يتحمل أهالي القرية عناء مبيت هذه القافلة وتدبير مأكل أكثر من مئتي شخص ، مما يُمثل عبئاً اقتصادياً على أهالي القرية الفقراء ، وهذا ما أكده الأرناوؤط في كتابه ، إذ أوضح أن كثيراً من القرى كانت ترفض بقوة

الســلاح مبيت هذه القافلة في أرضها . كما جاء في الوثيقة الثانية . [1]

٣- تظهــر حقــيقة واضـــحة وبجلاء وهي أن الأولاد الذين يتم جمعهــم يعملوا في البساتين السلطانية ، وهذا يعني أنهم في الأغلـــب أكبر من أربعة عشر عاماً مما يعطي دلالة واضحة أن هؤلاء الشبان يُمكنهم مقاومة جامعي الدوشرمة بسهولة ، كمـــا لا يمكـــن تغيير دينهم في هذا العمر، أو قطع صلاتهم بأسرهم ، كما جاء في الوثيقة الثالثة ، أن السلطان أرسل أمر بجلب كبار أولاد العجم ، وليس الأطفال الصغار.

٤- في الوثيقة السادسة ورد ذكر أخذ الابن من أبيه الذي يتراوح عمـــره من خمسة عشر عاماً إلى عشرين عام ، مما يوضح تمامـــاً أن هـــذه الضريبة التي تغنى بها المستشرقين ورددها المؤرخـــون العـــرب ، وألصـــقوها كتهمة بشعة في الدولة العثمانـــية مـــا هـــي إلا تجنيد إجباري لشباب القرى والمدن التابعة لحكم الدولة العثمانية ، والتجنيد الإجباري موجود في الوقـــت الحديـــث بشـــكل كبـــير ، كما أن كثيراً من الدول الإســـلامية مارســـتهُ . وبالتالي لا يعتبر التجنيد تهمه، وإنما مجـــرد إجراء روتيني للشباب ، وذلك حتى يكونوا متهيأيين لدخول أي حرب وهذا ما كانت تقوم به الدولة العثمانية تحت ما أسموه بضريبة الغلمان أو الدوشرمة .

---

[1] محمد الأرناؤوط : مرجع سابق ، ص ٤٤ ، ٤٥ .

٥- ورد في الوثيقة التاسعة المؤرخة بـ ١٦٣٨م - ١٦٣٩م أن جمـــع الأولاد الذميين والمسلمين توقف لفترة من الزمن ، ثم بـــدأ جمـــع أبناء الذميين والمسلمون في سن يتراوح من ستة عشر عاما إلى خمسة وعشرين عام وهذا يعني تجنيد وأداء الخدمة العسكرية لهؤلاء الشباب ، وهذا الأمر موجود في كل عصـــر وفـــي كـــل مكـــان ، فعندما ينهي الشباب الخـــدمة العسكرية ، يعود إلى قريتهِ وأسرتهِ ويمارس حياته الطبيعية ، وفـــي حالة حدوث حرب يتم استدعاؤه لخدمة بلادهِ ، أما في الدولـــة العثمانـــية فكـــان يـــتم تجنيد الشاب ثم يلتحق بجند الإنكشـــارية فـــوراً ، وذلـــك لكثرة حروب الدولة العثمانية والجبهات المفتوحة عليها من الداخل والخارج .

٦- يتضـــح مـــن الوثائق أنه في بعض الأحيان يرفض أصحاب التـــيمارات والأراضي الزراعية تسليم هؤلاء الشبان لجامعي الدوشـــرمة على حد زعمهم ، وذلك بسبب أن غياب هؤلاء الشـــبان يعنـــي ضياع الأيدي العاملة التي تعمل في زراعة الأراضـــي ، مما يعطينا دلالة واضحة على تقدم سن هؤلاء الشبان ، وأنهم ليسوا أطفال كما أدعى أغلب المستشرقين .

٧- تركزت الوثائق على منطقة البلقان فقط ، فمن الجائز إذاً أنها مورســـت في هذه المنطقة فقط في فترة زمنية محدودة حيث انحصـــرت الوثائق في الفترة ما بين ١٥٦٥م- ١٦٤٧م أي فترة إثنان وثمانون عام فقط ، وهذه مدة ليست طويلة لدرجة أن تمارس فيها هذه الضريبة كثيراً ، كما أن الدولة العثمانية

شملت مساحة كبيرة في تلك الفترة فمن الجائز أن يقوم الولاة بأعمال لا يدري عنها السلطان لبعد المسافة ، وبطء وصول الأخبار لأستانبول .

٨- أن الشبان الذين كانت تجمعهم الدولة العثمانية مسلمين بدليل أنهم حملوا السلاح للدفاع عن الإسلام .

وأخيراً فإن هناك خطأً كبيراً وقع فيه المستشرقون ومن بعدهم المؤرخون العرب المسلمين ، ألا وهو الجزم القاطع بأن الإنكشارية يشكلون معظم الجيش العثماني تقريباً ، وكانوا عموده الفقري منذ البداية، والسبب في ذلك يعود إلى كثرة تكرار اسم الإنكشارية في التاريخ العثماني ، سببها كونهم جنود المركز كما أنهم في استانبول دائماً يقومون بالثورات لكن نظام الفرسان ظل سائداً في الجيش العثماني ، وجميع السباهية المنتشرين في أنحاء الدولة العثمانية يؤدون واجبهم دون التدخل في السياسة ، ولم يصبح الإنكشارية أغلبية في الجيش إلا في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ، عندما تدهور نظام الإنكشارية وصار ذلك التدهور أحد الأسباب الرئيسية لضعف الدولة العثمانية .[1]

ولنا أن نتساءل ما مدى صحة أصل الجيش الإنكشاري من الناحية الشرعية ؟ فإنه من المعلوم أن الدولة العثمانية قامت على الإسلام وكان للعلماء دوراً بارزاً فيها وغير مسبوق في بعض

---

[1] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٣٨٩ ، ٣٩٠ . عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص١٣.

الأحـــيان . [*] ولو كانت فكرة الإنكشارية غير شرعية لأظهر ذلك العلماء والشيوخ للسلطان ولكن ذلك لم يحدث .

وإضافة على الأدلة والبراهين السابقة فإن محمد فؤاد كويرلي أوضـــح أن قسماً ضئيلاً من الأسرى وربما الأصغر سناً دخل في الإســـلام أمـــا القســـم الأكـــبر فكانوا يوهبون لأصحاب الأراضي الزراعية . وفي الوقت نفسه كانت الفتوحات في البلقان تتم بسهولة دون خســـائر تذكـــر ، [١] وهذا يدل على أن الفتوحات تمت بدون الحاجـــة إلـــى أبناء النصارى من جهة ، وأن قلة الخسائر إنما هي لعـــدم المقاومـــة من الطرف الآخر ، ولسماع أهل البلاد بالمعاملة الحسنة التي يتميز بها العثمانيون .

وفيما يلي نستعرض بعضاً من أقوال الأجانب المنصفين عن هذه الضريبة كدحض لآراء المستشرقين :-

بوســـبيك [**] وصـــف الجـــيش العثماني بقوله " أفراد هذه الجـــيوش مدربـــون على الحرب يتحلون بالصبر والنظام والاتحاد واليقظة " [٢] كما يؤكد كريزي أنه لم يرد ما يدل على حدوث إكراه

---

[*] ثبت أن عثمان أقام سياسته على مشورة الفقهاء وحكم حكماً عادلا يوجب الالتفات إليه في تلك العصور الطافحة بالظلم . مرجع سابق ، ص٤٤ .

[١] محمد فؤاد كوبرللي : مصدر سابق ، ص١٨٨ ، ١٨٩ .

[**] السفير النمساوي في الأستانة عام ١٥٥٤م .

[٢] نقلاً عن عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

للأسـر المسـيحية علـى ذلك ، بل أن الآباء أنفسهم كانوا يسعون لإلحاق أبنائهم في الإنكشارية [١]

وقـد جـاء ذكر الإنكشارية في كتاب الرحالة الفرنسي دي كورمينان الذي زار بلاد الشرق عام ١٠٣١هـ / ١٦٢٢م ، حيث أعجـب بالـنظام السـائد لدى الجيش الإنكشاري في ذلك الوقت ، وتمـنى لـو كان من الممكن أن يسود هذا النظام لدى المـشاة في فرنسا . [٢]

أمـا المؤرخ الأمريكي ليبير فقد علق على جنود الإنكشارية بقولهِ أنه ربما لم تحدث على وجه الأرض تجربة أكثر جرأة وأوسع نطاقـاً مثل التجربة التي أقدم عليها العثمانيون ، وأوضح أنها كانت موجودة في دولة المماليك ، ولكنها عمّرت في الدولة العثمانية أكثر ممـا عّمرت تجربة المماليك، كما أن الدولة العثمانية في هذا الأمر لـم تعـترف بالفروق الاجتماعية فقد دخل الإنكشارية أبناء الفقراء والفلاحين ، الذين التصقوا بالفقر والحرمان ، وبمضي الأيام وصلوا إلـى أرقـى المناصـب ، كصـدور عظـام ، ووزراء ، وقـادة عسكريـين . (*) [٣]

---

[١] نقلاً عن محمد عبد اللطيف البحراوي : مرجع سابق ، ص ٥١ .

[٢] ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٠ .

(*) قـال : إن الجـيش العثماني كان يجمع أفراده جميعاً شعور الولاء العميق للسلطان . وإذا صدرت الأوامـر باسـتدعاء الجيش لحملة عسكرية كبرى اجتمع الجيش حول السلطان ، وفي مسيرة الجيش يـأخذ مكانه بأوامر تصدر إليه من السلطان . وكان السلطان هو المحور الرئيسي الذي ينظم جميع=

وورد في الموسوعة اليونانية أن السلطان عثمان ومن بعده أورخان لم يكونا يجبران البيزنطيين على الدخول في الإسلام وإنما تركا لهم حرية التدين.[1] بل إن هذا التسامح الديني لم تعرفه أوروبا النصرانية، وهو عكس ما في الدولة العثمانية حيث كان النصراني لديه مطلق الحرية لإقامة مدارسه الخاصة ومعاهده الدينية .

وعلى ما تقدم من أقوال المستشرقين نكتشف حقيقة مهمة هي عدم استناد المستشرقين على أي سند تاريخي أو مصدر أو وثيقة أو مخطوطة وإنما يتولد لدى القارئ إحساس بأن ذلك من تأليف وصياغة المستشرق نفسه ، وفي نهاية الأمر لا نجد مصدر موثوق يعتمد عليه للجزم بصحة الفرية .

والغريب في الأمر أن المؤرخين المسلمين أعتمدوا على المستشرقين في نقل بعض المعلومات التاريخية ، ولم يمحصوها ويتأكدون من صحتها بل إن بعضهم أخذها كأمر مسلم به .

وبناءاً على جميع ما تقدم نضع حقيقة واقعة ، لامراء فيها وهي أن العثمانيين ليسوا مبتدعين ، بمعنى أن العثمانيين لم يبتدعوا شيئاً مخالفاً للعرف والدين حين أنشأ جيش الإنكشارية ، إن فكرة إيجاد جيش محترف فكرة عسكرية عبقرية ، وهي فكرة قديمة

= عمليات التشكيل التي تتم في المعركة ، والكل يدين بالولاء التام عقلاً وروحاً . عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص ٣٥ .

[٣] نقلاً عن عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٨٦، ٤٨٧ .

[١] زياد أبو غنيمه : مرجع سابق ، ص١٣٥ . نقلاً عن الموسوعة اليونانية .
MEGALIA ELLINIKI ENGIKLOPEDIA ج . ٨ ، ص ٢٧٦ .

مارستها كل الشعوب . [١]

وقــد أورد ابن خلدون في مقدمته قوله " إن الدولة إذا طرقها الهــرم والضــعف تــتخذ جنوداً من غير جلدتها ممن تربوا على الخشــونة ، فيكونوا أصبر على الحرب من غيرهم ممن تربوا في نعيم العيش " [٢]

ولكن الذي يختلف عن نظرية ابن خلدون أن الدولة العثمانية فــي فــترة نهوضــها وتأسيسها وعز قوتها اتخذت جنوداً من غير جنسها وليس في فترة الضعف والهرم .

كمــا أن العثمانييــن ألبسوها لباساً نظامياً ، بعد أن كانت بلا رابط حيث يلتحق المرء بالجيش الذي يريده متى شاء وينفصل عنه وقــتما أراد وينضم لجيش عدو سابق لكن لا أحد يلومه أو يعاقبه ، إلا أن العثمانيين نظموا هذا الأمر ، وجعلوا الجيش المحترف جيشاً نظامــياً مرتــبطاً بالدولــة العثمانية . كما ألبسه نظاماً شرعياً دينياً يحترم حرية الفرد [٣].

ولنعدد الأمثلة من جيوش العالم التي اتخذت جنودها من غير جنسها إضافة على معاملتهم كمرتزقة ، وهو عكس الدولة العثمانية التي وصل فيه أفراد الإنكشارية إلى مناصب عليا في الدولة .

لقــد وجــدت هــذه الجــيوش في الدولة البيزنطية أصحاب القســطنينية، الذيــن كانوا إذا غزوا بلاد الإسلام سبوا كثيراً من

---

[١] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٧٦٧ .

[٢] فايقه محمد عبد الصمد بحري : أثر الدولة العثمانية في نشر الإسلام في أوروبا ، رسالة ماجستير لم تطبع، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م ، ص ١٥ .

[٣] محمد فريد المحامي : مرجع سابق ، ص ٧٦٧ .

الأولاد وربوهم على النصرانية ، وجعلوهم جنداً يقاتلون المسلمين . فعـــندما استولى نقفور فوكاس على حلب سبى عشرة آلاف ولد من أهلها ورباهم في دار ملُكه ، وعمدهم ، وجعلهم من أفضل جنوده . كذلك عندما استولى البطريق ميخائيل بورسزيس على أنطاكيه سبى من أولاد المسلمين عشرة آلاف ، ورباهم في القسطنطينية فخرجوا نصارى ، وصاروا جنداً . [١]

وإذا دققـــنا الـــنظر فـــي التاريخ القديم وعلى الأخص تاريخ الإغـــريق نجـــد أن الطفل يفُصل عن أهلهُ وذويه منذ السابعة من العمـــر ، ويـــربى من قبل الدولة ، ويقُسم الصبيان إلى مجموعات تحت إشراف مدرب وتُقطع الصلة بينهم وبين أسرهم نهائياً . وكان يـــتم تدريـــبهم بمنتهى القسوة، مفتقداً لأبسط المعاني الإنسانية . [٢] وأننـــي استغرب بعدم مهاجمة المؤرخين والتحدث عن مشاعر الأم الحزيـــنة علـــى فـــراق أبـــنها ولم يأتِ أحداً على ذكر ذلك النظام الإغريقـــي ومـــا احتواه من قسوة ومخالفة للطبيعة الإنسانية ، بل أعتـــبروه مـــن أســـباب نجاح وتقدم نظام دويله المدينة السائد في الإغريق .

كما أن جيوش جنكيز خان وهولاكو وتيمورلنك ، إضافة إلى جيوش الإسكندر المقدوني ونابليون الأول وغيرهم من القادة العظام لم تكن جيوشهم ترتكز على جنس واحد ، بل كانت جيوشاً مأجورة

---

[١] شـــكيب أرســـلان : : تـــاريخ الدولة العثمانية ، تحقيق حسن السماحي سويدان ، الطبعة الأولى ، دمشق : دار ابن كثير ، ٢٠٠١م ، ص١٤٢٢هـــ ، ص٥٩ .

[٢] محمد كامل عياد : تاريخ اليونان ، دمشق : دار الفكر ، الطبعة الثالثـــة ، ١٤١٤هـــ ، ١٩٩٣م ، ج١ ، ص١٨٦ – ١٨٩ .

مختلطة من أقوام كثيرة ، وكثير من قادة هذه الجيوش يعملون ضد مصــلحة أوطانهم الأصلية [١] ولم يكن القائد يرى في ذلك حرجاً ، إن أول جيش في العالم قام على عقيدة واحدة هو الجيش الإسلامي .

كمــا نجــد أن الــدول المستعمرة قد سيرت جيوشاً من أبناء المســتعمرات يحــاربون بــه الأعداء ، ولولا جيوش المستعمرات الإنكلــيزية والفرنسية لما استطاعت هذه الدول الصمود أمام الدولة العثمانــية ، حيــث ســاق الإنكلــيز جيوشاً من الهند وغيرها من المســتعمرات ، وســاقت فرنسا جيوشاً من المغاربة والجزائريين وإفريقــيا الســوداء ، وهذه الجيوش هي من كان يتــلقى الصدمة الأولى . [٢] ونجد أن الدولة العباسية اتخذت هذا النوع من الجيوش وكــانوا من الأتراك حيث قام بشرائهم الخليفة المعتصم وكانوا أحد أهم أسباب تدهور الدولة العباسية . إضافة إلى ظهورهم في الدولة الأيوبــية فــي مصــر حتى أنهم ورثوا حكم البلاد مكونين الدولة المملوكية . [٣]

وإذا كــان المستشــرقون قد نقدوا هذا النظام ، ورقت قلوبهم الحــاقدة علــى الإسلام ، لحال الأسر الحزينة ، فهذا لا يرتقي ولا يقارن بما فعله الأسبان المسيحيون بمسلمين الأندلس الذين خيروهم بيــن التنصــير أو المــوت ، وما فعلته محاكم التفتيش بالمسلمين وأسرهم ، وبما فعلته بلاد المستشرقين أنفسهم بالزنوج الأفارقة في

---

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٧٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٧٦٩ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج٢ ، بيروت : دار إحياء التراث العربي ط٦ ، ١٩٦٤م ، ص٧٨.

عهـــد الاسترقاق المروع ، أو ما فعلوه بالبلاد التي استعمروها مثل مصـــر والجزائر والشام والمغرب وغيرها ، وإذا كانت الإنكشارية قـــد صـــوُرّوا بشكلٍ سيئ في مؤلفات المستشرقين ، فإن هؤلاء قد نسوا تاريخ أوروبا المليء بالخزايا، ونسوا أيضاً أن هذا النظام كان مقبولاً في تلك الفترة .

وخلاصـــة الحديث إذا كانت الإنكشارية قد أسائت إلى الدولة العثمانـــية، فلـــيس ذلك ذنب الفكرة في حد ذاتها بل هو ذنب الدولة التـــي لـــم تعرف كيف تقبض عليهم قبضة حازمة وأن تبعث فيهم روح الجهـــاد ، فعـــندما نجحت في ذلك إستقامت لها الأمور ، ولو اقـــتدى الســـلاطين بسليم الأول الذي فتك برؤوس الإنكشارية بعد تمردهم في إيران ، لبقي الإنكشارية أفضل الجيوش .

وإذا كانـــت الإنكشـــارية قـــد أخطأت فهذا لا ينفي دورها المهم ، ويكفـــي الدولة العثمانية فخراً أنها استطاعت أن تصهر الجميع في بوتقـــة إســـلامية ثم تطلقهم في الميادين الحربية تحت راية الإسلام محققين أعظم الانتصارات والفتوحات الإسلامية .

الفصل الثاني

تسلط وجبروت الإنكشارية

المبحث الأول :

أسباب تمرد الإنكشارية .

المبحث الثاني :

نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني .

المبحث الثالث :

تدخلهم في مسائل السياسة العليا .

المبحث الأول

أسباب تمرد الإنكشارية

من الطبيعي أن يتساءل الفرد عن سر تحول الإنكشارية ، من جـيش قـاد الدولة العثمانية إلى النصر وترجيح كفتها في المعارك التي خاضوها، إلى جيش مستهتر ، كثير التمرد والعصيان ، يُهزم فـي أغلب المعارك التي يخوضها ، ويتحول إلى أداة تخريب وفتك بمـن يقـف فـي طريقهم ، إذ أنهم استبدلوا بالسلاطين والوزراء وعزلوا وقتلوا وولوا من أرادوا، وعاثوا في الأقاليم فساداً ، وظلموا الأهالـي ، فصـاروا حكومـة داخل حكومة ، والدولة العثمانية لا تستطيع أن تأتي بفعل ضدهم ، أو تقف أمام تنفيذ رغباتهم ، وكانت كلمـا تسـاهلت معهـم زادوا في غيهم حتى وصل الأمر إلى أن يخشاهم كبار رجال الدولة ويتملّقوا لهم ، وينفذوا أوامرهم خوفاً من بطشهم . وعلى هذا لابد من معرفة الأسباب التي جعلت الإنكشارية في مستوى القوة والتمرد على سياسة الدولة .

لقـد كانـت الإنكشارية كالأسود المدججة بالسلاح في ساحة المعـركة يندفعون في اتجاه العدو ، خاضوا المعارك الشهيرة مثل فتح القسطنطينية(*) وغيرها من المعارك بمنتهى القوة والشجاعة ،

(*) لقـد فتح محمد الثاني القسطنطينية عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م ، وسميت إستانبول ، بعد محاولات من المسـلمين أولهـا في عهد معاوية بن أبي سفيان ٤٩ هـ / ٦٦٨م ، والتي تركت ذكرى عميقة حيث دفـن الصحابي أبو أيوب الأنصاري عند أسوارها من الخارج ، وعندما اكتشف العثمانيون قبره أثناء الفـتح ، بنوا فوقه جامعاً ، وصار السلاطين العثمانيون يتولون مناصبهم في هذا الجامع وهم يحملون سيف عثمان الأول أما المحاولة الثانية فكانت أيام سليمان بن عبدالملك ، حيث قاد أخوه مـسلمة =

ولكـــن مـــع مـــرور الزمن بدأ الضعف والوهن يغزو صفوفهم [1] وتحـــول الســـلاح الرهيـــب الذي خاضت به الدولة العثمانية أشد معاركهـــا وأقـــوى فـــتوحاتها ، إلى سلاح موجه ضد سلطة الدولة العثمانـــية نفسها ، مما أصاب الدولة العثمانية بالضعف ، وتوقفت فـــتوحاتها ، ولكن من المؤكد أن هذا التحول لم يكن تلقائياً ، وإنما كان نتيجة لعوامل سياسية واقتصادية واجتماعية ونفسية.

فالعـــامل السياسي كان من أهم الأسباب وأوضحها ومن ذلك تقاعس السلاطين عن الخروج للحرب على رأس الجيش . وقد أكد ذلـــك معظـــم المؤرخين حيث أشاروا إلى أن بوادر الضعف بدأت تظهـــر بعـــد وفاة السلطان سليمان القانوني الذي أبطل قاعدة مهمة وهـــي عدم خروج السلطان على رأس الجيش ، وصارت الجيوش تخـــرج تحـــت إمرة قائدها العام ، وهو من الإنكشارية ، مما جعل الإنكشـــارية في معظم الأحيان ترفض الخروج للحرب إلا إذا كانوا تحـــت إمرة السلطان. وعندما تقاعس أغلب السلاطين بعد سليمان عن الخروج للحرب ، وفضلوا البقاء بين جدران قصورهم ، وسط الـــبذخ والرفاهية ، على تكبد مشاق السفر والجهاد ، كل ذلك أدى إلى رفض الإنكشارية الاستمرار في الحرب في كثير من الأحيان ، وأدى كذلـــك مع مرور الزمن إلى فقدان السلطان هيبتهُ في نفوس الإنكشارية . كما أدى هذا الأمر إلى تقوية مركز القائد العام للجيش

= الحملة سنة ٩٧هـ / ٧١٥م ، ثم محاولات بايزيد يلدوم ومراد الثاني . إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج٢،ص٥١٠ .

[1] علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ، الطبعة الثالثة ، المكتب الإسلامي ، ١٤١٥هـ ، ١٩٩٤م ، ص١٠٦ .

فأصـــبح له شأن عظيم ، ورأى نفسه في مركز يجب أن لا يرُدّ له طلب مما أدى إلى تضارب السلطة بين السلطان والقائد العام ، مما عقد الأمور ، وساعد على فساد الإنكشارية.[١]

وقـــد قـــاد هـــذا الأمر إلى نقطة مهمة وهي انخفاض الروح المعـــنوية فـــي نفوس الإنكشارية ، وإرتخاء الروح القتالية لديهم ، وذلـــك لأن حضور السلطان الحرب له أثره على شحذ القوة القتالية عند الجيش ورفع الروح المعنوية لدى الجند . [٢]

لقد أعقب السلطان سليمان خلفاء تراخوا عن الخروج للحرب وأضاعوا البلاد الواسعة التي فتحها أجدادهم وحافظوا عليها بدمائهم وحسن إدارتهم . [٣]

ومـــن الناحـــية السياســـية أيضاً عدم وجود قاعدة ثابتة لتولية الســـلاطين عـــرش الدولة وعدم وجود نصوص شرعية أو قانون يعـــتمدون عليه في تولية الحكم . فقد كانوا آخذين بمبدأ الاستخلاف ولـــيس الشورى قال تعالى : **(وأمـــرهم شورى بينهم)** [*] والخلافة ممكـــن تأتـــي فـــي الأخوة أو الأبناء ، الأمر الذي أوجد كثير من الخلافـــات الداخلـــية نظراً لكثرة عدد أبناء السلطان الواحد، فكان السلطان يختار من سيخلفه على العرش حتى لو كان الصغير دون

---

[١] محمـــد فـــريد المحامـــي : مصدر سابق ، ص٢٥٢ . محمود شاكر : التاريخ الإسلامي : العهد العثمانـــي ، الطبعة الثانية ، القاهرة : المكتب الإسلامي ، ١٤١١هـــ ، ج ٨ ، ص١١٣ ، إسماعيل أحمد ياغي : مرجع سابق ، ص٩٤ .

[٢] مرجع سابق ، ص٩٤ .

[٣] عمر الإسكندري – سليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، مدبولي ، ١٤١٦هـــ – ١٩٩٦م ، ص٣٥ ، ٣٦ .

[*] سورة الشورى ، آية ٣٨ .

الكبـــير، وهذا ما أدى في كثير من الأحيان إلى منازعات داخلية ، هـــيأت للإنكشارية فرصة التدخل في تولية العرش . وكان الأبناء يتولون في العادة أماكن متفرقة من البلاد ، كتدريب لهم على الحياة السياســـية ، وفـــي بعض الأحيان كان يختلف الأخوة ويحدث بينهم صـــراع علـــى من سيتولى العرش [١] وفي عصر الضعف كانت الإنكشـــارية تـــتدّخل لتضع من تريد حتى تبقى لها اليد الطولى في السلطة.

ونتـــيجة طبيعـــية لعدم وجود قاعدة ثابتة لتولي العرش ، فقد صـــار هـــناك فجوة واسعة بين السلاطين وأبنائهم ، أو بين الأخوة بعضهم ببعض، مما أفسح المجال لتلاعب الإنكشارية بالتولية وعزل من أرادوا على حسب أهوائهم كما سنرى لاحقاً. [٢]

وكمـــا تلاعب الإنكشارية بتولية السلاطين وعزلهم ، تلاعبوا أيضـــاً بمناصب كبار رجال الدولة ، وأولهم الصدر الأعظم ، حيث تحكمـــوا في هذا المنصب كثيراً ، وكان يخضع لأهوائهم الشخصية فيعيـــنوا مـــن أرادوا حـــتى وصل بهم الأمر إلى قتل الوزراء أو الصدور العظام ، أو حتى السلاطين.[٣]

إضافة إلى ذلك ، أصبحت تولية المناصب في الدولة تخضع لعملـــية الرشـــوة ، فصارت المناصب ليس لمن يستحقها وإنما لمن

---

[١] ألبرت هوبر لبير : مرجع سابق ، ص٩٤، ٩٥ .

[٢] محمد أنيس : مرجع سابق ، ، ص٧٨ ، ٧٩ .

[٣] ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص٤٧ ، ٤٨ .

يدفع أكثر ، كما أن أغاوات الإنكشارية استخدموا الرشوة كوسيلة للوصول إلى المناصب العليا . [1]

ولتأثـــيرهم القوي على السلاطين في تولية العرش فقد اتبعوا وسيلة الإكثار من الطلبات الخاصة بهم ، مما يجعل السلطان الجديد يعمل على إرضائهم ، أو على الأقل إرضاء كبار قادتهم ، فيعطيهم المال والهبات يوم تنصيبه ، إضافة إلى امتيازات جديدة ، وقد أطلق على هذه العطايا "البخشيش " وصارت هذه العطايا تقليداً راسخاً لا يســـتطيع أي سلطان مهما أوتي من قوة أو عزيمة أن يتجاهلها وإلا تعرض للمهانة والتنكيل.

ثـــم ألغيـــت هذه العطايا منذ عام ١١٨٨هـــ/ ١٧٧٤م ، بعد تولـــي الســـلطان عبد الحميد الاول عرش الدولة العثمانية في عام ١١٨٧ هــــ/ ١٧٧٣م وكان السبب في الإلغاء سبباً قوياً ، وهو أن الدولـــة العثمانـــية كانت تعايش أزمة ماليه عصيبة بسبب ضخامة الإنفـــاق العسكري على القوات العثمانية إبان الحرب التي أشتعل فتـــيلها بيـــن الدولة العثمانية وبين روسيا ، وهي الحرب التي طال أمدها ست سنوات ، وتحطم فيها الجيش والأسطول العثمانيان.[2]

وعلـــى سبيل المثال إذا لم يستمع السلطان لرغباتهم ، يشعلوا الـــنار فـــي أي جزء من العاصمة حتى يخرج لهم السلطان لسماع رغباتهم، في هذا الوقت تكون النار قد أكلت جزء من العاصمة. [3]

---

[1] أحمد جودت : تحقيق عبد اللطيف محمد الحميد ، ص ١٩٥ .

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٩٤ ، ٤٩٥ .

[3] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص١٥٦ .

ونجد أنه في فترة حروب الدولة العثمانية كانت هذه الأعطيات مرهقة بالنسبة للدولة والخزنية ، فكانت تضطر إلى دفعها وإلا فإن الإنكشارية ستقوم بثورة وتمرد ، وهكذا تسببت في تعطيل سياسة الدولة العثمانية كثيراً .

ومما لا شك فيه أن هذه الأمور جميعاً نتج عنها زيادة امتيازاتهم وجعلهم يضعون أنفسهم مكان أهل الحل والربط ، وصاروا يتحكموا في السلاطين كما لو كانوا عرائس رقعة شطرنج . [١]

ويبدو أن نفوذهم هذا لم يأت من فراغ ، فقد أعطاهم السلاطين الهيبة والنفوذ والقوة حتى يكونوا مطيعين لهم حماة للدين الإسلامي والدولة العثمانية ، لكن الصورة انقلبت وأصبح السلاطين يحتاجون لمن يحميهم من الإنكشارية ، إضافة إلى أن العقلية العسكرية كانت قد سيطرت عليهم تماماً ، فنسوا وظيفتهم الأساسية وهي الحرب والجهاد . وكانوا إذا أنسوا من السلطان الضعف مارسوا الفساد . [٢] وهذا يرجع إلى أن الإنكشارية ظلت حريصة دائماً على صبغ تصرفاتها بصبغة الشرعية ، فكانوا دائماً يحافظون على علاقتهم مع العلماء وشيوخ الإسلام ، حتى وإن أصابها الضعف في بعض الأحيان .

---

[١] خليفة محمود : تاريخ الملوك الألبا ، د. ط ، د.ت ، د. م ، ص ١٧٨ . عبد الوهاب بكر : مرجع سابق ، ص٥٨ .

[٢] حسين كمال البغدادي القادري : الدر المصان في أيام دولة آل عثمان ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، محفوظة تحت رقم ٤٤١٦٧ ، ورقة ٥٥ .

وكان لزيادة نفوذ الإنكشارية أثر سلبي على الدولة ، حيث لم يكـن السـلاطين قادرين على القيام بأي حركة إصلاح دون جس نـبض هاتيـن القوتيـن أي الإنكشارية كقوة أولى وشيوخ الإسلام والعلمـاء مـع ضمان مساعداتهم أو على الأقل عدم اعتراضها ، فكـانوا المتحكميـن فـي الأوضاع ، بعد أن كانت الإنكشارية في الماضـي هـي عمـاد الدولة وقوتها، وصارت مع مرور الوقت مصـدراً للفساد والضعف والصراع والتنافس ، مما أدى إلى توقف فـتوحات الدولـة العثمانية ، ووجدت الدولة نفسها عارية دون أي غطاء للحماية سواء من الداخل أو الخارج . (١)

ومما يـدل علـى ضـعف شخصية السلطان أمام تصرف الإنكشـارية أنـه في حالة فتح الجيش لمدينة تكون هناك في العادة اتفاقية أو هدنة تتضمن شروط التسليم ، وكان من ضمنها المحافظة علـى أرواح أهالي المدينة وأموالهم وأعراضهم ، ولكن الإنكشارية لا تعـبأ بشـروط التسـليم ، وتمارس أعمال السلب والنهب وقتل الأهالي ، إضافة إلى هتك الأعراض وإحراق المنازل والحوانيت . أمـا داخـل إسـتانبول فلـم تكن الحالة أفضل، فقد كانت حركات عصـيانهم تحمل في طياتها معنى التحدي للسلطان والدولة نفسها ، فكثـيراً مـا تعرضوا لموكب السلطان ومنعه من الوصول للقصر السـلطاني ، مطالبين بمزيد من العطايا والامتيازات ، وكانت هذه وسائل بعيدة كل البعد عن الانضباط العسكري . (٢)

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٢ .

(٢) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٩٦ .

وفـــي نفـــس الوقت زاد تسلطهم على أهالي البلاد التي تحت الحكم العثماني ، فقد أمتد طغيانهم إلى الأهالي الآمنين في المدن ، وزادوا فـــي نهب وسلب منازلهم ، وتعدوا على أرواح الناس دون وجه حق ، وإذا أرادوا نهب أحد أحياء المدينة ، عمدوا إلى إشعال الـــنار فيه ، فإذا ما ارتفعت ألسنة اللهب ، وانشغل الأهالي بإطفاء الـــنار ، ســـارعوا إلـــى الأحـــياء الأخرى وقاموا بـــنهب منازلها وحوانيتها (*) ، وانتهكوا حرمات البيوت . وقد وصل بهم الأمر إلى أنهم اعتقدوا أن كل شيء مباحاً لهم في التعدي على الصدر الأعظم ومهاجمة قصره ، إذا تباطأ في تنفيذ رغباتهم . [١]

أمـــا موقفهـــم داخـــل ســـاحة المعركة ، فيكفي أن نذكر أن الإنكشارية كانوا يُكافئون بقدر عدد رؤوس القتلى ، فصار هم جندي الإنكشـــارية في حالة الانتصار ، جمع أكبر عدد من رؤوس القتلى الأعداء ، وسرعة تسليمها للقائد العام في خيمتهِ من أجل الحصول على المكافأة . [٢] وهذا يكشف بأن عهد الجهاد والدفاع عن الإسلام فـــي الفترة المتأخرة لم يكن هو الصفة الغالبة على معنويات الجند الإنكشاري ، فحّل محّل ذلك الأطماع الشخصية والأهداف المادية ، مما حقق لأعداء الدولة العثمانية النصر في عدة جبهات .

(*) وقـــد ركـــزت الإنكشارية في هجماتها على محلات اليهود ، ونهب بضائعهم وربما ذلك يعود إلى كـــره الإنكشارية لليهود ، خاصة وأن لليهود دور كبير في فساد العملة وإنخفاض قيمتها : عبد العزيز الشناوي ، مرجع سابق ، ج١ ، ٤٩٦.

(١) مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٩٦ ، ٤٩٧ . محمد أنيس : مرجع سابق ، ص٢١٤ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي ، حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٨ .

أضف إلى أن زيادة عدد الإنكشارية وانتقال هذه الأعداد إلى إسـتانبول زاد مـن تمرّدهم بحيث أصبح رؤسائهم يحققون كل ما يشاءون من السلاطين لا سيما إذا كان السلطان على قدر من ضعف الشخصية.

وبهـذا التحول الخطير أصبحت الإنكشارية هيئة عسكرية وراثية ، وليسـت هيـئة جـنودها مختاريـن على أساس المهارة والمقدرة الحـربية . (١) (*)

ومـع مرور الأيام ازدادت أعداد الإنكشارية حتى صار أبناء الجنود الإنكشارية يدخلون فيها دون اعتبار للقدرة العسكرية وبحلول عهـد مراد الثالث الذي يعتبر عهده نقطة تحول خطيرة في الأسس التـي قامت عليها الإنكشارية ، فقد انضم كثير من الأهالي وعامة الـناس إلـى الجيش الإنكشارية (٢) بموافقة من السلطان(**) مراد الثالث ، على الرغم من رفض فرهاد باشا آغا الإنكشارية الموافقة علـى انضـمام أولئك الذين ليس لهم دراية وخبرة عسكرية إلا أن

---

(١) بيري أندرسون : مرجع سابق، ص٣١ . محمد أنيس : مرجع سابق ، ص٧٩ .

(*) لقـد ذكـر بـيري أندرسـون أن الإنكشارية أنتزعت من سليم الثاني حق إلحاق أبنائهم في أفواج الإنكشارية على الرغم أنه في ذلك الوقت لم يسمح لهم بزواج وإنجاب الأبناء ، وهذا يدل على أن هذه المعلومـة دسيسة أدخلت لتشويه فترة سليم الثاني ، حيث كان جميع جنود الإنكشارية في ذلك الوقت أطفال دوشرمة ، أي لم يتزوجوا ولم ينجبوا الأبناء.

(٢) عبدالكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٠ .

(**) حيـث حـدث ذات مرة أن قام فئة بألعاب بهلوانية في حفل ختان الأمير محمد بن مراد الثالث ، أعجـب الـناس بمـا قدمـوه من فقرات حتى أن السلطان سألهم بعد نهاية الحفل عما يتمنون فطلبوا الانضـمام إلى الإنكشارية فوافق السلطان على ذلك وأصبحت هذه عادة جارية . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٠ .

السلطان وافق على انضمامهم وتم عزل فرهاد باشا من منصبه ، وعين بدلاً منه يوسف آغا الذي فتح الباب لكثيرين منه وخاصة اليهود ، الذين أحبوا الاختباء في صفوف الإنكشارية لزرع الفساد بين الجنود ، وهكذا صارت الإنكشارية مثل الجهاز الأجنبي داخل الدولة العثمانية يعمل على إفساد أمورها . (١)

وقد قصد هؤلاء بنسبتهم إلى الإنكشارية التنصل من التكليفات التي تقتضيها سياسة الدولة والوصول إلى حرية مطلقة في أعمالهم ، ولم يدركوا أن الوظيفة الأساسية للإنكشارية هي الخروج للجهاد عند اقتضاء الحاجة . وبالتالي لم يخرج هؤلاء للحرب إذا ما نودي للجهاد ، وإذا خرج منهم البعض لا يكون إلا عدداً بسيطاً ، ويتحججوا بأن البقية سيحضرون من الروم إيلي والأناضول ، والقانون كان يوجب أن يخرج مائة وعشرون تحت كل لواء ، ولكن عددهم لم يتجاوز الثلاثين وقد يصل إلى الستين . (٢)

إضافة إلى أولئك أنضم إليهم الأرمني والرومي والإفرنجي والذين اتصفوا باللصوصية وعدم الحياء ، ومتهمون بعداوة الدين ، فقد أفسدوا كل شيء ، فهم بمثابة جواسيس على الدولة . وأفعالهم تضر بالدولة رويداً رويداً ، فروسيا في مقدمة الدول التي سعت

---

(١) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : لواء الإنكشارية من تشكيلات الدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، أنقرة : نشر مجمع التاريخ التركي ، ١٩٨٤ م ، ص٤٨٢ . سليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص١٩-٢٠ .

(٢) أحمد جودت : مصدر سابق ، ص١٨٢ .

لإضعاف هذه الفرقة بالذات.(*)[١]

كان لزيادة أعداد الإنكشارية أثره في عجز الخزينة عن القيام بـــنفقاتهم أيام السلم ، مما أدي إلى العصيان والفساد ، ووقوع الفتن بيـــنهم ، فصــــاروا علـــة لحصول التنافر ، والشقاق ، وباعثاً على ظهـــور المفاســـد والمكـــائد العديـــده حتى أيام السلم .[٢] ففي عهد الســـلطان مـــراد الرابع ، ضعفت الإنكشارية والدوشرمة على حدٍ سواء نتيجة لزيادة أعدادها بشكل كبير ، ونتيجة للإمتيازات التقليدية والإعفــــاء مـــن الضرائب ، زاد الإقبال على الإنخراط في صفوف الإنكشـــارية ، خاصــــة من السكان المسلمين ، ونتيجة لاضطراب الأمـــن الداخلي في فترة تمردات فرقة الجلالية ، انتشرت الحاميات الإنكشـــارية في جميع أنحاء الدولة لأغراض حفظ الأمن الداخلي ، وعلـــى ذلك فمنذ أواسط القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي،ونتيجة لإشغالهم بالحرف والزراعة،فقدوا قيمتهم العسكرية وصارت مهمتهم الأساسية القيام بالتمردات في العاصمة .[٣]

وهــــذا مـــا جعل السلاطين يتبعون سياسة خفض أعدادهم ، وإضـــعافهم نظراً للسطوة التي بلغوها ، والتي كانت كثيراً ما تهدد

(*) كانت روسيا تهدف إلى الوصول بجيوشها صوب البحار الدافئة ، ولكن الجيش العثماني كان يقف لهـــا بالمرصــــاد ، فكانت تحاول دائماً وأبداً العمل على إضعاف هذا الجيش ، حتى يتسنى لها الزحف دخـــول الغرب والجنوب الغربي، وخير دليل على ذلك ، عندما قام قيصر روسيا بترو الأول بإرسال أول ســـفير لروســـيا في ٔستانبول عام ١٧٠٠م ، وأعطى له تعليمات بأن يستمر في مراقبة الجيش والعمل على إضعافه .

[١] سليمان قوجه باشي : مرجع سابق ، ص٢٠ .

[٢] أحمد جودت : ورقه ١١٠

[٣] بيري أندرسون : مرجع سابق ، ص٣١ .

مصير السلاطين أنفسهم ، وقد اعتمد السلاطين على ما يمكن تعبئته مـن الرجال المتطوعين ، وعلى الذين يتطوعون من الأقاليم التي تحـت حكمهم ، ومن الجند غير النظامين الذين لا يتقاضون أجراً إلا عـن الفترة التي يستخدمون خلالها في القتال، وذلك للتعويض عـن النقص المتُعمد في أعداد الإنكشارية ، ورغم أن هذه السياسة أدت إلى إستقرار داخلي في الدولة العثمانية وإلى التقليل في نفقات الجـيش ، إلا أنها كانت سيئة بالنسبة إلى حروب الدولة ، وخاصة في حربها التي خاضتها بعد ذلك بوقت ضد روسيا عام ١٢٩٤هـ-١٢٩٥هـ/ ١٨٧٧م -١٨٧٨م . إذ حرمـت من أعظم جيوشها، وأشدها بطشاً ، وأقواها ، وأمهرها في القتال . [١]

وكانـت روسيا من ألد أعداء الدولة العثمانية ، وسعت جاهدة لإضعاف الدولة العثمانية ومن ثم سقوطها .

ونتـيجة لاختلال الرقابة عليهم ، فقد أنضم للإنكشارية كثير من المسلمين الأمراء للتمتع بامتيازاتهم ، وهؤلاء صاروا يتدخلون فـي السـلطة بعقـول عسـكرية واهية ، فخربوا سياسة الدولة ، وأصـبحوا بحاجـة إلى جيش للتخلص منهم . [٢] كما أخذا أعداد المتزوجين تزداد في صفوف الإنكشارية الأمر الذي أدى إلى إقامة هؤلاء في منازلهم بدلاً من الثكنات العسكرية . [٣]

وبحلول القرن الثاني عشر الهجري الثامن عـشر الـميلادي

---

[١] ياسين سويد : مرجع سابق ، ج١ ، ص٩٢ .

[٢] علي سلطان : مرجع سابق ، ص٢٥ .

[٣] إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٤٧١ .

سمح لعدد كبير من المتطوعين بتسجيل أسمائهم فقط ليس بقصد الحصول على عمل أو أجر، ولكن كأصدقاء مخلصين ، سعوا لنيل شرف حمل لقب إنكشاري ، وفي هذه الفترة تساوى المسلم والمسيحي في هذا الشأن ، وكان هذا يعتبر نقطة تحول جديدة خطيرة في الأسس التي قامت عليها الإنكشارية . [1] وفي محاولة لخفض أعدادهم البالغ ٧٠ ألف إلى النصف أصدر فرمان يقضي بطرد الدخلاء على الإنكشارية . [2]

لقد اختصرت الإنكشارية منذ نشأتها على الأطفال الأيتام المسيحين ولم يدخلها الأطفال المسلمون ، ودخول المسلمين بها هذا معناه فسادها ، فقد يتعالى المسلمون الذين لديهم نسب على جنود الإنكشارية الآخرين ، فيحدث خلافات داخلية مما ينتج خلخلة في النظام العام للإنكشارية .

كما أسهم إهمال الدوشرمة في فساد الإنكشارية وتمردّهم بشكل كبير ، فقد أهمل السلاطين هذا الجهاز المهم بالتدريج ، وقد أبطلت في حوالي القرن الحادي عشر الهجري منتصف القرن السابع عشر الميلادي، وبإبطالهُ نضب المورد الرئيسي الذي كان يجمع الأطفال المشردين من بلاد البلقان ، والذين كانوا يخضعوا لتدريب إسلامي ليصبحوا جنود إنكشارية أو موظفين إداريين . [3]

---

[1] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٥٢-٥٣ .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء : دفاتر مهمة . دفتر ١١١ ص ٦١٧ .

[3] عبد الكريم رافق : العرب والعثمانيون ١٥١٦م – ١٩١٦م ، الطبعة الأولى ، دمشق ، ١٩٧٤م ، ص١٢٠ .

وهــذا الأمــر يعني انضمام أفراد للإنكشارية أكبر من السن المطلــوب، فلا يخضعوا للتدريبات العسكرية اللازمة ، مما يجعل الفشل والفساد والتمرد مقروناً بأدائهم .

وإضــافة على هذا البلاء سمحت الإنكشارية بدخول أصحاب الحرف والصناعة في صفوف الإنكشارية بالرشوة ، (1) ثم سمحت لهم بممارسة حرفهم أو الاشتغال بالتجارة (*) في أوقات السلم ، ولم يسمح لهم بحمل أسلحتهم في أوقات السلم خوفاً من قيامهم بحركات عصيان.(2) ويعتبر مثل هذا العمل كسراً للأسس التي تّكون الجيش الإنكشاري ، مما أسهم في هبوط المستوى الحربي والقتالي للجيش الإنكشاري وكذلك ضعف روح الجهاد ضد أعداء الأمة الإسلامية .

وقــد اعــتمد أصــحاب الحــرف فــي دخولهم إلى صفوف الإنكشــارية علــى واقعة حدثت في عهد السلطان سليمان القانوني عــندما أمــر الصدر الأعظم وقائد الجيش بدخول بعض العناصر الأجنبية عن الإنكشارية إليها، لكن نجد أن العذر في ذلك يرجع إلى أن الفتوحات الإسلامية في عهد سليمان القانوني كانت على أشدها ، لذلك احتاج إلى عدد كبير من الرجال الأشداء ، فأدخل حوالي أثنى عشــر ألفاً ، ثم ألغى ذلك القانون لاحقاً ، ودخول هذه العناصر إلى الإنــكشارية دون تــدريــبهم على أكمل وجه ، ومع الإنــكشارية

---

(1) دائــرة المعــارف الإسلامية بالتركية : مادة يني تشري ، د. ط ، ١٩٨٦م ، إستانبول ، ص٤٦ .
إسماعيل حقي أوزون مرجع سابق ، ص٤٧١ .

(*) أدى هذا الأمر إلى نتائج مهمة سيتم ذكرها في الأسباب الاقتصادية .

(2) محمد سهيل طقوش ، مرجع سابق ، ص٢٥١ .

القدامى ، آثار كثير من البلبلة والشغب والأعمال القبيحة .[1]

كما دخل في الإنكشارية الفلاحون الذين يجهلون أمور الحرب والانـــتظام في صفوف الجيش ، وكانت النتيجة أنه في حالة سفرهم إلـــى دار الحرب يعيثون فساداً ، ويهتكون الأعراض في كل مكان مـــروا به ، إضافة إلى أنهم لا يثبتون في أرض المعركة ، ويفرون مـــع ســـماع إطـــلاق المدافع ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد بل يقومون بنهب موجودات المعسكر ويولون هرباً .[2]

ففي أثناء الحروب بلغت أعداد الإنكشارية ٥٤,٢٢٢ رجلاً . ولـــم يـــتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن عدداً كبيراً منهم أضيفت أســـمائهم إلـــى اللائحـــة بهـــدف الحصول على الرواتب ، وإذا لم يتقاضـــوا شيئاً ، اكتفوا بالإعفاء من الضرائب ، وفي المقابل كانوا علـــى اســـتعداد تام للقيام بأي ثورات وعصيان ضد السلطان، ومع مـــرور الأيام أزدادت أعطياتهم[*] تضاؤلاً فأضطروا إلى الإعتماد على رواتبهم. [3]

ويـــبدو واضحاً أن هذا الخليط من الجنود غير المتجانس هم الذيـــن شـــوهوا صـــورة الإنكشارية وأدخلوا المفاهيم الفاسدة على

---

[1] إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص٤٨٢ .

[2] أحمد جودت : مصدر سابق ، ص١٨٢ .

[*] ذكـــر أيضاً أنهم التحقوا بخدمة السفراء الأجانب في إستانبول ، لكن يبدو أن هذا من باب تشويه تاريخ الإنكشارية وأنه لم يثبت قطعياً هذا الأمر ، أنظر كارل بروكلمان : مرجع سابق ، ص٤٦٧ .

[3] مرجع سابق ، ص٤٦٦.

أذهـــانهم حتى أصبحوا عنصر فساد (*)، فهم لم ينتموا للجيل الأول ولـــم يتلقوا التدريبات اللازمة ، ولم يفهموا معنى أن يكون الرجل جندي إنكشاري .

وبـــتزايد حروب الدولة العثمانية تزايد جمع الجنود من أهالي القـــرى ولإرســـالهم إلى أدرنه لتأدية التدريبات العسكرية اللازمة حسب أصول الإنكشارية .

وبالتالـــي تصـــرف لهؤلاء رواتب مقدماً . (١) مما أدى إلى تكليف خزانة الدولة فوق طاقتها ، إضافة إلى مصروفات إعداد هذه الجيوش لخوض المعركة .

وجـــاءت زيـــادة عدد الإنكشارية نتيجة لدخول الجنود الذين جمعـــوا مـــن القـــرى إضافة إلى الذين يسجلون أسمائهم في دفاتر الأحـــوال الخاصـــة بالعسكرية بإعطاء الرشوة للموظف المسؤول ليقـــيدهم بلقـــب حارس أو محافظ على الفرقة ، ويبدو أن مرتبات هـــؤلاء كانت تتراوح ما بين أثني عشر وخمسة عشر أقجه ، وقد تصـــل فـــي بعض الأحيان إلى عشرين أقجة ، وهذا يعني أن هذا المرتـــب الـــزائد يـــنعكس علـــى المعاش الذي يحصلون عليه بعد تقاعدهم، فكلما زاد المرتب ، زاد التقاعد .(٢)

(*) وقد أشارت إلى هذا الفساد ودخول الكثير إلى صفوف الإنكشارية كثير من الكتب التي أرخت لتلك الفـــترة، مـــن أمـــثلة ذلك كتاب قوانين الإنكشارية وكتاب " الكتاب المستتاب " لمصطفى أفندي وهو مصدر موثق . أنظر إسماعيل حقي أوزن جارشيل : مرجع سابق ، ص٤٧٧ .

(١) أرشيف رئاسة الوزراء أستانبول وثيقة رقم ٨٢٦٥ خط همايوني H.H .

(٢) محمـــد عـــبد اللطـــيف الـــبحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٥١ . إسماعيل حقي أوزون جاريشل : مرجع سابق ، ص٤٨٠ .

وكانـــــت هـــذه الـــزيادة فـــي العـــدد تخالف القانون القديم للإنكشـــارية ، فقـــد كـــان عدد الإنكشارية قديماً أثنى عشر ألف ، جمـــيعهم قادريـــن على الحرب، ثم أصبح سبعة آلاف جندي منهم ضـــباط متقاعدين ، مع وجود ما يقرب ألف جريح في المعارك ، وكـــان أغلب المسجلين أسماءهم بالرشوة لا يخرجون للجهاد على الـــرغم من قدرتهم على ذلك ، وقد استحدثت الإنكشارية جنود جدد أطلق عليهم حرّاس الفرق والوحدات وكان هؤلاء يزيد عددهم عن ألف شخص .(*) (١)

صـــار عـــدد الإنكشارية يزيد عن مئة وخمسة وثلاثين ألف جندي ، وهذا العدد كان ينقص بشكل غريب في حالة الحرب ، فقد كـــان مائة وعشرين ألفاً منهم مسجل في دفتر الأحوال العسكرية ، قادرين على الخروج للجهاد ، وحتى هذا العدد كان ينقص من كثرة الالتماســـات التي يقدمونها للسلطان حتى لا يخرجوا للحرب ، أما باقي العدد فكان يسجل نفسه متقاعد ، للحصول على الراتب فقط أو حارس في الوحدات أو القلاع . (٢) وما يتبقى من الـــعشرين ألفاً ، لا يصـــمدون في ساحة المعركة ، وتحل بهم الهزيمة أو يفروا من أمـــام العـــدو ، ولتغطية سوء تصرّفهم يقومون بالثورات أو نـــشر

(*) وقـــد سخر المؤرخ الذي نقل هذه المعلومة وهو مصطفى أفندي حيث وضع كتاب عن فساد نظام الإنكشارية .

حيـــث قال " إن الإنكشارية في الماضي لم يكن بها هذا اللفظ وهو حارس الوحدة أو الفرقة ، أما الآن فـــيوجد مـــا يقرب من ألف شخص في لواء الإنكشارية يعرفون بهذا الاسم ، ولست أعلم أي شيء يحرسون هؤلاء الجنود ، هل يحرسون الحجارة والحوائط ؟

(١) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص٤٨٠ .

(٢) مرجع سابق ، ص٤٨١ .

الإشـــاعات بيـــن أفراد العامة ، مرددين أن القادة باعوهم للأعداء الكفار . [١]

وأصـــبح هناك معاشات لأشخاص لا وظيفة لهم إلا الدعاء ، وهـــذه الوظـــيفة تباع وتشترى ، ووظيفة الدعاء أطلقوا عليها اسم وظـــيفة الأســـامي، وإذا حصـــل أحد جنود الإنكشارية على سبعة أقجايـــات مـــن وظيفة الأسامي ، يرى نفسه أكثر راحة من وزراء الدولـــة . [٢] وكان العشر منهم في الوجاق ، والباقي أتباع للكبراء من البلاط والعلماء[٣]

ولـــم يقتصر أمر ازدياد عدد الإنكشارية على إستانبول فقط ، بل تعداه إلى الأقاليم ، فإذا أخذنا دمشق وحلب ، على سبيل المثال ، نجـــد أن الإنكشارية عانت من نفس أسباب الفساد ، مما ساعد على انحطاط مستواها وأداءها بشكل كبير ، وقد زادت إنكشارية دمشق وحلب بممارسة ابتزاز الأموال من الأهالي بسبب قدرتهم على فعل ذلك . [٤]

وعلى الرغم من ذلك ، فإن جنود الإنكشارية في وقت الحرب كانوا يمثلون درعاً قوياً كالقلعة الحصينة أمام السلطان حتى لا يصل الأعـــداء إلـــيه ، وذلـــك لأن ارتباطهم بالسلطان كان أقوى ارتباط لـــــديهم ، حـــتى أنهم كانوا بمثابة أذرع للسلطان، لأنهم اعتبروا

---

[١] ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص٤٨ .

[٢] أحمد جودت : مصدر سابق ، ص١٩٥ .

[٣] أحمد جودت : تاريخ جودت ورقة ١٠٨ .

[٤] عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٤٢ .

السلطان واحداً منهم ، فقد نظروا إليه على أنه قائد الجيش ، وأبوهم فـــي نفـــس الوقت ، وكان بعض أفراد الإنكشارية يتعلمون بعض التعالـــيم العســـكرية الخاصة بالأمن حتى يكونان بمثابة الحراس الخاصين بالسلطان في القصر ، هذه الروح التي تربى عليها أفراد الإنكشارية جعلتهم أشخاص يخاف الناس منهم طوال الوقت . (١)

وينبغـــي لـــنا أن لا نغفـــل نقطة مهمة في مسألة إزدياد عدد الإنكشارية، فإن هذا قد كلف الدولة مبالغ طائلة من الأموال لتسليم هؤلاء رواتبهم على أعمال حربية لا يقومون بها .

وهكـــذا يتضح لنا أن الإنكشارية لعبت دوراً مهماً في تاريخ ومصـــير الدولة العثمانية ، لأنهم صاروا مسؤولين عن نقطتين في غايـــة الأهمـــية وهما : تحديد مسار الفتوحات ومدى استمرارها ، وتحديد من سيجلس على العرش العثماني من أسرة آل عثمان ، كما كانوا هم أصحاب الكلمة في الدولة في الفترة التي يكون فيها العرش العثماني خالياً أي بعد وفاة أحد السلاطين وحتى مجيء غيره . (٢) وكثـــيراً ما قاموا أثناء ذلك بفتن وتمردات داخل القصر السلطاني ، بسبب غياب السلطان القوي وسوء التدبير والظلم ساعد على إظهار تمردهم . (٣)

أمـــا بالنســـبة للأسباب الاقتصادية ، فقد تركزت في ضعف دخلهم المادي ، مما نتج عنه ثورات وتمردات ، إضافة إلى التعسف

---

(١) ألبرت هويرلبير : مرجع سابق ، ص٩٣ ، ٩٤ .

(٢) مرجع سابق ، ص٩٤ .

(٣) حسين كمال البغدادي القادري : ورقة ٢١ .

في جمع الضرائب ، وابتزاز أموال الأهالي .

لقد كانت الدولة العثمانية تعاني كثيراً من انخفاض قيمة العملة عـند شـراء أي سـلعة ، لأن العملة أساساً مغشوشة ، وذلك لأن مصـانع سك النقود تحت سيطرة اليهود ، فهم من يقوم بالغش في قـيمة العملـة الواحدة وبالتالي كانت تدفع الرواتب للإنكشارية من عملات يدخل في صبها بعض المعادن البخسة الثمن وخفيفة الوزن، وبالتالـي ترفضها الحوانيت ولا يتعامل معها التجار ، لذلك كانت الإنكشـارية تثور وتتجمهر حول القصر السلطاني مطالبين بنقودهم الصحيحة ، ولا يبرحوا مكانهم حتى يلقي لهم السلطان أكياس مليئة بالنقود في ساحة القصر الخارجية ، أو يذاع عليهم أن يذهبوا لإبدال نقودهـم بأخـرى صحيحة ، أو يحكموا بالموت على من ضربها، حتى ولو فعل ذلك طوعاً لأوامر صدرت له.[١] مما ساعد في زيادة تمرداتهم وزيادة الفجوة بين السلاطين والإنكشارية .

وبهذا يتضح أن اليهود ساعدوا على زيادة كميات الأعطيات التـي تصرف للإنكشارية لتحكمهم بقيمة العملة ، إذ وصلت أحياناً عملة البرقية – إحدى العملات المستخدمة – إلى خمسمئة أقجه أو ألـف أقجة من التـداول في الأسواق . [٢] وقد خفضوا قيمة العملة وزادوا سعر الأوقية [*] الفضية ، كما أنهم كانوا يرشون قائد الجيش

---

[١] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٠ . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٤٢ . للإستزادة الرجوع إلى سليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص١٥ ، ١٦ .

[٢] كامل باشا : مصدر سابق ، ص ٢٩٩ .

[*] الأوقية : هي وحدة من الموازين توزن بها العطور والبهارات ، والفضة والذهب وكانت تستخدم في ما مضى واستبدلت في الوقت الحالي بالجرام .

بأموال صحيحة حتى يوزع على الإنكشارية نقود ضعيفة القيمة.[1]

وبهـذا العمل ساعدوا على إشعال الفتنة عند الإنكشارية وهذا يعنـي أيضـاً أن الـيهود كانوا يتدخلون بشكل كبير في الاقتصاد العثمانـي ، خاصة سك العملة ، وذلك لتنفيذ مخططهم في إضعاف اقتصاد ومالية الدولة العثمانية ، إضافة إلى إضعاف أقوى فرقة في الجيش العثماني وهي الإنكشارية ، حتى يتسنى لليهود القضاء على الدولـة العثمانـية واقتسـام أراضيها وخاصة القدس . كذلك كان الـيهود أغنياء ، ولهم نفوذ في الحياة العثمانية واستطاعوا بغناهم هـذا أن يوجدوا علاقة وثيقة مع الإنكشارية على الرغم ممّا شاب هذه العلاقة من صراع ، إلا أن اليهود بقوا المسيطرين إلى حد كبير علـى إمـداد وتموين الإنكشارية بكافة مستلزماتها ، وكان القضاء علـى الإنكشارية عام ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م ضربة قوية للمصلحة اليهودية في إستانبول وغيرها من الولايات العربية . [2]

لقد أثر انخفاض العملة وتخبطها على سلوك الإنكشارية ، فقد كـان ديـنار الذهـب السلطاني وزنه درهم وقيراطان ، واحد منه يساوي ستين عثمانياً في أوروبا ، وفي مصر بثمانين عثمانياً ، وفي اليمـن بثلاثمائة عثماني ، واستمر في الارتفاع حتى وصل الدينار الذهـب بألفين من العثمانية ، وكانت علوفة الجندي الإنكشاري تبدأ مـن عشـرة عثامنة ، حتى تصل إلى مائة عثماني ، ومن له هذا

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص٤٥ . سليمان قوجسه باشي : مصدر سابق ص ١٦ .

[2] أحمد نوري النعيمي : اليهود والدولة العثمانية ، الطبعة الثانية ، بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، ص٢٠٥ .

المبلغ في كل يوم ، يأخذ في الشهر ثلاثة آلاف عثماني ؛ فيصرف له من الديوان عن الثلاثة آلاف عثمانية دينار واحد ونصف ، وكان هذا المبلغ لا يفي بثمن فنجان القهوة التي يشربها، إضافة إلى باقي حوائجه [١] وهذا يعني أن سعر العملة لا يكفي لشراء أي سلعة بالراتب الذي يتقاضاه جندي الإنكشارية . مما أدى إلى ثورة الإنكشارية وتمردهم على السلطان ، والمطالبة باستمرار بزيادة الأعطيات . وهذا جعل الإنكشارية أيضاً جنوداً فقراء ، وفي وقت السلم بلا مسؤولية وبلا عمل ، حتى أنهم بذلك مثلوا خطراً كبيراً على الدولة ، ففي أي وقت كانوا يقومون بنهب منازل الأهالي حتى أن السلطان في بعض الأحيان كان يطالب أغا الإنكشارية بإعادة هذه الأموال وإضرام النار فيها ، وقد وصل الأمر إلى نهب بيت الصدر الأعظم نفسه . [٢] فقد ظلموا الأهالي واستولوا على أموالهم وابتزوهم وذلك لضيق معاشهم دون وجه حق ، وكان السلاطين والولاة يتغافلون عن أعمالهم ، لعلمهم بقوة الإنكشارية ، حتى استبدوا بالرعية تماماً وأنهكوها . [٣]

ولكثرة عدد الإنكشارية جعل الخزينة تعجز عن القيام بنفقات الجند في أيام السلم ، أضف إلى ذلك فراغ خزينة الدولة في أحياناً كثيرة ، نظراً لكثرة حروب الدولة العثمانية ، وكذلك زيادة

---

[١] كامل باشا : مصدر سابق ، ج٣ ، ص٨١ . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٥ ، نقلاً عن قطب الدين المكي .

[٢] أرشيف توب قابي سراي : تصنيف فرمان لر . رقم E ٢٦/٩٢٨٧ ، ألبرت هوبولبير : مرجع سابق ، ص٩٣ .

[٣] عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٥ .

مصـــروفات بعض السلاطين مما يؤدي إلى تأخير صرف رواتب الجند ، فيزيد ذلك من تمرد الإنكشارية وعصيانهم ، مما دفع بالدولة العثمانـــية إلى زيادة الرسوم الأميرية على الأهالي ، كما أدى فراغ الخزيـــنة إلى وقوع كثير من الظلم والجور والاعتداء على الأهالي فكان ذلك سبباً في كراهيتهم للدولة العثمانية وجيشها . [1]

ولكــثرة مــا حملوا الخزينة فوق طاقتها كان السلطان يخرج مرتـــباتهم من خزينته الخاصة ، أو من بيت مال المسلمين ، وهذه تعتــبر خــيانة لقانون الخلافة ولبيت مال المسلمين [2] كما أنهم في بعض الأحيان كانوا يصرفون لهم مواجب إضافية بسبب حراستهم للقلاع في بعض المناطق. [3]

وكانـــت أعداد الإنكشارية المسجلة في الدفاتر كثيرة ، أغلبهم متقاعدين ، أو خدم وأتباع لا يخرجون للحرب أصلاً ، حتى أنهم لا يصـــلحوا للقيام بأعمال الحفارة في الشوارع والطرقات ، ونتيجة لهـــذه الأعـــداد كانت الدولة تعجز عن صرف رواتبهم [4] وبالتالي تقـــوم بفرض ضرائب جديدة، على الأهالي المثقلين بالديون ، ويتم جمعهـــا بتعســـف وشدة من قبل جندي الإنكشارية ، الذي صار مع

---

[1] أحمد جودت : مصدر سابق ، ص١٨٦ ، ١٨٧ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٠ . حسين كمال البغدادي القادري . ورقة ٢١ .

[2] إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص٤٨٠ ساطع الحصري : مرجع سابق ، ص ٤٧،٤٨ .

[3] أرشيف توب قابي سراي أستانبول : E ٩٢٩٦ /٢٩ فرمان لر ، E ١٨٨٧ ، E ٩٢٨٤ /٢ .

[4] أحمد جودت : مصدر سابق ، ص١٨١ .

مرور الزمن مجرد رجل يجوب الشوارع لجمع الأموال ، وكان هذا أبلغ تشويه لصورتهم .

نذكــر علــى سبيل المثال أنه أثناء تولي محمد الثاني الحكم للمــرة الأولى وهو صغير السن في عهد مراد الثاني ، استغل جباة الأمــوال وكــبار رجــال الدولــة الوضع ونهبوا أموال الخزينة ، وحرمــت الإنكشارية من رواتبهم ، وكان هذا بالطبع أحد الأسباب التــي أدت إلى ثورتهم وتمردهم ، فاضطربت الأمور في أدرنة ، وسالت الدماء ، حتى تضرر الناس وضجوا ، وناشدوا مراد الثاني بالعودة للعرش .[١]

كما أن أفراد الإنكشارية الأقوياء ضعفت هممهم ، بسبب أن مرتــبات خــدم القصر تزيد عن رواتبهم ثلاثة أضعاف ، وهو من يتحمل مشاق البرد وحفر المتاريس وتعرضهم للجراح والعاهات ، مما أثر على نفوسهم وضعف هممهم أثناء الحرب والجهاد .[٢]

وإذا أخذنا اليمن كمثال لتسلط الإنكشارية على الأهالي نجد أن ابــتزاز أمــوال الأهالي لم ينقذ وضعهم المادي ، إذ لجأوا إلى بيع متاعهم وأسلحتهم وثيابهم الرسمية ، زاد عددهم مع ازدياد فقرهم ، إلــى أن استولى الزيديين على بلاد اليمن ، حيث ردت الإنكشارية علــى الضــائقة المالــية ، ليس بالتمرد أو الاستئثار بالحكم ، بل بلجوئهم بسبب ضعفهم إلى الإمام مطهر الزيدي ، والذي استفاد من ذلك لإعلان التمرد على العثمانيين .[*][٣]

---

[١] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٠ ، محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٨٣ .

[٢] أحمد جودت : تحقيق عبد اللطيف الحميد ، ص١٩٥ .

[*] لقــد لجــأوا إلى أعداء الدولة العثمانية الزيدية ، والذين استغلوا الوضع وأعلنوا الثورة على الدولة العثمانية ، أما الجنود الذين بقوا موالين للعثمانيين كانوا في زبيد وعدن ، فحاصروهم الزيديون ، وقد تمكن سنان باشا في الفترة ما بين ٩٧٧هـ - ٩٧٨هـ /١٥٦٩م - ١٥٧١م من إخضاعهم ، وعمل=

كمـــا أن انـــتشـــار القحـــط والطاعون ، أدى إلى ارتـــفاع أســـــعار الحبوب في بلاد الشام ، ومن ثم ارتـــفاع ثمن الخبز إلى حـــد كبير (*) ، ولم تنفع جهود الدولة في استيراد القمح من مصر وقـــبرص ، إذ أنـــه سرعان ما زاد ارتفاع الأسعار ، بسبب جشع التجار وأصحاب الأفران ، والذين ساهموا بشكل كبير في تفاقم هذه الأزمـــة ، ولـــم تفلـــح جهود الدولة في القضاء على هذه الأزمة بالقضاء على جشع التجار لأن الجذور كانت أعمق من ذلك بكثير . ولضـــيق ذات الـــيد وارتفاع الأسعار ، لم يكن يستمعوا إلى أوامر الســـلطان أو قـــائد الجـــيش العـــام ، بعدم التعرض لأهالي المدن المفـــــتوحة ، فقـــد كـــان الأهالـــي لا يستطيعون التصدي لهم أو لأعمـــالهم التخريبـــية حتى أنهم عند وفاة أي سلطان يستغلوا فترة فـــراغ العرش حتى صعود السلطان الجديد،في القيام بنهب المدينة وابتزاز أهالي إستانبول.(1)

لقـــد كـــان أفـــراد الإنكشارية عماد الجيش ، وكان لتربيتهم الإســـلامية العســـكرية التـــي نشـــأوا عليها أكبر الأثر في ذلك ، معـــنوياتهم مرتفعة ، وهممهم الإسلامية قوية جعلتهم لا يخوضون حـــرباً إلا وكـــان النصر حليفهم ، أسدوا للدولة خدمات عظيمة ، فكافأهم السلاطين على ذلك وأعطوهم امتيازات وإقطاعات زراعية فأرتـــبطوا بأراضيهم ، وما لبثوا بعد فترة أن تغيرت حياتهم فبدأوا

= علـــى تحســـين حال العساكر ، وتشجيعهم على البقاء في ولاء الدولة العثمانية ، وزاد في مرتباتهم وعطاياهم .

(3) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص126 .

(*) اســـتغـــرب من أسعاره الإخباري الـــمعاصر ، شرف الدين موسى الأنصاري : مرجع سابق ، ص142 ، 143

(1) ألبرت هويرلبير : مرجع سابق ، ص93 .

يتخلفوا عن الخروج للحرب معللين ذلك بسبب البرد القارس ، وهم في الواقع يهدفون إلى حياة الدعة والراحة والاستقرار .[1]

إن منحهم الأراضي الزراعية جعلهم يرتبطون بالأرض ويرفضون مغادرتها للاشتراك في الجهاد ، اختلطوا بالسكان ومالوا لحياة المدن ، وتخلقوا بأخلاق أهلها ، وفقدوا الهمة العسكرية .

ومما ساعد على هذا الأمر السماح لهم بمزاولة التجارة ، والبيع والشراء ، فاتسعت امتيازاتهم في المدن ، وقوى نفوذهم ، إضافة إلى أن ارتباطهم بالثكنات العسكرية قد خف أساساً ، فأصبحوا لا يذهبوا إلا لاستلام رواتبهم أو العلوفة والتي كانوا يبيعوها في أغلب الأحيان للحصول على العائد المادي . [2]

كان الاقتصاد العثماني شبه منهار ، والدولة العثمانية لم تكن تصنع أي مصنوعات خاصة بها تقريباً ، فسُمح للإنكشارية بالاشتغال في الحرب والصناعة ، وذلك بهدف إثراء الصناعات المحلية ولو قليلاً. [3]

هذا الأمر أدى إلى ضعف ارتباطهم بالثكنات العسكرية ، فلم يعد يذهبوا إليها إلا لتسلم الرواتب فقط ، لا للتدريب العسكري ، أو

---

[1] محمود شاكر : مرجع سابق، ج٨ ، ص١١١ ، ١١٢ . علي محمد الصلابي : الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، الطبعة الأولى ، دمشق ، دار البيارق ، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م ، ص٥٤٢ ، إسماعيل ياغي: مرجع سابق ، ص٩٤ .

[2] السيد رجب حراز : الدولة العثمانية وشبه جزيرة العرب ، د. ط ، القاهرة : المطبعة العالمية ، ص١٥ . محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٥١ . محمد أنيس : مرجع سابق ، ص٢١٤ .

[3] بيري أندرسون : مرجع سابق ، ص٣٠ ، ٣١ .

المبيت فيها مما ساعد على ازدياد ارتباطهم بحياة المدينة ورفاهيتها وركونهم لحياة الحرفيين والصناع وليس حياة المجاهد في سبيل الله .

وقد ساعد أغوات الإنكشارية على فساد الفئة ، فقد كانوا يدفعون مقدار عشرة أيام أو عشرين يوماً ، من رواتبهم الشهرية لكبار رجال الدولة لشراء المناصب ، ولاستجلاب خواطرهم ونفسياتهم ، وإذا كان أغا الإنكشارية هذه أخلاقه ، فبالتالي لم يبق من رجال الإنكشارية رجال يعتمد عليهم . [1] وكان لأغا الإنكشارية دور كبير في مساعدتهم على العصيان والتمرد ، وخدم أغراضهم ومصالحهم ، بهدف المحافظة على مناصبهم . [2]

إن نظام الإنكشارية أصبح للأسباب السابقة نظام ارتزاق ، فكان لكل جندي تذكرة يحصل بمقتضاها على مرتب " العلوفة " وفي بعض الأحيان كانت تعجز الدولة عن دفع مرتبات هؤلاء كما سبق ذكر ذلك، فكان الجندي يلجأ أحياناً إلى القوة للحصول عليها ، أو يلجأ إلى بيع هذه التذاكر لمن يدفع لهم قيمتها وبالتالي يصبح الشاري " جندي إنكشاري" وهذا جعل أسماء الكثير من عامة الشعب تدخل في قوائم الإنكشارية ، حتى أنه وجد أسماء سيدات ، وهؤلاء جميعاً قد اشتروا التذاكر للحصول على الامتيازات الخاصة بالإنكشارية ، وعامة الناس لا يمكن الاعتماد عليهم وقت الحرب ،

---

(1) أحمد جودت : مصدر سابق ، ص١٩٥ .

(2) إسماعيل حقي أوزون جارشيل : مرجع سابق ، ص٤٧٧ .

في حين أنهم يشكلون عبئاً اقتصادياً على الدولة.[1]

أمـا عـن الأسـباب الاجتماعية فقد تركزت في السماح لهم بالـزواج وتكويـن أسـرة وتربية الأطفال ، مما حدا بهم الارتباط بأسـرهم وحـياة المدينة إضافة إلى الرفاهية التي تسببت في زيادة تكاليف معيشتهم ، حيث زادت متطلبات حياتهم اليومية إضافة إلى ارتفاع في الأسعار وانخفاض في المعيشة .

وعندما تم دخول عدد كبير من المسلمين في الإنكشارية ، في عهـد مـراد الثالث أي أواخر القرن السادس عشر الميلادي ترتب على ذلك إلغاء الحظر المفروض عليهم بعدم الزواج ، فأصبح لهم أسـر وانشغلوا بمشاكل الحياة اليومية والزوجية ، وهذا بالتالي أدى إلـى تقاعسهم عن الخروج للحرب ، وضعف الاسـتعداد الحربي لديهـم .[2] وفـي الماضي لم يكن يسمح لهم بالزواج خوفاً من أن الروابط الأسرية قد تؤدي إلى تقاعسهم عن الجهاد وتجعلهم يعيشون خارج ثكناتهم ويخف ارتباطهم بها.[3]

والحقـيقة أن هـناك تساؤل عن مدى صحة قرار العثمانيين بتحريم الزواج على الجند الإنكشارية ، بحجة أن ذلك سيكون عائقاً لهـم بالانصـراف عن أعمال الجندية والاستماتة في القتال ، ولكن يوجـد لدينا في التاريخ الإسلامي مثال في صحابة رسول الله صلى الله علـيه وسـلم ، إذ أنهـم كـانوا متزوجين ولديهم الأبناء ، ولم

---

(1) خلف الوذيناني : مرجع سابق ، ص١٦٦ .

(2) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص١٢٨ .

(3) السيد رجب حراز : مرجع سابق ،ص١٥ .

يصـــرفهم ذلك عن تلبية نداء الجهاد في أي وقت ، كما أنهم كانوا يســتميتون فـــي ســاحة القتال دفاعاً عن الإسلام ورفع رايته ولا يطلــبون ســوى الشهادة . كما أن هذا الحظر يتعارض مع الفطرة التي فطرها الله سبحانه داخل كل نفس بشرية ، مما قد يترتب عليه آثار سلبية قد لا تلمس إلا بعد مرور فترة من الزمن وهذا ما حدث فعــلاً ، فقــد تحولت الإنكشارية إلى جنود يجوبون الشوارع لنهب المنازل وهتك الأعراض ، دون الالتفات إلى حرمانية البيوت ، أو حتى المدن التي تسلم بمعاهدة ، لا تسلم من انتهاك الحرمات وهتك الأعراض.

ومـمــا لا شك فيه أن حظر الزواج على الإنكشارية ، كان له أبلغ الأثر في تكوين جيش قوي ، بعيداً عن العواطف الأسرية وإنما عاطفــة نحــو الإسلام وخدمة السلطان العثماني فقامت بذلك على أكــتافهم الفــتوحات الإســلامية ، حيث كانوا يدخلون المعركة لا يرجون سوى النصر أو الشهادة في سبيل الله .

أمــا عــن الأسباب النفسية ، فقد تركزت حول أن الخدمات والأعمال الجليلة والبطولية التي قام بها الإنكشارية في بادئ الأمر قد أكسبتهم تقدير واحترام العامة والخاصة ، وربما شعروا بالتميّز وشــعروا بــأنهم هم الذين فتحوا المدن ، ومن حقهم نظير ذلك أن تحقــق جمــيع مطالبهم بلا استثناء . فهم الذين تحملوا المشاق في سبيل الدفاع عن الدولة العثمانية، فكانت هذه المشاعر من الأمــور

التي دفعتهم إلى التمرّد والاعتداء على الأموال والأرواح . (١)

كما أنه بسبب فتوحاتهم وانتصاراتهم الماضية ، اعتقد الإنكشارية بأن القوة والشجاعة ، والفضيلة التي تتواجد عند جنودهم تجعلهم يتغلبون على كل جيش منظم بقيادة محكمة . هذا الوهم الذي ترسخ في أذهانهم ، جعلهم يرفضون أي محاولة للإصلاح أو التطوير ، كما أن أغنيائهم (*) اقتنعوا بأبسط الأمور إلا تقليد الأمم الأخرى ، وبذلك عمت فكرة أن استخدام نفس أسلحة هذه الأمم للدفاع عن الدولة العثمانية وولاياتها يعتبر جريمة ، وأن الشعوب الأخرى على ضلال ، وأساءوا إلى الرجال (**) الأكثر خبرة وعلماً وذكاءً . (٢)

كما كانت لدى الإنكشارية قناعة داخلية بأن دعاء الشيخ بكتاش قبل مئات السنين لهم بالنصر الدائم ، سيفيدهم على الرغم من اختلال تنظيمهم العسكري وكانت هذه من أكبر الأخطاء التي وقعت فيها الإنكشارية ، ورفضوا استخدام الأسلحة الحديثة والتطور ولم يفكروا لحظة كيف سيواجهون العدو في ساحة المعركة بأسلحته الحديثة ، مما أدى إلى هزيمتهم في أغلب الأحيان .

---

(١) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٢ ، ٨٣ . إسماعيل ياغي : مرجع سابق ، ص٩٥ .

(*) لم يوضح المؤلف ماذا يقصد بكلمة الأغنياء ، ولكن من الواضح في السياق العام أنه يقصد قادة الإنكشارية وزعمائها ، وأغواتهم ، فهم من يمتلك النفوذ والقوة والسطوة . ويقصد أيضاً شيوخ الإسلام الذين كثيراً ما ساندوا الإنكشارية .

(**) يقصد هنا المؤلف السلطان سليم الثالث ، وبعض الصدور العظام الذين وقفوا بجانب الإصلاح .

(٢) سيد مصطفى – خالد زيادة : مرجع سابق ، ص٦٨ ، ٩٩ .

وقوف شيخ الإسلام والعلماء إلى جانبهم في أغلب التمردات التي قاموا بها منذ أوائل القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ، زاد من ضغط الإنكشارية على السلاطين واستبدادهم فغالباً ما استندت ثوراتهم إلى فتاوي شرعية من شيخ الإسلام عادة ما كانت تمثل الرأي العام . (١)

كما أثر على نفسياتهم ، اختلاطهم بأهل المدن ، مما أدى إلى فساد طبيعتهم الحربية ، وتغيير أخلاقهم ، فأصبحوا أعداء لأنفسهم وأعداء لسكان المدن المحليين ، وانغمسوا بالتالي في حياة اللهو والملذات ، ورفضوا الخروج للحرب في البرد القارس ، وأثروا حياة الاستقرار والدفء ، مع استمرارهم في طلب علوفاتهم .

وقد أوجز عبد العزيز نوار أسباب ضعفهم وفسادهم في عدة نقاط هي :

١- كبد العثمانيون خسائر فادحة في الأرواح والأموال نتيجة للحروب المتتالية التي خاضتها الدولة العثمانية ضد الدولة الفارسية خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري ، السابع عشر والثامن عشر الميلادي .

٢- وأدى هذا الأمر إلى فقد أجزاء متتالية من الأراضي البلقانية، والتي كان يجمع (*) منها الأطفال المشردين والأيتام لنظام

---

(١) خليل إينالجيك : مرجع سابق ، ص١٠١ .

(*) لقد أشار هنا إلى أن أطفال الديوشرمه كانوا من ضريبة الغلمان والتي قلل منها السلاطين العثمانيون .

"الديوشرمة " وبذلك ضعف الأساس الذي الأساس الذي قامت عليه الإنكشارية .

٣- استشعار الإنكشارية بقوتها ومكانتها في الجيش العثماني ، جعلها تغالي في طلباتها وهباتها من كل سلطان جديد ، وإذا رفض السلطان إعطائهم أثاروا الفتن عليه .

٤- إقامة الإنكشارية في القلاع والمدن النائية لمدة طويلة ، جعل الهدف الإسلامي العام غير واضح أمامهم ، إضافة إلى فقد الإنكشارية للروح المعنوية ، بسبب ضعف التدريب ، وقلة العتاد الحربي ، فلم يعد للسلطان تلك القداسة التي شب عليها الإنكشاريون من قبل وأصبحوا عناصر فساد ، حتى أن الولاة أرادوا التخلص منهم .

٥- لقد كان النظام أن يرابط الإنكشارية في قلاعهم وثكناتهم مدة معينة، ثم يستبدلون بقوة أخرى ، ولكن الوضع تغير خاصة في القرن الثاني عشر الهجري ، الثامن عشر الميلادي ، إذ استقرت قوات الإنكشارية في قلاعها ، وصارت تقوم بجباية الضرائب ، فاندمجت الإنكشارية في حياة المدن ، وغادر رجالها ثكناتهم وعاشوا حياة عادية ، لهم أسرهم ومشاغلهم ، فتحولوا إلى عنصر فساد وليس عنصر دفاع عن الدولة العثمانية .

٦- تحول نظام الإنكشارية إلى نظام ارتزاق ، فقد كان لكل جندي إنكشاري تذكرة يحصل بمقتضاها على " علوفة " نقدية أو عينية ، وعندما ضعفت الدولة العثمانية عن دفع رواتب

الإنكشـــارية صاروا يحصلون على حقوقهم بالقوة ، أو يبيعوا تذاكـــرهم لمـــن يدفع أكثر، والشاري يصبح صاحب التذكرة وبالتالي جندي إنكشاري ، حتى لقد وجد في قوائم الإنكشارية أسماء آلاف من أصحاب الحرف والسيدات .[1]

هـــذه الأسباب اجتمعت ، وأدت إلى قيام صراع بين أطراف السـلطة، والصـــدر الأعظم ، والإنكشارية ، فتخلخل النظام العام وفسدت الدولة على الصعيد الداخلي .[2] في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري ، السابع عشر والثامن عشر الميلادي .

هـــذا الصراع أصاب الوضع الداخلي بأشكال مشوهة ، بين السلاطين الذين حاولوا جاهدين تقوية قدراتهم العسكرية للدفاع عن الدولـــة العثمانـــية ، وذلـــك باللجوء إلى الإصلاحات ، راغبين أم كارهين ، وبين الإنكشارية التي باتت مؤسسة عسكرية بائرة تعاني مـــن الهـــزائم المتلاحقة، ولكنها برغم من كل شيء بقيت السلاح التقليدي الوحيد في أيدي الأصالة وعلماء الدين .[3] لقد كانوا جنوداً أشداء يصعب السيطرة عليهم وكبح جماحهم .

وبهذا افتقدت الإنكشارية الأساسيات التي قامت عليها وفقدت مقدرتها الحربية ، وأصبحت هيئة عسكرية صورة تعكس فساد هذه الفـــرقة ، ومـــع مرور الزمن أصبح الإنكشارية مرضاً داخل جسم الدولة العثمانية .

---

[1] عبد العزيز نوار : مرجع سابق ، ص٨٦ ، ٨٧ .

[2] شبكة المعلومات العالمية " الإنترنت " .

[3] قـــيس جـــواد العـــزاوي : الدولة العثمانية قراءة جديدة لعوامل الانحطاط ، الطبعة الأولى ، الدار العربية للعلوم، ١٤١٤هـــ ، ١٩٩٤م ، ص٥٣ .

عــندما كثرت حركات تمرد وعصيان الإنكشارية لجأ بعض السـلاطين إلـى بعض الإجراءات في محاولة منهم للحد من تلك الظاهرة ومن أهم هذه الإجراءات ما يلي :

أولاً : إتـباع سياسـة تفريق أو تشتيت جموع الإنكشارية بحيث لا يـتواجد أو يـتزايد عددهـم فـي مكـان واحد ، ولا سيما اسـتـنابول ، وتنفيذاً لهذه السياسة لجأ السلاطين إلى توزيع جـنود الإنكشـارية علـى حاميات الحدود والقلاع والمدن المفـتوحة حديـثاً ، وأيضـاً إرسـال فرق منهم لتلبية نداء المسـتنجدين داخل ولايات الدولة العثمانية كما فعل السلطان سليم الأول حين أرسل إلى خير الدين بروسيا عام ٩٢٥هـ / ١٥١٨م ألفين من جنود الإنكشارية ، بعد أن استنجد به خير الدين وطلب العون لمحاربة الأسبان في الجزائر .

ثانياً : السماح لأعداد كبيرة من الجند المسلمين الذين ولدوا من آباء مسلمين في الديار الإسلامية بالانضمام إلى الإنكشارية ، بعد أن كـان هذا الأمر محذوراً تماماً ، وذلك للحد من طغيانهم وتعصبهم وإظهار إمكانية الاعتماد على غيرهم .

ثالـثاً : السـماح للإنكشـارية بممارسة بعض الحرف أو مزاولة الـتجارة فـي أوقات السلم ، في حين كان هذا محرماً عليهم فيما سبق ، والغرض من ذلك إشغالهم في وقت السلم حتى لا يدفعهـم الفـراغ للتفكـير في إثارة الفتن، ورغم نجاح هذا الإجـراء فيما يتعلق بشغل أوقات الفراغ عند الإنكشارية فقد

كان له أثراً سلبياً من ناحية أخرى ، حيث أدى إلى ابتعادهم عن ثكناتهم العسكرية ، وبالتالي عدم ممارسة التدريبات العسكرية مما ترتب عليه هبوط مستواهم القتالي .

رابعاً : عدم السماح لجندي الإنكشارية بحمل السلاح في أوقات السلم وذلك تجنباً لاستخدامه ضد المدنيين .[1]

على أنه مرت فترة هدوء نسبياً للإنكشارية في عهد صدارة كوبرللي محمد باشا وابنه فاضل أحمد باشا ، فقد كانوا غاية في الطاعة ولم يتدخلوا في شؤون القصر أو السياسة العليا مطلقاً وأهتموا بشؤونهم فقط ، وانضبطت صفوفهم ، ولكن هذا لم يستمر طويلاً فبعد نهاية صدارتهم عادت الإنكشارية لسابق عهدها .[2]

إذا عقدنا مقارنة بسيطة بين الإنكشارية وجيش المعتصم ، في الدولة العباسية نجد أن جيش هذا الأخير قد تكون من عنصر الأتراك والذي اشتراهم المعتصم لينخرطوا في الجيش العباسي ، فصاروا وبال على الدولة العباسية ، مما أدى إلى ضعفها . ومن ثم سقوطها ، وهذه الحالة تكررت مع الإنكشارية في الدولة العثمانية ، مع الفارق أن الإنكشارية عماد الجيش العثماني وصاحبة أروع الفتوحات العثمانية ، ولكن مع مرور الزمن تكرر الوضع بنفس النمو في الدولة العباسية ، حيث سيطر الجنود على الحكام والدولة ، مما أدى إلى سقوطها .

---

(١) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٠١ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية : مادة يني تشري ، ص٥١١ .

كــلا الجيشــين طغى على الحكام واستبد بالسلطة وتحكم في وضــع الســلاطين والخلفــاء ، أو عزلهم ، ووصل الأمر إلى حد القــتل ، ووصلت أمور الفساد إلى أقصاها ، حتى أضعفوا كيان هاتين الدولتين ، وبقيت مصالحهم فوق الدولة والشعوب .

ولهــذا فرجل الحرب ، لا يصلح أن يتحول إلى رجل سياسة وإدارة وحكم ، فهو جندي لخوض حرب وفتح حصون ، ولا يمتلك مرونة وليونة رجل السياسة .

المبحث الثاني :
نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني

أعتبرت الدولة العثمانية فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي ، تميزت بمميزات جعلتها في مقدمة الدول ، وأول هذه المميزات أنها كانت دولة إسلامية حملت راية الجهاد الإسلامي عبر الآفاق ، ساعدها في ذلك، الميزة الثانية وهي الفئة العسكرية المعروفة بالإنكشارية ، ذلك الجهاز العسكري الذي فتح البلاد وضم المدن ، وكانت لها اليد الطولى في مختلف الفتوحات العثمانية ، ولكن دوام الحال من المحال ، فقد بدأت هذه القوة العسكرية في التمرد والعنف والبطش مما أدى إلى صراع مستمر بينها وبين الحكام ، كان من نتائجه إضعاف هيبة الدولة العثمانية وإضعاف البنية الداخلية للدولة وقصورها في مواجهة البلاد الأجنبية حتى أبتلع الاستعمار أراضيها .

وبعد معرفة أسباب تمردات الإنكشارية ومدى السيطرة والقوة التي وصلت لها هذه الفرقة سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ، نتتبع تدخلهم في السياسة الداخلية أي في القصر السلطاني في عهد كل سلطان .

لم تورد المصادر التاريخية أي معلومات عن أي تمرد قامت بها الإنكشارية منذ نشأتها وحتى أوائل القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ، إلا أن المصادر التاريخية تسجل لنا حوادث وشغب الإنكشارية الذي بدأ يظهر على المسرح التاريخي

في أواسط القرن التاسع الهجري الموافق النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي.[1]

ولكن لابد أن نأخذ في الاعتبار أن بداية تمردهم لم يكن بتلك الصعوبة ، واستطاع السلاطين التحكم فيها ، لكنها تطورت بعد ذلك وتعدت لشخصية السلطان وعزلهِ ثم قتلهِ .

ففي عهد السلاطين الأقوياء لم يكن للإنكشارية نفوذ ، وكانت تحت سيطرة السلطان ، ولكن مع مرور الوقت تبدل الحال بسبب ضعف بعض السلاطين أولاً وزيادة نفوذ الإنكشارية داخل القصر السلطاني ثانياً وبالأخص ذلك النفوذ الذي ظهر في شخصية الأغا الإستبدادية .

لقد كانت مفاسد الإنكشارية من أكثر العلل التي أصابت الدولة العثمانية وساعدت على ضعفها الداخلي ومن ثم سقوطها ، لقد استفحل الأمر بعد أن تسرب الفساد لها ، وسمح لأي فرد الانضمام بسلكها دون قيود ، وأول بواكير هذه الأعمال الخارجة عن طبيعة عمل الجند ، هو أول إضراب يذكره لهم التاريخ ، بعد وفاة السلطان محمد الأول "٧٨١هـ - ٨٢٤هـ / ١٣٧٩م - ١٤٢١م " في منطقة غاليبولي ، وقصّة ذلك أنه عند وفاة السلطان محمد الأول ، خاف الوزراء ورجال القصر من إشاعة خبر الوفاة قبل مبايعة أبنهُ مراد الثاني [2]الذي كان في آسيا ، وقد أتفق الوزيران في عهد محمد الأول وهما " إبراهيم وبايزيد" على إخفاء خبر الوفاة

---

[1] إسماعيل حقي أوزون : المرجع السابق ، ص٥٠٦ .

[2] فريد بك المحامي : المصدر السابق ، ص١٥٢ .

عـــن جـــنده خوفـــاً من حدوث طارئ لا تحمد عقباه ، وأشاعا أن السلطان مريض ، وأرسلا إلى ابنهُ مراد ، والذي وصل بعد واحد وأربعين يوماً واستلم مقاليد الأمور والحكم هذه رواية . [1]

وهـــناك روايـــة أخرى تذكر أن خبر وفاة السلطان شاع بين الجـــند ، ولـــم تهـــدأ ثائرتهم حتى احتال رجال القصر على الجند وأوقفوا جثة السلطان خلف نافذة القصر وجعلوا يحركوا يده كتحية للجند أثناء مرور صفوفهم أمام القصر . [2]

ولكـــن هـــذه الـــرواية الأخـــيرة كما يبدو مشكوك في مدى صـــحـــتها ، فلـــيس من المعقول أن تكون شخصية السلطان سهلة بحيـــث يســـتطيع وزرائه التعدي على هيبة جثة السلطان ، وحمله وإيقافـــه أمام النافذة ، ولنفترض حدوث ذلك فيكف يستطيع وزرائه إيقافـــهِ بشكل مستقيم وهو جثة هامدة ، بل وتحريك ذراعه بالتحية بأيديهم ، ليراها الإنكشارية ، إضافة إلى أن الميت عيناه مغمغمتين فكيف سيفتحها هؤلاء الوزراء ، وهل بقيت جثة السلطان لم تتحلل أو يصـــيبها العطن خاصة وأنه لا يوجد وسائل لحفظ الجثة بهيئتها كاملـــة لمـــدة طويلة ، فالوسائل لا شك أنها بدائية نوعاً ما ، كذلك الـــنافذة هـــل هـــي بعيدة بدرجة كفاية حتى لا يلاحظوا الإنكشارية ملامحهُ عن قرب ، فلا يعتقد أنها بعيدة جداً فبإمكان الجند الاقتراب لدرجـــة تسمح بتفرس ملامحه الميتة واكتشاف الحقيقة ، وعلى هذا

---

[1] محمـــد فـــريد المحامـــي ، مصـــدر سابق ، ص ١٥٢ . محمد جـــميل بيهم : فـــلسفة التـــاريخ العثمـــاني ، ص ١٣١ .

[2] المرجع السابق ، ص١٣١ .

فــإن الباحــثة ترجح الرواية الأولى وذلك لقربها للمنطق والصحة ولقرب فريد بك المحامي من الفترة الزمنية .

وبعــد تولي مراد الــثاني بن مــحمد الأول الحكم " ٨٠٦-٨٥٥هــ / ١٤٠٣-١٤٥١م " صارت الأمور هادئة مع الإنكشارية حــتى حدثت معركة وارنة التي دارت أحداثها على سواحل البحر الأسود عام ٨٤٨هــ/ ١٤٤٤م وقد انتصر فيها السلطان مراد الثاني على جيوش الحلفاء المسيحيين (*) واستعاد مدينة وارنة من المجر والبولونين وغيرهم ، ثم عاد السلطان إلى العاصمة ، ومرض بعدها إثــنان من أبنائه بمرض معد توفيا على أثره ، فحزن عليهما حزناً جمــاً ، وعفـــت نفسه عن الملك ، فــقرر أن ينادي بإبنه محمد الثانـــي ســلطاناً والذي لم يتجاوز ١٥ عاماً، وانــسحب إلى إحدى المدن . (**) (١)

ولكن هذا الطفل الذي حكم لم يعجب الإنكشارية وثاروا عليه وازدروه ونهــبوا عاصـــمة الدولة أدرنه . (٢) على الرغم من أنهم ســاعدوه في الغارات على بلغراد ، وعندما جرح في فخذه أنقذوه

(*) ومضـــوا معــاهدة ساكه دين مع جان هويناد عام ٨٤٨هــ / ١٤٤٤م . إسماعيل حقي أوزون : المرجع السابق ، ص٥٠٦ .

هــو يــنادي : ولــد عام ١٣٨٧م وتوفي ١٤٥٦م من أسرة مجرية الأصل عُين ملكاً للمجر من قبل ماتــيوس إين لارسلاس – أشتهر بمحاربة العثمانيين ، ومات متأثراً بجراحه أثناء حصار محمد الفاتح لبلغراد . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٥٦ .

(**) مدينة مغنيسا ، انسحب مراد الثاني لها للاستجمام . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣١.

(١) حبيب السيوفي : المرجع السابق ، ص١٠ .

(٢) محمــد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص١٥٨ ، إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص٥٠٤ .

ودافعوا عنه، وكان اعتراضهم على حكمه بسبب صغر سنهِ وليس شخصــه ، وساعدهم في ذلك وحرضهم رؤساء الإنكشارية وهم ذا غـانوس باشا . [1]، وشهاب الدين باشا الخادم ، كما ساعدهـم في هـذا الـتمرد رجال الدولة الذين لم يرضيهم سلطان الخامسة عشر عمراً . [2]

ولـم يهدأ الوضع حتى عاد السلطان مراد الثاني مرة أخرى مـن عزلـته ، وقام بإخماد الفتنة ، وإنزال العقاب الشديد بمدبريها ورؤوس الفتـنة فـيها ، وهكذا عاد الأمر كما كان وهدأت البلاد ، ولكـي يضمن السلطان مراد الثاني عدم إثارتهم للقلاقل مرة أخرى أشغلهم في حرب بلاد اليونان عام ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م وساعدهم في ذلك ظروف اليونان الداخلية . [*] [3]

وهكـذا رضـخ مـراد الثاني لمطالب الإنكشارية وعاد إلى السـلطة ، ولكـنه قضى على رؤوس الفتنة ، وهذا يدل على قوتهِ وخوف الإنكشارية من شخص السلطان ، الأمر الذي سيتحول فيما بعد كما سنرى .

واستمرت الأحوال هادئة حتى توفي مراد الثاني وتولى الحكم بعده إبنهُ محمد الثاني " ٨٣٣هـ - ٨٨٦هـ / ١٤٤٧م - ١٥١٢م " ثـم بدأ تمّرد الإنكشارية مرة أخرى وأضربوا عن العمل ، حتى

---

[1] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٢ .

[2] إسماعيل حقي أوزون : المرجع السابق ، ص٥٠٦ ، ٥٠٧ .

[*] سـاعده تقسـيم الملك إيمانويل بلاده على أولاده ، مما أدى إلى إضعافهم ومن ثم يسهل القـضاء عليها . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٥٨ .

[3] المصدر السابق ، ص١٥٨ .

أجبروا السلطان على زيادة رواتبهم . وحققوا مبتغاهم ، ولأن محمد الثاني كان يحتاجهم في فتوحاتهِ فقد إزدادوا إلحاحاً في مطالبهم . [١]

وإذا دققنا هنا نجد أن تمردهم في عهد محمد الثاني تلخصت في زيادة الرواتب ، وربما يعود رفضهم وتمردهم على مراد الثاني في البداية لصغر سن محمد الثاني ، ولكن بعد ذلك رضخوا له ولأوامرهُ وساروا تحت طوعهِ .

على أن تدخل الإنكشارية الفعلي كان واضحاً بعد وفاة السلطان[*] محمد الثاني ، فبعد وفاته في سكوتاري ، بشكل مفاجئ ، أخبر الصدر الأعظم محمد باشا قرماني [**] بوفاتهُ بسرية تامة ، وأخفاه عن الجنود جميعاً وخاصة الإنكشارية لما عرف عنهم من سرعة التمرد . حيث خاف من آثار الخبر عليهم قبل الوصول إلى إستانبول ، وأشاع بين الجند أن السلطان مريض يحتاج إلى الحمامات الدافئة حتى يتماثل للشفاء، وقام بنقل الجثمان في

---

[١] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٢ .

[*] لقد توفي محمد الفاتح في ١٤٨١/٥/٣م في مكان يسمى " سلطان جابري " بالقرب من خيرة ، وكان في طريقه لإحدى الحملات الحربية ، وكان على رأس جيش ، وفجأة وهو في الطريق مرض مرضاً شديداً منعه من السير ، وبالطبع توقف الجيش عن المسير ، وذهب المعسكر في المكان المذكور وتوفي السلطان نتيجة لهذا المرض . أنظر رشاد أكرم قوجسي : الإنكشارية ، د. ط ، إستانبول : ١٩٦٤م ، ص١٤٥ .

[**] محمد باشا القرماني : أحد الكتاب والصدور العثمانية ، في عهد محمد الفاتح ، من نسل جلال الدين الرومي ، تربى في قونية ، وكان تلميذ علاء الدين علي جلبي أحد العلماء الكبار في عهده ثم صار صهرهُ بعد ذلك ، ترقى في المناصب حتى وصل الصدارة العظمى في عهد الفاتح ، أهم أعماله إعداده مجموعة من القوانين عرفت باسم " فاتح قانون نامه ، أو قانون نامة آل عثمان ، " عين قاضي عسكر الأناضول . وكان بارعاً في الخط ، والرماية والقوس . انظر الموسوعة التركية الوقف الديني بتركيا ، ج١ ، د.ط ، إستانبول ١٩٨٨م ، ص١٣٣ .

قـــارب (*) مغلق إلى العاصمة بحجة المحافظة على صحة السلطان من البرد بعد خروجه من الحمام الدافئ،(١)

وكان ذلك من أجل كسب الوقت حتى يستـــطيع إشعار بكر أبـــناءه " أبو يزيد " (**) ، ولكنه في نفس الوقت كان يميل إلى ابنه الأصغر " جم" الذي تربطه به علاقة مودة ، فأرسل الصدر الأعظم قرماني محمـــد باشـــا ســـراً إلـــيه يخبره بوفاة والده ويستعجله العودة إلى العاصـــمة ليتسلم مقاليد الحكم قبل أخيه ، وكان هذا في بلاد قرمان ومركزه قونيه.(***) (٢)

وقـــبل ذهاب الصدر الأعظم إلى إستانبول حذر الجنود بعدم تركهم لأماكنهم أو التفرق ، حتى يعود إليهم مع السلطان مرة أخرى وبمجـــرد وصوله إلى إستانبول ، أمر بإغلاق الموانئ وعدم عبور أي قـــوارب ، وقام بإخراج فرقة الأعجمي أوغلان لحماية المدينة سراً وأعلن أنهم خرجوا لإصلاح الجسور ، وأغلق أبواب المدينة ، وهنا وضح أن الصدر الأعظم قد سيطر على الأمور في العاصمة ،

(*) ذكرت بعض المراجع أن الصدر الأعظم نقل النعش في عربة ولكن بشكل لا يشك فيه أحد . أنظر رشاد قوجسي : مرجع سابق ، ص١٤٦ .

(١) محمـــد جمـــيل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٢ . أنظر إسماعيل حقي أوزون : مـــرجع سابق ، ص٥٠٧. أنظر رشاد قوجسي : مرجع سابق ، ص١٤٦ .

(**) يـــرد إســـم هذا السلطان في الغالبية من الكتب العربية مكتوباً " بايزيد " وهذه الكلمة في النطق التركـــي لاســـم العربي " أبو يزيد " وفي آسيا الصغرى هناك مدينة باسمه حاضرة صنجق في ولاية أرضروم بناها بايزيد الأول . أنظر عبد العزيز الشناوي ج١ ، مرجع سابق ، ص٥٠٤ .

(***) قونـــية : بضـــم ثم السكون ونون مكسورة . وهي مدينة تركية تقع وسط تركيا إلى الجنوب من أنقـــرة ، وإلى الشمال من البحر الأبيض المتوسط . أنظر محمد فـــريد المحامي : مصدر سابـــق ، ص٦٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص١٧٩ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص١٢٠ .

وعــندما رأى إسحاق باشا محافظة إستانبول هذا الوضع ، أحضر عـــدداً من الإنكشارية مسلحين وأنحاز إلى صف بايزيد . [١] والذي كــان علاقــته مــع أبيه فاترة ، وكان على علاقة وثيقة مع بعض الشخصــيات التي لها تأثير قوي على الإنكشارية أمثال سنان باشا حــاكم الأناضول وإسحاق باشا عدو الصدر الأعظم قرماني محمد باشا . [٢]

وكــان علـــى كل إبن الإسراع بالعودة للعاصمة حتى يتولى العرش، لكن خبر وفاة السلطان انتشر بين الإنكشارية المرابطين في المعســكر فـــي سكوتاري ، وعلى الرغم أن الإنكشارية في ذلك الوقـــت كانت لا تزال تلتزم بالطاعة إلا أنهم لم ينفذوا أمر الصدر الأعظـــم ، وســـارعوا بالعودة إلى إستانبول ، بالقوارب الموجودة عـــندهم ، وعبروا البوسفور إلى العاصمة وقتلوا الصدر الأعظم ، ونهبوا قصره ، وعاثوا في المدينة نهباً وسلباً ، وأقاموا ابن السلطان بايـــزيد " كركود " قائمقام للدولة مكان أبيه لحين وصوله ، وعندما تلقـــى إسحاق باشا [*]خبر مقتل محمد باشا القرماني، أرسل أوامره

---

[١] رشاد قوجسي : مرجع سابق ، ص١٤٦ .

[٢] محمـــد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٧٩ . انظر محمد سهيل طـــقوش : مرجع سابـــق ، ص١٢٠ .

[*] إســـحاق باشا : من أصل يوناني ، كان في الدوشرمة ، أرتقى في المناصب أمير أمراء البوسنة ثم أمير أمراء الأناضول ، حظي بمكانة عالية عند بايزيد الثاني ، تولى الصدارة العظمى مرتين ، ساعد الإنكشـــارية في مقتل محمد باشا قرماني ، اعتذر عن الاشتراك في الحرب التي بين بايزيد وجم ، له جامع بإسمه ، ومسكن للفقراء ، وقصر كبير له . ولم تعرف سنة وفاته . الموسوعة التركية :ج٢٠ ، د.ط ' أنقرة ١٩٧٢م، ص٢٣٢ – ٢٣٤ .

إلـــى الإنكشـــارية بالتزام الهدوء والسكينة والرجوع إلى ثكناتهم ، وامتثلوا لأوامره . [1]

ونلاحـــظ هنا أن تمرد الإنكشارية كان ضد الصدر الأعظم ، وتمكنهم من قتلهِ يعتبر مؤشر خطير ، حيث يدل على أنهم بإمكانهم القيام بتمرد في أي وقت متى أرادوا .

وعندما وصل بايزيد إلى إستانبول استقبله كبار رجال الدولة عـــند مضـــيق البوسفور وأثناء اجتيازه البوغاز أحاطت به قوارب مليـــئة بالإنكشارية يرحبوا به ، ويطالبون بعزل أحد الوزراء وهو مصطفى باشا وتعيين إسحق باشا مكانه ، فأجُيب طلبهم ، وكان هذا دليل كاف على تأثيرهم وأن لهم الفضل في اعتلائه العرش ، وعند وصـــول بايزيد إلى القصر السلطاني وجد الإنكشارية مرابطة أمام القصـــر ، ومصطفين أمام البوابات بما يشبه المظاهرة العسكرية ، وطالـــبوا الســـلطان بايـــزيد بالعفو عنهم عما وقع من قتل للصدر الأعظـــم ونهب وسلب المدينة ، كما طالبوا بأن يعطـــيهم مبلغاً من المـــال ، تعبـــيراً عـــن الســـرور بتعيـــنه فأجابهم على جميع مطالبهـــم . [*] [2]

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٧٩ . عبد العزيز الشناوي : ج١ ، ص٥٠٤ ، رشاد قوجسي: ص١٤٧ .

[*] نجح السلطان عبد الحميد الأول " ١١٣٧ – ١٢٠٣هـــ / ١٧٢٤م – ١٧٨٨م " في إلغاء هذا التقليد بحجة الحرب مع روسيا . محمد فريد المحامي . مصدر سابق ، ص١٧٩ .

[2] المصـــدر الســـابق ، ص١٧٩ . أنظر عبد العزيز الشناوي : ج١ ، ص٥٠٤ ، أنظر أيضاً محمد ســـهيل طقـــوش ، مرجع سابق ، ص٢٤٩ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٢ . بسام العسلي : ج٥ ، مرجع سابق ، ص١٠٥ .

ولـــم يكـــن مـــن السهل عدم قبول مطالبهم ليس ضعف في شخصـــية السلطان ولكن لأنه سيدخل في صراع مع أخيه جم وكان لابد من أن يضمن تأمين ولائهم له ، وهدوء جبهته الداخلية ، حتى يخـــوض المعركة مع أخيه وهو متأكد من تأمين الجبهة الداخلية ، لكـــن لا شك أن هذا الأمر ساعد الإنكشارية كثيراً وجعلهم يصابون بالغرور والطمع في فترة مبكرة جداً ، ويدل أيضاً على أنهم أرادوا تثبيـــت إســـحق باشا في الصدارة العظمى وصرف أعطيات لهم ، إضـــافة إلـــى أن السلطان سامحهم على أعمال السلب والنهب في العاصـــمة ، وقـــتلهم للصدر الأعظم – مهما كانت أسبابهم – هذه الأمـــور جعلـــتهم يحسون أن أوامرهم دائماً مطاعة ، خاصة وأن عـــادة إعطاء العطايا عند جلوس كل سلطان أصبحت فريضة ردحاً من الزمان .

علـــى الرغم من ذلك كان السلطان بايزيد يأخذ رأيهم في كل أمـــر حـــتى في القضاء على الصدر الأعظم [1] ، الذي آثر إعلان الحـــرب علـــى الإستبارية لأنها قامت بحماية الأمير جم ، وقد كان السلطان بايزيد يؤثر عدم معاداتهم إلا أن الصدر الأعظم أصر على الحـــرب فغضب عليه بايزيد ، وأخذ يتحين الفرص للتخلص منه ، حـــتى جاءته هذه الفرصة في وليمة أقامها السلطان ، وأمر بخنقهِ ، لكن الصدر الأعظم طلب من السلطان فرصة حتى يعلم بما سيكون مـــن أمر الإنكشارية لأنه الرئيس الأعلى لهم ، فأعتقله السلطان في أحـــد أبـــراج القـــلاع ، إلى أن يفصل في أمرهِ . وعندما علم ابن

---

[1] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٣-١٤ .

الصـــدر مـــا حدث لأبيه غضب ، وطاف بين ثكنات الإنكشارية ، يحثهم على التمرد على السلطان من أجل قائدهم الذي ذهب ضحية ظلـــم الســـلطان له ، فثاروا وتجمعوا في الشوارع أكثر من عشرة آلاف ، مهدديـــن بالهجوم على القصر لإحراقه وإخراج قائدهم من السجن إذا كان لا يزال حياً والفتك بالظالم إذا كان قائدهم قد قتل.[1]

فخاف السلطان منهم ، ولكي يسكن ثورتهم أظهر لهم قائدهم الأعلـــى ، وعندما رأوا على جسمه آثار الضرب ، زاد صراخهم، عـــندها أمرهم الصدر الأعظم بالهدوء، فعادوا إلى ثكناتهم ، وهكذا نجـــا السلطان من أذاهم ، وعاد الصدر الأعظم إلى منصبهِ لكن لم يهـــدأ بـــال الســـلطان، حتى عقد النية على إبعاده عن الإنكشارية ليســـتطيع التخلص منه ، وفعلاً أصطحبهُ معه إلى أدرنهِ ، وهناك قـــتلهُ ، وأذاع أنه قضى نحبه بداء السكته ، وهكذا تخلص منه وقام بـــنفس العمـــل بباقي قادة الإنكشارية . فقد كان يرسلهم إلى أماكن بعـــيدة بحجـــة أشغال مهمة ، ويتخلص منهم بالقتل. وعندما رأت الإنكشـــارية عداوتـــه لهـــم ، غضبوا غضباً شديداً وأصروا على الانـــتـــقام ، وبيـــنما هـــو عـــائد إلى العاصمة تربصوا به ، فعلم واســـتولى علـــيه الخـــوف ، وحـــاول إرضائهم بجميع الطرق ، والاستجابة لرغباتهم ، حفاظاً على حياته . [2]

ونأتـــي إلـــى نقطـــة مهمة في تدخل الإنكشارية في القصر السلطاني ، وهي في نهاية عهد بايزيد حيث كانت المشاكل تعصف

---

[1] حبيب السوفي : مرجع سابق ، ص ١٣ & ١٥ .

[2] مرجع سابق ، ص١٤، ١٥ .

به من جميع الجهات مشاكل داخلية ، صراعهِ مع أخيه الأمير جم ، ثــم صراعهِ مع الشاه إسماعيل الصفوي ، ثم في وقت متأخر كما سـنرى صـــراع أبناءه الثلاثة على العرش ، كل ذلك جعله دائماً مشغول ، فتقبل تدخل الإنكشارية في القصر السلطاني مما أوجد لهم المجـال فـي كثير من الأمور التي سارت وفق هواهم . لقد لعبت الأطمــاع الداخلية دورها في إفساح المجال أمام الإنكشارية وتقبل بايزيد لذلك ليس لأنه ضعيف أو لأن الإنكشارية جنود مرتزقة همها العــنف ، ولكــن لأن بايزيد لم يكن يريد فتح جبهة داخلية عليه ، إضافة إلى الجبهات الخارجية ، فآثر أن ينفذ رغباتهم، لكي يضمن ولائهم في الفتوحات وفي صراعه مع الشاه إسماعيل الصفوي .

ولــنرى الآن لمــاذا فضــل الإنكشارية سليم على باقي أبناء بايــزيد ، لقــد كان للسلطان بايزيد ثمانية أبناء ، توفي خمسة منهم وهــو على قيد الحياة ، وبقي ثلاثة أبناء ، [1] وكان الثلاثة مختلفي الأهواء ، فخشي والدهم من وقوع فتنة بينهم مما دعاه إلى تفريقهم فعين احمد والياً على أمسيا ، وكوركود والياً على صاروخان ، أما سـليم فولاه على طرابزون[*]، وكان أحمد شخصية يحبها الأعيان وكبار الدولة، إضافة إلى أنه كان أكبر الأبناء فعينه في ولاية العهد، وكوركود كان ميالاً للعلم والعلماء، ومحباً للآداب ، فلم يتقرب منه

---

[1] عبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص٥٠٤ .

[*] طرابــزون : مديــنة تركية أسيوية " الأناضول " تقع على البحر الأسود ، وموقعها أعطاها أهمية اســتراتيجية س. موســتراس : المعجــم الجغرافــي للإمبراطورية العثمانية ، ترجمة عصام محمد الشحادات ، الطبعة الأولى ، بيروت: دار إبن حزم ، ١٤٢٣ هــ ، ص ٣٤٥ – ٣٤٦ .

الجـــند ، أما سليم فقد كان يلعب بالورقة الرابحة عند الجنود وهي ميله للحرب ، وحبه لها ممّا جعل الإنكشارية تميل إليه . [١]

لكـــن وضع أحمد في ولاية العهد لم يعجب الإنكشارية الذين كانوا تواقين للحرب والجهاد ، خاصة بعد مرور فترة من الحروب الدفاعـــية فـــي عهد بايزيد ، وإصابته بمرض النقرس ، وهو أكثر الأمـــراض شيوعاً في آل عثمان . إضافة إلى ضعفه وقلة حركته ، وميله للسلم والكف عن سفك الدماء ، وتركه للسفر سنين طويلة إذ لم تزد في عهده أملاك الدولة كثيراً ، وكانت حروبه مجرد الحفاظ علـــى الدولـــة ، وعقـــده مع الأعداء البيزنطيين هدنة مدتها عشر ســـنوات ، ممـــا جعـــل الإنكشارية تثور لكثرة راحتها وسكونها ، وتطالـــب بسلطان قوي قادر على السفر ليجاهد بهم في سبيل الله ، فـــاتجهوا إلـــى ســـليم لأنـــه أجلد إخوتهم ، وأكثرهم ميلاً للحرب والفتوحات ، إضافة إلى جرأته وصرامته في اتخاذ القرار حتى لقب بـــ "ياوز " [*] [٢]

كمـــا أن ســـليم كـــان يعتـــبر جميع الولايات الأوروبية دار الحـــرب ، لذلك أراد ولايتها رغـــبتاً في الجهاد ، وهـــذا السبـــب

---

[١] محمـــد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص١٢٧ . بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص١١٠ . خليل إينالجيك : مرجع سابق ، ص١٠١ .

[*] معناه الحاد الباتر العنيد ، القوي . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٠٥ .

[٢] علـــي إبراهـــيم البويتجي الشافعي : سلوك سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد يشتمل على تاريخ ســـلاطين آل عثمان ، محفوظ في مركز البحث العلمي بجامعة أمر القرى تحت رقم ٦٧٥ تاريـــخ ، ورقـــة ٢٣ . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ١٨٧ . عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٠٥ ، إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٠٧ .

جـــعل الإنكشارية تساعده في التمرد على أبيه بايزيد الثاني . [1]

وقد كان لعقد الهدنة مع البيزنطيين عشر سنوات ، أبلغ الأثر في ميل الإنكشارية لسليم ، حيث رغبت فيه لعلو همته ، ولأنه شاب محـــارب، أما بايزيد كان رجلاً كبير في السن صالحاً مباركاً ، لا يحـــب العظمة ولا التجبر ، حتى أن أغا الإنكشارية يونس أغا مال لســليم [2] ولـــم ترتاح الإنكشارية لتعيين أحمد ولياً للعهد ، فعندما طلبوا منه زيادة رواتبهم لم يجب طلبهم بسبب عدم وجود أعمال لهم في تلك الفترة،فحنقوا عليه وقرروا أن لا يتولى هو عــليهم أبداً. [3]

فـــي هـــذه الأثـــناء لـــم يقبل سليم تعيين أبيه له على ولاية طرابـــزون ، وتـــرك مقر الولاية وسافر إلى كافا من بلاد القرم ، وطلـــب من أبيه أن يعينهُ في إحدى الولايات الأوروبية ، فلم يقبل الســـلطان ذلـــك وأصر على بقاء سليم في طرابزون ، فحدثت بين السلطان وسليم مشادة ، أصر خلالها سليم على القتال ، الأمر الذي دفـــع بســـليم إلى العصيان وتجهيزه جيشاً كبيراً من قبائل التتار ، وســـار بـــه إلـــى بلاد الروملي ، فأرسل له والده جيشاً ليرهبهُ ، وعـــندما لمس السلطان من إبنه التصميم على الحرب، قبل بمطالبه

---

[1] محمود شاكر : مرجع سابق ، ص٩٤ ، ٩٥ ، للاستزادة عن صراح بايزيد مع أبنه سليم الرجوع محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٨٦ ، ١٨٧ .

[2] محمـــد الزنبلـــي الرمال : سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن بايزيد بن السلطان محمـــد الفـــاتح القسطنطينية من الحروب والقتال ، محفوظ في مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى تحت رقم ٦٣٢ تاريخ . ورقة ٥ . انظر جيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٥ .

[3] المرجع السابق ، ص١٥ .

وتـــم تعيـــنهُ في سمندرية (*) وودين (**) حقناً للدماء وكان ذلك عام ٩١٧هـــ / ١٥١٢م . [١]

فـــي هـــذا الوقت غادر السلطان بايزيد العاصمة إستانبول ، وذلك بعد وفاة إبنه شاهنشاه ، واشتد عليه المرض ، وفي هذا الوقت وجـــد كل واحد من أبناءه الثلاثة المتصارعين على الحكم أن خلو العاصـــمة من السلطان فرصة بأن يجمع جيشاً ويتوجه به للعاصمة وينصـــب نفسه سلطاناً على العثمانيين ، فولي العهد أحمد قد أرسل لـــه الســـلطان بايزيد الثاني ليأتي ويبقى بجواره إذا ما وافاه الأجل المحتوم ، لكن الإنكشارية لم تسمح بدخوله العاصمة مع جيشه ، بل واتهمـــوه بعدم الكفاءة وتمردوا عليه . وبما أن أحمد لم يكن يطمع في الملك ، فقد رأى أن الإنكشارية لا يريدونه سلطاناً عليهم ، فهو أيضاً يكره ذلك . [٢]

أمـــا كركود فقد علم بنجاح تمرد أخيه سليم فانتقل إلى ولاية صاروخان واستلم إدارتها دون أمر أبيه ، وذلك لكي يكون بالقرب من العاصمة إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، لكن بايزيد أرسل له جيشاً

(*) ســمندرية : معــناها أندريا وهي مدينة واقعة على نهر الطونة وتبعد ٤٥ كيلو متر عن العاصمة بلغراد ، ولها أهمية حربية عظمى ، وهي تعريف من أندريا .

(**) وديــن : مديــنة حصينة في الشمال الغربي من بلغاريا ، قرب الحدود اليوغسلافية تقع على نهر الدانــوب ، لها أهمية حربية كبرى ، تبعد ٢٢٥ كيلو متر عن بلغراد . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٥٥– ١٨٦ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص١١٠ ، ١١١ .

[١] مصـــدر سابق : ص١٨٦ . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص١٤٠ . محمود شاكر : مرجع سابق ، ص٩٤.

[٢] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٨٧ . عبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص ٥٠٦ – ٥٠٧ . أيضاً محمد سهيل طقوش : ١٢٧ – ١٢٨ حبيب السيوفي ، ص١٥ .
أرشيف توب قابي سراي ، ٢/٥٨١٤ E .

تمكن من هزيمته . [١]

أما سليم وهو الأهم فلم يقتنع بولاية ودين وسمندرية ولم يهدأ باله، فقد عرف أن الحرب آتية لا محالة في ذلك ، ولكنه كان يقول " ليحدث ما يحدث " وكانت الإنكشارية تسانده في جميع المراحل ، وتقـوي من ساعده ضد أبيه، وزينت له أن يسير إلى أدرنه ويعلن نفسـه سـلطاناً ، فجمع قواته وسار إلى أدرنه وأعلن نفسه سلطاناً عليها ، فأرسل له والده من هزمه وجعله يفر إلى بلاد القرم ، لكن الإنكشارية بدأت بالإلحاح على السلطان حتى يعفو عنه ، ويعيده إلى سمندرية ، ووافق بايزيد وأصدر خط شريف بذلك . [٢]

ولـم تلبث الإنكشارية أن ألحّت على السلطان حتى يعين إبنه مكانـهُ ويتـنازل عـن العرش ، فخاف بايزيد على دعائم الدولة ، وأشـار عليه وزرائه بأن ينزل عن العرش لإبنه وينسحب ، فوافق السـلطان حقناً للدماء ومحافظة على الدولة ، وأثناء عودة سليم إلى سـمندرية ، سارت إليه الإنكشارية ، وتأكد أنهم معه ، وعاد معهم إلى إستانبول في احتفال زائد عن اللائق ، وساروا به إلى السراي ، حيث تنازل بايزيد عن الحكم في ٨ صفر سنة ٩١٨ هـ /٢٥ أبريل ١٥١٢م رغمـاً عن أنفه ، وبعد ذلك طلب سليم من أبيه أن يرحل إلى ديموتيقاً [*] وكان ذلك بعد التنازل بعشرين يوماً ، وأثناء رحلة

---

[١] بسام العسلي : ج٥ ، مرجع سابق ، ص١١١ .

[٢] محمـد فـريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٨٧٥ . انظر عبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابـق ، ص٥٠٦٥ – ٥٠٧٠ . انظر بسام العسلي : ج٥ ، مرجع سابق ، ص١١١٥ .

[*] ديموتيقا : مدينة تقع إلى الجنوب من أدرنة في اليونان ، على الحدود التركية أنظر بسام العسلي : ج٥ ، مرجع سابق ، ص١١١ .

السفر وافته المنية عن عمر يناهز السبعة والستين عاماً ودام حكمه اثنين وثلاثين سنة . (*) [1]

وهكـــذا نجد أن سليم الأول قد تولى العرش ، بحركة إنقلاب حقيقـــية، من قبل الإنكشارية لأنهم رأوا فيه السلطان المجاهد . مما جعلـــه دائماً يأخذ رأيهم وشعروا هم كذلك بأنه يدين لهم بالعرش ، فضـــلاً عن الانتصارات الواسعة التي أحرزوها مما جعل السلطان سليم يغمرهم بالعطايا في كل مناسبة ، وربطهم مباشرة بشخصه ، فتمكن بهذا الأسلوب من السيطرة على كل أمورهم . [2]

وهـــنا نجـــد أنهـــم رفعـــوه لكرسي العرش ، ولكنهم طالبوا بالـــثمـــن ، وهذا يدل على مبلغ قوتهم وطمعهم ، فقد تصدوا لولي العهد أحمد بكثرة عددهم ومنعوه من دخول العاصمة ، ونصبوا بدلاً منه سليم مما يدل على إمساكهم بزمام الأمور جيداً .

(*) لقد تحدثت بعض المصادر التاريخية على أن بايزيد لم يمت ميتة طبيعية وأن سليم أرسل من دس لـــه السم في طعامه وقالوا أنه من طبيبه اليهودي ، وبذلك مات بطريقة مشكوك فيها لأن سليم خاف مـــن عودتـــه للمنصـــب كما فعل مراد الثاني ، وقد أورد ذلك محمد فريد المحامي وحبيب السيوفي وألبرت هويولبير . .

ولكـــن قصـــة كهـــذه لا يجزم بحقيقتها أبداً إذا ما وضعنا في اعتبارنا أن بايزيد كان طاعناً في السن مريضـــاً جداً وحزيناً على فقد عرشه وإبنه شاهنشاه فهذا يؤدي إلى موته هماً وحزناً وليس بضرورة أن يقتل . كما أن سليم غضب من أبيه لأنه عين أحمد في ولاية العهد وطالما هو أصبح السلطان فلما يقتل والده فلا معنى لخوفه من استرجاع العرش لكبر سن والده ولأن سليم تسانده الإنكشارية . .

(1) علي إبراهيم البويتجي الشافعي : سلوك سبيل الرشاد لمولانا السلطان مراد ، ورقة ٢٣-٢٤ انظر حبيـــب الســـيوفي : مرجع سابق ، ص١٥ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص١٢٧ – ١٢٨ . انظـــر بســـام العسلي : ج٥ ، مرجـــع سابق ، ص١١١، أنظر أحمد زين دحلان : مـــصدر سابق ، ص١٤٠ انظر محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني، ص١٣٢.

(2) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ١٨٧ . بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص١١٥ .

أمـــا تفصـــيل أولى مشاكلهم في عهد سليم عام ٨٧٥هـــ - ٩٢٦هـــــ/ ١٤٧٠م - ١٥١٩م فـــي أن ســـليم خـــرج إلى أسوار العاصـــمة حـــتى يودع والده المسافر ، وعاد إلى القصر ليـــباشر أعماله ، لكن ترامت إلى مسامعه أن الإنكشارية محتشدون في تمرد عســـكري في الطريق المؤدي للقصر في العاصمة يطالبوا بمكافآت ســـخية لقاء مساعدتهم ، فأنزعج السلطان من هذا التصرف وسلك طـــريقاً آخـــر وصل منه إلى القصر ، لكن الإنكشارية لحقت به وأضـــطر أن يدفـــع لكـــل واحد منهم خمسين دوكاً [*]، وزادوا في مطالبهم وطلب أحد رؤسائهم زيادة في المرتبات فضرب عنقه . [١]

وهكـــذا نجد أن الإنكشارية كان لهم دوراً واضحاً في تعيين سليم سلطاناً ، وكانوا في البداية مدفوعين بحب الجهاد وإعلاء كلمة الله ، ولكـــن هـــذا لـــم يمنع خطورة تدخلهم فيما يتعلق بتحديد من سيجلس على العرش وترجيح كفة على الأخرى . [٢]

تولى العرش بعد سليم الأول السلطان العثماني الشهير سليمان القانوني ٩٠٠هـــ- ٩٧٤هـــ/ ١٤١٤م- ١٥٦٦م ونستطيع أن نقول أن عهـــده كـــان أهـــدأ مـــن عهد بايزيد وسليم الأول ، وذلك لقوة شخصيته و مع ذلك حدثت بعض الاضطرابات في عهده بعد تدخل

---

[*] : دوكاً : قيل هو النقد الذهبي المضروب في البندقية قديماً ، وهي محرفة لكلمة دوكاتو الإيطالية ، وكانـــت تـــزن العملـــة مـــا بيـــن عشرة إلى اثنى عشر فرنكاً : سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية ، د. ط ، الرياض : مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢١هـــ / ٢٠٠٠م، ص١١٥ ، حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص ١٦ .

[١] عـــبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص٥٠٩ . محمد سهيل طقوش : مرجع سابـــــق ، ص١٤٩ .

[٢] ألبرت هويوليير : مرجع سابق ، ص٩٥ .

الإنكشارية في شؤون القصر السلطاني عندما دارت مؤامرة مقتل إبنهِ الأكبر مصطفى .

عنـــي السلطان سليمان كثيراً بإصلاح شؤون الجند ، إذ ألف فرقة لحراسة بلاطهِ إضافة إلى الاعتناء بالحدائق ، ولم يعجب هذا العمـــل الإنكشارية ، لكنهم لم يتجرأوا على الظهور بأسلحتهم أمام القصـــر السلطاني بل هجموا على منزل أمين بيت المال وقتـــلوه ، واســـتولوا علـــى أمواله ، بل وحاولوا نهب التحف الثمينة في أحد المســـاجد لكن قادة الإنكشارية منعوهم من دخول المسجد ، وقتلوا اثنيـــن من أكثرهم وقاحة ، إضافة إلى تذكيرهم بفضل المسجد وما للنبي صلى الله عليه وسلم ثم السلطان من حقوق وواجبات ، وتمكن الســـلطان بفضل حكمتهِ من تهدئة التمرد ، إضافة لشدة خوفهم من العقاب إذا ما استمروا على تمردهم.(١)

ومـــن أجل هذه التمردات والأعمال فكر السلطان سليمان في تشـــتيت رؤسائهم في عدة أماكن وقتل البعض وعزل الآخر ، من أجل أن يأمن شرهم . (٢)

وكـــان أكبر دور لعبته الإنكشارية في عهد السلطان سليمان القانونـــي مـــا حدث عند وفاة إبنيه مصطفى وبايزيد ، حيث تم قتل إبـــنه مصـــطفى بمؤامـــرة من زوجة أبيه روكسلانة " خورّم " (*)

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٨-١٩ .

(٢) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٠ .

(*) اللفظ الصحيح هوخُرمٌ ومعناه السعيد أو المسرور وليس الباسمة وفي أقليم كردستان من إيران بلد بإســـم خُـــرّم شهر أي البلد السعيد . كانت روكسلانه تثق برستم باشا فكاشفته عن رغبتها في القضاء علـــى إبن سليمان مصطفى ، فحاكوا مؤامرة مضمونها أن يكاتب الوزير رستم السلطان في أثـــناء =

بالاتفاق مع الوزير رستم باشا ، وذلك حتى يتولى الحكم بعد سليمان إبن روكسلانه سليم الثاني ، وقد أدى ذلك إلى تمرد الإنكشارية ولم يكـــن بسبب رغبتهم في زيادة الرواتب أو الأعطيات ، وإنما بسبب أن الوزيــر رستم باشا كان له ضلع في مقتل مصطفى الابن البكر للســلطان سليمان ، ففي عام ٩٦٠هــ / ١٥٥٣م ثارت الإنكشارية على السلطان والوزير معاً بسبب مقتل مصطفى ، لأنه كان محبوباً عــندهم وهم الذين قاموا بتربيته ، وثاروا جداً وطالبوا بعزل رستم باشـــا بـــل وقتلهِ ، فعزله السلطان تهدئة لنفوسهم ، وترضية لهم ، وعين بدلاً منه أحمد باشا . (*) (١)

أمـــا بايزيد الإبن الثاني فتشير المصادر أنه مات مقتولاً وأنّ الإنكشارية كان لهم دور في مقتلهِ ، وهم بذلك حققوا لأوروبا فوائد عظيمة أدت إلى توقف الفتوحات . (٢)

هناك رواية تقول بأن الذي قتله هو أبوه سليمان ، ولم يـــكن

= حـــربه مع الفرس ، ويوغر صدره على ابنه ويوهمه أن مصطفى يحرض الإنكشارية على عزل والـــده وتعيين نفسه سلطاناً ، كما فعل سليم الأول مع أبيه السلطان بايزيد الثاني ، وعندما وصل هذا الخبر إلى سليمان للأسف تغيرت أفكاره على إبنه ، وسافر لبلاد الفرس قاصداً إبنه متظاهراً بأنه يريد قيادة الجيوش ، وما أن دخل عليه إبنه في سرادقهُ حتى قتلهُ الحاجب الموكل له هذا الأمر خنقاً وبذلك مات إبنهُ مغدوراً به نتيجة وشاية وتدخل حريم . انظر محمد فريد المحامي: مصدر سابق ص٢٤٦ .

(*) لم يستمر أحمد باشا في منصب الوزير كثيراً ، إذا لم يهدأ بال روكسلانه حتى أغرت زوجها مرة أخـــرى على قتل الوزير البريء وإرجاع رستم باشا للوزارة مرة أخرى حتى ينفذ أغراضها ، وهكذا أصـــبحت ســـبب رئيسي في فساد حكم سليمان القانوني . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٤٦ .

(١) ألـــبرت هويوليير : مرجع سابق ، ص٩٥ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٤٦ – ٢٤٧.

(٢) ألبرت هويوليير : مرجع سابق ، ٩٥٨ .

للإنكشارية دخلاً في ذلك . [1] ولم يرد في المصادر التاريخية أن الإنكشـــارية اتفقت مع روكسلانه زوجة سليمان لقتل الأبناء ، ففي تلك الفترة لم يكن هناك اتفاق بين الإنكشارية وحريم القصر . ولكن خطورتهم كمنت في أن الإنكشارية لم يمنعوا سليم الثاني من اعتلاء العــرش ، فلو قدر لمصطفى أو بايزيد حكم الدولة لأختلف الوضع لأنهمـــا من أقوى أبناء سليمان وأكثرهم نشاطاً وحيوية وموهبة في إدارة دولة مترامية الأطراف . [2] أو بمعنى آخر لو قدر لهما حكم الدولة العثمانية لكانت السيادة العثمانية ستصل بصورة أكبر وأكثر ممـــا كانــت عليه ولتغير مــصير معركة لبانــتو سنة ٩٧٩هـــ / ١٥٧١م . وكذلــك حصـــار فينا ٩٧٩هـــ/ ١٥٧١م ولطال عصر القــوة فـــي الدولـــة العثمانـــية ولتأخرت سيطرة الإنكشارية على السلاطين والأحداث لفترة من الزمن .

بـــنهاية عصـــر ســـليمان تبدأ نقطة التحول في مسار الدولة العثمانية حيث بدأت بوادر عصر الضعف واتضحت الصورة التي بقيـــت عليها بعد ذلك وهي سيطرة قوى أخرى غير السلطان على الدولة وعلى السلطان نفسه .

توفـــي الســـلطان سليمان القانوني أمام قلعة سكدوار [*] وقد أخفى الصدر الأعظم صوقللي محمد باشا خبر وفاته حيث خاف من حدوث ما يربك الأمن العام أو قيام الإنكشارية بأي تمرد ، وأرسل

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٤٨ .

[2] محمد أنيس : مرجع سابق ، ص٧٩ .

[*] ســـكدوار أوســـكيتوا مديـــنة حصـــينة فـــي بلاد المجر . راجع إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثـــمانية ، ص١٠٩ .

إلـــى سليم الثاني رسالة بكوتاهيه (*) يخبره بوفاة السلطان سليمان ، وكـــان ذلـــك على يد رجل من رجال الدولة المؤتمنين (**) ، وبعد ثمانـــية أيـــام أقـــبل سليم الثاني مسرعاً إلى العاصمة ، [1] ودخل اســـتانبول وســـط مظاهـــرات صاخبة قامت بها الإنكشارية ، فبعد انـــتهائه مـــن الصـــلاة على أبيه أتجه إلى السراي السلطاني فعلى صـــراخهم وطالـــبوا بالعطايـــا والهبات التي جرت عليها العادة ، واتجهوا للوزير وطالبوا بها ، فلم يستمع لهم ، فقرروا الوصول إلى السلطان الجديد . [2]

واعترضوا طريق سليم الثاني مظهرين استياءهم الشديد له ، بعـــربة مليئة بالتين ، وأوقفوا الموكب (***) وطلبوا الأعطيات من السلطان بمنتهى الجرأة ، لكي يسمحوا له باستكمال طريقه ، وطبعاً رضـــخ لهـــم ، حيـــث توجه له محمد صوقللي ، وقال له أنهم لن يـــبارحوا أماكـــنهم حـــتى يسمعوا منك الوعد بالعطايا والترقيات ، وبـــالفعل وعدهـــم بإعطـــائهم الأموال بل وزيادة المرتبات بمناسبة

(*) كوتاهـــية : تقـــع في غرب الأناضول إلى الجنوب من باليقيصر وإسكي شهر . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٦٩ .

(**) يدعى الرجل حسن جاويش . انظر إسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٠٩ .

(١) المرجع السابق ، ص١٠٩ .

(٢) عـــبد العزيـــز الشـــناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص٥١١-٥١٢ ، انظر إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق، ص٥٠٨ .

(***) لقـــد وقفت الإنكشارية عند مسجد شاه زاده حيث دبروا لملاقاة سليم الثاني ، واعترضوه بعربة فـــيها أعشاب وتين ، وأبدو ضجرهم أمامه ، عندما أراد أحد الوزراء تهدئتهم صرخوا به وقالوا نحن ليس عبيدك أو أنت صاحب الأمر والنهي ، وأوقعوه أرضاً وكل قائد أو وزير يتكلم يوقعوه أرضاً ولم يرضوا بأي ، تهدئة ، وأغلقوا باب السرايا حتى تم صرف الأعطيات . انظر إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٠٤ .

جلوسه على العرش ، حتى سمحوا له بالمرور والوصول إلى السراي ، وهكذا فتح الباب لعصيان الجيش وشق الطاعة على السلطان ، وبدأت القلاقل تدق الأبواب العثمانية .[1]

وهنا يتضح مدى ضعف شخصية سليم الثاني وعدم مناسبتهُ للحكم ومدى خوف الصدر الأعظم منهم لإخفاء خبر الوفاة ثمانية أيام وفي أثناء هذه التمرد طالبوا السلطان بزيادة مرتباتهم بمناسبة جلوسه على العرش[2] وقد أعطاهم ضعف رواتبهم خوفاً منهم [3] .

ويعتبر هذا العمل تدخلاً سافراً في حياة القصر السلطاني مع بروز حسد الإخوة بين بعض وتدخل الحريم بالأمر .[4]

وعند سفر سليم الثاني إلى بلغراد صحبتهُ الإنكشارية ، وعندما طالبوا بزيادة الرواتب ولم يلب رغبتهم ، أظهروا في طريق العودة التذمر وعدم الانصياع للأوامر وأتوا كثيراً من قبائح الأعمال وأسوأها ، وقد أرسل سليم الثاني إلى إستانبول ليرسلوا له الأموال ، فأرسل له الصدر الأعظم يخبره بفراغ الخزينة وعدم وجود أموال بها إلا قليلاً، وأرسلها له ، فصرف لهم بعض العطايا ووعدهم بالباقي عند عودته إلى إستانبول .

وبدأ المسير لكن الإنكشارية قررت التشاور في الأمر عند التوقف في منطقة " لتروز " ، وتم القرار هناك ، أنه بعد دخول

---

(1) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٠٨ عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص ٥١٢ علي حسون : مرجع سابق ، ص١١٣ إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار ، ج١ ، ص٥٢٣ .

(2) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٠٨ .

(3) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٩ .

(4) محمود شاكر : مرجع سابق ، ج٨ ، ص١١٣ .

إســـتانبول ، يقومـــوا بـــالوقوف والتجمهر والتمرد ، بل وبدأوا في الاعـــتداء على الوزراء، ومن ضمنهم الوزير الثاني برتو باشا (*) عندما أراد تهدئة ثائرتهم فقبضوا عليه وقتلوه وأهانوا فرهاد باشا ، وفـــي النهاية أشار الأمراء والصدر الأعظم على السلطان أن يهدأ ثورتهـــم بنفســـه فـــتكلم معهم وسكن نفوسهم وصرف لهم المقدار المتبقـــي من المال (**) ، ثم ضرب الصدر الأعظم على يد العصاة وعاقب المتمردين ، وبذلك خاف الباقي وسكنوا إلى الهدوء . (١)

وهكـــذا قامـــت ثورتهـــم داخل القصر السلطاني وخارجه ، وأغلقـــوا الأبواب على السلطان ، وذلك بسبب ضعف الحكم وسوء التدبير والظلم وضياع الأموال ، وضعف شخصية السلطان . (٢)

وهنا نلاحظ خطوة مهمة عند الإنكشارية ، وهي تقديمهم على شخصية الوزراء بل وقتل بعضهم ، كما أنهم اتخذوا أسلوب التمرد وســـيلة للحصول على الأعطيات ، وهذا مؤشر خطير سيرتفع مع مـــرور الأعوام .

(*) برتو باشا : من أصل كرواتي ، أو ألباني ، كان مدير مالي في عهد القانوني ، تدرج في الوظائف حيـــث صار أغا الإنكشارية لمدة ١٢ عام ثم أمير أمراء الروملي لعب دوراً أثناء صراع سليم الأول مع أبيه بايزيد، ثم عيُن قائداً للأسطول العثماني ، وقام بعدة معارك بحرية ، وعلى عكس ما قيل عنه أنـــه فاشـــل وجبان فقد واجه الإنكشارية الغاضبة ونال منهم ضرراً كبيراً وقت اعتلاء سليم الثاني العـــرش ، توفي ١٥٧٤م وله زوجة اسمها فتوحة خاتون . الموسوعة التركية : ج٢٦ ، د.ط ، أنقرة ١٩٧٧م ، ص٤٧٦ ٤٧٧ .

(**) كـــان ســـبب تأخـــير توزيع المال فراغ الخزينة ، إضافة إلى عدم وصول الإيرادات للخزينة من الأقاليم . إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص١١٠ .

(١) مـــرجع ســـابق ، ص١٠٩ ، ١١٠ ، إســـماعيل حقـــي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٠٩ . علي حـــسون : مرجع سابق ، ص١٢٣ .

(٢) حسين كمال البغدادي القادري : ورقة ٢١ .

وفــي عهــد الســلطان مراد الثالث ٩٥٣هــ - ١٠٠٣هــ/ ١٥٤٦م -١٥٩٦م صــرف للإنكشــارية مائة وعشرة آلاف دوكة ذهبــية، وأعطي للوزراء أيضاً مثلها ، وذلك لكسب ودهم ومحبتهم ولكن هذه العطية لم تؤت ثمارها المرجوة مع مراد الثالث . [1] فقد انتشرت حالة الفساد العامة بين أفراد الإنكشارية والتي هزت جسم الدولــة مــنذ بدايــة عهــده ، حيث بدأت تظهر أن طاعتهم كاذبة ونظامهم خداع ، وانتشرت الرشوة بين الأفراد لنيل المناصب داخل القصر وخارجه . [2]

وفــي عهد مراد الثالث بلغ الاستهتار عند الإنكشارية مداه ، فقد ثاروا عليه لأنه صرف لهم رواتبهم بعملات ناقصة القيمة ، مما أدى إلــى تظاهرهم أمام القصر وطالبوا بالأموال الصحيحة ، وقد ســاعد على صرف هذه الأموال الناقصة تدخل اليهود في إستانبول بشكل كبير في الاقتصاد العثماني ، كما سبق وأن أوضحت ، وهم بذلــك ساعدوا على إشعال الفتنة عند الإنكشارية ، مما ساعد على إضعافها ، وهي التي تحمي الدولة العثمانية فتزيد بالتالي في ضعف الدولــة وهــو ما كان يريده اليهود ، وما أن تم توزيع هذه الأموال حــتى ثــاروا وتجمعوا حول القصر رغبة في قتل قائد الجيش ،[*] والدفــتر دار ، واستمروا على هذا الشغب حتى طلب منهم الوزير

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٥٩ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني : ص ١٣٣ علي حسون : مرجع سابق ، ص١٠٦ .

[2] دائرة المعارف الإسلامية بالتركية : مادة يني تشري ، ص٤٤ .

[*] قــائد الجــيش محمد باشا والدفتر دار محمود أفندي . أنظر دائرة المعارف الإسلامية بالتــركية ، ص٤٥ .

فـــرحات باشـــا ، الهـــدوء والســـكينة ، وقال أن طاعة ولاة الأمر واجـــــبة ، ولكنهم شكوه للمفتي ، حيث اعتبروا ذلك تحقيراً لهم ، فـــرد عليهم المفتي بأن لا يقلقوا من هذا الأمر ، مما زاد في الأمر ســـواءً ، وزادت ثائرتهم ، حتى طلب منهم السلطان أن يكفوا عن الشـــغب مقابل إعطائهم المال الصحيح ، وصرفت لهم من الخزينة أربعيـــن ألـــف دوكـــة ذهبية ، وقد نثرها " الخازندار " عليهم في محاولة لتهدئتهم.[١]

إلا أن هـــذا الأمـــر لم يفلح ، فقد استمر التمرد بل وطالبوا بـــرأس فـــرحات باشا لأنه حقرهم في دينهم ، بل وقتل قائد الجيش الدفـــتردار[*] إضـــافة إلى زيادة الأموال ، وهددوا السلطان بحرق المدينة ونهب المنازل مما جعل السلطان يحتاط داخل القصر ، كما تعـــدوا علـــى المفتـــي بالحجارة وعلى الوزير محمد باشا ، حتى اضـــطروا إلـــى دفعهم بالهراوات حتى يذهبوا إلى منازلهم آمنين. وإزاء هـــذا الموقف الخطير اضطر مراد الثالث إلى إصدار قرار يقضي بقتل قائد الجيش والدفتردار ، وقطع رؤوسهما وإلقائهما من القصـــر علـــى الجند حتى يهدأوا ، لكن ذلك لم يمنعهم من إشعال النـــيران في المنازل والفساد في المدينة ونهب بيوت الأهالي ، وتم توزيع مئة ألف دوكة ذهبية عليهم ، وهكذا انتهى تمردهم. [٢] بتنفيذ جمـــيع رغـــباتهم بالقوة دون نقص ، مع تزايد طمعهم . وقد ذهبت

---

[١] ســـليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص١٦،١٧ . أنظر دائرة المعارف الإسلامية بالـــتركية ، ص٤٥-٤٦ . انظر جوزيف فون هامر : مرجع سابق ، ص١٣١ .

[*] الدفتردار أي ناظر المالية " كوزير المالية في وقتنا الحالي .

[٢] مرجع سابق ، ص ١٣١ . انظر دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص٤٥-٤٦ .

هاتـــان الشخصـــيتان ضحية لطغيان الإنكشارية . وكان في قتلهما تحديـــا لإرادة السلطان مراد الثالث حيث أرغموه على الأقدام على أمر ضد رغبتهِ .

والواقـــع أن تمرد الإنكشارية في عام ٩٩٨ هــ/ ١٥٨٩م لم يكن حادثاً سهلاً في التاريخ العثماني، بل كان ذو تأثير ووقع كبير ، فقـــد ازدادت بعدها شوكة الإنكشارية ، وأصبحت لهم صلاحيات ، ونفوذ في القصر السلطاني أكثر من السلطان ، بالإضافة إلى دخول عناصـــر جديـــدة فـــي صـــفوف الإنكشارية ، وكان هؤلاء بمثابة جواســـيس على الدولة ، مما مثل خطورة على أمن الدولة الداخلي والخارجي . (*) (١)

وقـــد أكد المؤرخون أن عدد تمرداتهم في عهد مراد الثالث ، بلـــغ عشر تمردات ، وكان المحرك الأساسي لكل واحد هو تأخير رواتبهم مدة طويلة . (٢)

وهكذا كانوا يرون ما سيحدث في أحوالهم داخل القصر وإذا لم يستجيب لهم أحد ثاروا وقاموا بالفساد . (٣)

وكانـــت زيادة التمردات في عهد مراد الثالث مردها إلى عدة أسباب أخرى منها أنه أمر بضم عدد كبير من المجندين المسلمين ،

(*) لقـــد أرجـــع بعـــض المؤرخين الوضع الحالي في تركيا الآن من تدخل للجيش في أمور الدولة ، ووجود صلاحية للجيش في تغيير السلطة إنما يعود بجذوره التاريخية إلى تمردات الإنكشارية ، انظر سليمان قوجسه باش : مرجع سابق ، ص١٨ .

(١) مرجع سابق ، ص١٧-١٨ .

(٢) جيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٠ .

(٣) حسين كمال البغدادي القادري : ورقة ٥٥ .

فترتـــب على ذلك إلغاء الحظر المفروض عليهم بعدم الزواج ، وقد طالب الإنكشارية بذلك وثاروا ، فاستجاب لهم السلطان . [١] إضافة إلى دخول عناصر جديدة تفتقر إلى التدريب والمهارة العسكرية في صفوف الإنكشارية ، ساهم في إثارة الشغب والأعمال السلبية التي لا تخـــدم توجـــه الدولـــة واهـــتماماتها . وبالطبع هذا الخليط غير المتجانس لا يمكن أن يكون قادراً على خوض معركة أو فتح بلاد .

وبالمقارنـــة بمـــا حدث متأخراً في تركيبة الجيش الإنكشاري سيتضـــح الفرق الشاسع ، فعندما كان الجيل الأول من الإنكشارية مـــتقارب فـــي تكوينه ويعيشون في ثكنة واحدة ، في سن متقارب نشـــأوا كفـــرقة واحـــدة، متجانســـين متفاهمين ، استطاعوا تحقيق الفـــتوحات العظـــيمة لأنهم بنيان واحد ، أما ما حدث في العصور المـــتأخرة من اختلاط كبير غير متجانس في الجيش الإنكشاري فقد كـــان له آثـــاره ، بحيث أصبح الجيش يمثل عبأً كبير على كاهـــل الدولـــة ، إضافة إلى ما يثير من شغب وقلاقل وفساد ونهب وغير ذلك من الأعمال التي لا تنتهي . [٢]

وينتهي عهد مراد الثالث الذي يعتبر نقطة التحول الحقيقية في أعمال الإنكشارية، ويأتي بعده محمد الثالث ٩٧٤هـــ – ١٠١٢ هـــ/ ١٥٦٦م – ١٦٠٣م الذي شهد زيادة في تمرد الإنكشارية وتدخلاتهم في السلطة دون رادع . [٣]

---

[١] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ص٢٥١ .

[٢] مرجع سابق ، ص٢٥١ .

[٣] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٤ .

وقد ترك السلطان محمد الثالث الحبل لهم كما أرادوا وأهمل شــؤون دولته وغرق في الملذات والسمر ، ونتيجة لإهماله لشئون البلاد عمت الفوضى في القصر السلطاني وسائر أنحاء البلاد .[١]

وكــان أهــم تمــرد للإنكشارية في عهــده عام ١٠٨١هـــ / ١٥٩٩م وكان السبب الرئيسي لتلك الحركة امرأة يهودية من الحريم إســمها إســتركيرا تعمل وصيفة عند إحدى أمهات السلاطين وهي نوربــانو ، وقــد اشتهرت هذه المرأة بأنها كانت تتلقى رشاوي في مقــابل تســهيل منح الرتب والإقطاعيات لمن يريد من الأغنياء ، وحققت بذلك أموالاً طائلة وقد استطاعت أن تُعيّن شاباً يهودياً كاتباً للواء الإنكشارية ، فرفضوا هذا الأمر وثاروا عليها ودخلوا منزلها وقتلوها وصادروا أموالها، [*] التي بلغت خمسة ملايين أقجة .

ويعتبر هذا التمرد من التمردات المقبولة في أسبابها ، فلم تكن لطلب المال أو عزل سلطان أو صدر أعظم ، وإنما كانت ضد عمل خطير يمس سياسة الدولة العامة .

وفي عهد محمد الثالث كان الصدر الأعظم حسن باشا مشهور بأنــه لا يولــي أحــداً في منصب إلا بالرشوة ، فثارت الإنكشارية باســتانبول وهجموا على السراية ، وطلبوا من السلطان ، مقابلتهم علــى الباب الخارجي فهددهم وسأل عن طلبهم ، فقالوا إن الصدر الأعظم مذنب، فــرد عليهم السلطان ، هــذا رأيكم ، سوف أرى ما

---

[١] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٣ .

[*] وقد ذكرت توضيحات عن هذه التمرد في تاريخ نعيماً حيث ذكرها كسبب رئيسي لحدوث التمرد . انظر سليمان قوجسه باشي : مرجع سابق ، ص١٨ .

لصالح الدولة (*) (١)

وفـــي غُمرة الأحداث السابقة قامت الإنكشارية بتمرد عنيف امتدت مضاره إلى داخل القصر السلطاني ، وكان سبب هذه التمرد تأخر دفع رواتب الجند لمدة طويلة ، مما جعلهم يجتمعون في ساحة القصر الداخلية، كل يوم مطالبين بحقوقهم ، وعندما لم يجدوا نتيجة ولـــم يعيرهم أحد انتباهه ، قاموا بإشعال النار في القصر بمن فيه ، وعـــندئذ صحا السلطان من غفوته بين الحريم في القصر ، وطلب مـــنهم إرسال من يمثلهم ، فتقدم رئيس (**) الوفد من السلطان وشكا إلـــيه بكـــل جرأة الظلم الذي وقع عليهم ، وطلب من السلطان أن يضــــرب عنق الصدر الأعظم ورئيس الخصيان ، إضافة إلى دفع رواتب الموظفين ، ولم يرفض السلطان طلباتهم ، " ثم تعيين فرهاد باشـــا (***) في الصدارة العظمى " فأمر بإحضار رئيس الخصيان والصـــدر الأعظم واللذان حاولا تبرئة نفسيهما ، بأن قالا أنهما كانا ينفذان أوامر السلطانة الوالدة ، ولكن ذلك لم يفيدهما بشيء ، حيث

(*) عـــندما لمـــس الشاه عباس ، شاه إيران ارتباك الدولة العليه ، هجم على العراق ، معتبراً أنها من أملاكه وأجداده. إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص ١١١ .

(١) مصدر سابق ، ص١١١ .

(**) كان أحد قادة الصباحين واسمه حسين ، حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٣ .

(***) فـــرهاد باشـــا : من أكثر الوزراء براعة في الدولة العثمانية ، تولى منصب الصدارة العظمى مرتيـــن ، فـــي عهد مراد الثالث ومحمد الثالث . تم إحضاره من ألبانيا وهو طفل وتم عزله وهو أغا الإنكشـــارية مـــن قـــبل سنان باشا ، فقد كانت علاقتهم على نزاع دائم ،ومات في "سجن يدي " قوله بتحريض من سنان باشا ، الموسوعة التركية : ج١٦ ، د.ط ، أنقرة ١٩٦٨م ، ص٢٥١ .

تم خنقهما أمام السلطان ، وألقيت جثتيهما أمام الإنكشارية مع أكياس النقود ، فكان هذا كفيلاً بتهدئة ثورتهم .[١]

وبعد ذلك حدثت حادثة أخرى في عهد أحمد الأول ٩٩٨هـ - ١٠٢٦هـ / ١٥٨٩م - ١٦١٧م ، حيث ثارت الإنكشارية على السلطان عندما منع تدخين التبغ [*] بفتوى أصدرها المفتي ، وتجمع الإنكشارية والجند في ساحة القصر حتى اضطر السلطان إلى إباحته مرة أخرى.[٢]

لقد زادت تعديات الإنكشارية على الأهالي ، وعلى رجال الدولة ، فتعدوا على القاضي العام وعاملوه معاملة حقيرة ، وعندما حاولت السباهية التصدي لهم اشتبكت معها الإنكشارية وقتلت منهم الكثير، ونفت الباقي ، فشكوا للصدر الأعظم هذه المعاملة القاسية ، إلا أن الصدر الأعظم لم ينصفهم ، وانحاز إلى الإنكشارية على الرغم أنه يعلم أن هذا العمل سيغضب الأهالي عليه ، لكن الإنكشارية انقلبت عليه ، لأنه ليس لها حليف ، وتم عزل الصدر الأعظم وتعيين غيره . [٣]

كانت العادة المتبعة في تعيين السلاطين ، إختيار الإبن الأكبر للحكم ، ولكن السلطان أحمد الأول خالف هذه العادة وأوصى بالحكم لأخيه من بعده لصغر سن إبنه ،[٤] فتولى أخيه مصطفى

---

[١] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٣ ، ٢٤ .

[*] لقد أدخل الفلمنك استعمال التبغ إلى البلاد الإسلامية أي تدخين الدخان ، أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٥ .

[٢] مصدر سابق ، ص٢٧٥ .

[٣] كامل باشا : ج٢ ، مصدر سابق ، ص٤٤ .

[٤] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٥ .

الأول الحكم (*) ١٠٠١هـ - ١٠٤٨هـ / ١٥٩٢م - ١٦٣٨م وفي عهده لعب الإنكشارية دوراً في السلطة داخل القصر ، لا سيما وأنه كان قليل الخبرة ، ضعيف الإرادة ، فغدا ألعوبة في يد الإنكشارية . ولهذا لم يستطع القيام بأعباء الحكم في الوقت الذي كان لابد فيه أن يتم تنصيب عثمان الثاني الشاب الذي كان قوي البنية ، سليم العقل ، معافى ، لسبب لم يعرف حتى الآن . (١)

ترى الدراسة أن الإنكشارية اختارت تنصيب السلطان الأنسب لها، لا سيما أن مصطفى الأول كان ضعيف الشخصية مسلوب الإرادة ، وهو ما أرادته الإنكشارية لاستمرار نفوذها الذي بنته في عهد أحمد الأول ومن سبقوه ، كما أن أحمد الأول هو من وضعهُ في ولاية العهد ، لصغر سن ابنيه عثمان ومراد ، كما أن الإنكشارية نصبتهُ حتى تأخذ العطايا والهبات التي تصاحب تولي كل سلطان ، وقد أرادته الإنكشارية لكي تسيطر على مقاليد الحكم ، ويبدو أن هذا هو السبب . أما عن عزله فلم يعرف سبب ذلك ، فقيل أنه عزل لاختلال في عقله ، ولكنهم كانوا يعلمون أنه يعاني من ضعف في البنية ، والإرادة ، فهذا سبب واهي ، كما وأن الإنكشارية لكي تبرر عزله أطلقت هذه الكذبة ، ساعدها في ذلك قلة

(*) مصطفى الأول : قضى هذا الأخير طوال عمره داخل سراي الحريم في القصر السلطاني ، ولم يعرف أشغال الدولة مطلقاً ، ولم يعرف من الأمور السياسية شيئاً كما كان عادة بني عثمان أن يولوا الأمراء الصغار بعض المدن والولايات للتعرف على الأمور السياسية ، لقد ولي السلطنة مرتين وخلع مكرهاً من العرش مرتين ، كان ضعيف الإرادة لا رأي له وكان ألعوبة في يد الإنكشارية والمنتفعين من حوله . راجع محمد جميل بيهم : أوليات سلاطين تركيا ، د. ط ، صيدا : مطبعة العرفان ، ١٣٥٠ هـ ، ١٩٣١م ، ص٢٧ .

(١) عبد القادر ده ده أوغلو : ألبوم العثمانيين ، ترجمة محمد جان ، د. ط ، استانبول : الدار العثمانية للنشر ، د.ت ، ص٦٠ .

خـــبرته السياســـية، أو ربمـــا لأن الإنكشارية تاقت نفسها للعطايا والهبات.

وقـــد حصلت الإنكشارية على حوالي مليوني دوكا ، كهبات وعطايـــا بمناســـبة جلوسهُ ، وانتقل من قصر داود باشا إلى القصر الهمايوني لتولي مقاليد الأمور . [١]

عـــندما رأى المفتي أن " مصطفى الأول " لا يملك من الهمة والدراية السياسية ما يؤهله للجلوس على عرش آل عثمان ، حاول إثـــارة الإنكشارية عليه ، ولكن الإنكشارية كانت تريده لكي تسيطر علـــى الأمـــور، وعـــندما غادر الإنكشارية العاصمة بقيادة الصدر الأعظم لمقاتلة الفرس، انشغل السلطان مصطفى بأحواله ، ولم يبال بـــأمور دولـــته ، وأشاع المتآمرون عليه أنه يعزم على قتل أولاد أخـــيه ، لخوفه من أن يخلفوه ، وانتشرت هذه الشائعة حتى وصلت إلـــى مسامع الإنكشارية فسارعوا في العودة إلى العاصمة . وأثناء ذلـــك اســـتطاع القائمقـــام أن يخـــرج السلطان من العاصمة بحجة الصـــيد ، وأثناء غيابه دخلت الإنكشارية العاصمة . فسارع المفتي بإصدار فتوى بخلعهِ . [٢]

ومـــن جـــراء هذه الإشاعة الفاسدة التي لفقت له وبولغ فيها كثـــيراً صاحت الإنكشارية إليه مطالبة بتولية سلطان آخر ، وعزل مصطفى ولم تصل أيدي الإنكشارية إليه ، ولم يقتـــلوه بسبـــب عدم

---

[٢] كامل باشا : ج٢ ، مصدر سابق ، ص٤٤ .

[١] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٥-٢٦ .

وجوده في العاصمة ، وأتمت الإنكشارية ما أرادت . [١]

وعملـــت الإنكشارية على استبدال مصطفى الأول فلم يكن قد مضـــى علـــى ولايته ثلاثة شهور حتى خـــلعوه بمـــؤامرة سنـــة ١٠٢٦هـــ/ ١٦١٨م . بناء على فتوى من شيخ الإسلام أصدرها لعزلـــه وتولـــى عـــثمان الثانـــي الحكـــم.[٢] وقد اشترك في عزله الإنكشارية وأرباب الغايات،وعلى رأسهم المفتي وقيز لراغا سي[*] وهـــو أغا القصر السلطاني وذلك لـــتوزيع الهبات والعطايا عـــند تولي كـــل سلطان جديد . [٣]

تولـــى عثمان الثاني الشاب الحكم ١٠١٣هـــ - ١٠٣١هــ/ ١٦٠٤م - ١٦٢١م وقـــد حكم لمدة أربع سنوات وأربعة أشهر . [٤] واستهل حكمهُ بنشر النقود على الإنكشارية مكافأة لهم على تنصيبه سلطاناً .[٥]

وعـــندما بـــدأ بعض الإنكشارية يتعاطون شرب الخمر أجاز السلطان قانوناً بمعاقبتهم ، وأغلق حانات الخمر [٦] كان يقتل كل من يصـــادفه ثمـــلاً ســـواء من الإنكشارية أو أهالي المدينة ، وبما أن

---

[١] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٦ .

[٢] عبد القادر أوغلو : المرجع السابق ، ص٦٠ .

[*] قيز : معناها بنت وقيزلربنات والأصح أن تترجم هذه الكلمة بأغا المحظيات محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٦ .

[٣] مصـــدر ســـابق ، ص٢٧٦ . ســـعيد أحمـــد برجاوي : الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري ، د.ط ، بيروت : الأهلي للنشر والتوزيع ، ١٩٩٣م ، ص١٥١ .

[٤] مؤلـــف مجهـــول : مخطـــوط تـــاريخ آل عـــثمان ، محفوظه في مركز الملك ، فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية تحت رقم ٦٠٠٤١٩ ، ورقة ٣٥ .

[٥] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٦ .

[٦] أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص١٩٥ .

الإنكشارية كانوا يميلون أكثر من سواهم إلى شرب الخمر ، فمعظم مـــن قـــتلوا من أفرادهم . وشيئاً فشيئاً أخذت الإنكشارية تضمر له الســـوء والشر ، ومما زاد في الأمر سوءاً أن الصدر الأعظم عزل أغا الإنكشارية عن منصب قائم مقام الصدارة ، مما زاد من حقدهم علـــى السلطان عثمان الثاني ، إضافة إلى أن السلطان كان لا يتفق مـــع الإنكشارية ويكرههم ويجاهر بمقته للإنكشارية على الرغم من تنصيبهم له فهو لا يثق بهم ويكرههم .[1]

وكـــان لإعلانـــه الذهـــاب إلى الحج ، ورفض كل محاولات رجـــال الدولـــة لإثـــنائه عن هذا السفر ، تصادف هذا مع عصيان الإنكشـــارية ، والتي كانت لا تريده أن يـــغادر القصر دون معرفة نيته .[2]

وبالنســـبة لهـــذا السلطان فإننا نجد أن تعدي الإنكشارية على السلطان والقصر بلغ مداه من القسوة ، والخشونةِ وعدم وجود رادع يثنـــيهم عن أفعالهم فقد كان نقطة تحول خطيرة في الدولة العثمانية ســـيطرت بعدهـــا الإنكشارية على السلطان ونسيـــت ماضيها في الجهاد .

وكان معروفاً أن سلاطين العثمانيين لا يخرجون للحج برغم أنهم خلفاء ، لأن مناسك الحج تستغرق وقتاً طويلاً ، مما يؤدي إلى ابتعاده عن أعمال الدولة مدة طويلة ، وقد كانت لهم فتاوي صدرت مـــن شـــيوخ الإسلام تفيد بأن أداء السلطان لعمله في العاصمة ،

---

[1] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٦-٢٧ .

[2] يلماز أوزتونا : مصدر سابق ، ج١ ، ص٤٦١ .

واشتغاله بأمور الدولة والأهالي ، عبادة تفوق عبادة الحج . وما هي إلا ساعة حتى اجتمعوا أمام سراي طوب قابي ثائرين ، حاملين في أيديهـم الفـتوى التي حصلوا عليها من شيخ الإسلام خوجة أسعد أفندي ، والتي تقول " لا لزوم لحج البادشاه (أي السلطان) ، البقاء فـي مكانهم والحكم بالعدل أولى لهم. حتى لا تكون هناك فتنة " . وكانت الإنكشارية ترغب بعدم مغادرة عثمان لإستانبول ، فما كان مـنه إلا أن مزق الفتوى وألقاها في وجوههم وأصر على الخروج للحـج ، فأنقلب الوضع إلى تمرد ، فتأكدت الإنكشارية أن السلطان سيبطش بهم مع أول فرصة ، وهنا نجد أن السلطانة الوالدة ، والدة مصـطفى الأول تعاونـت مع الإنكشارية في هذا التمرد ، [1]وكان ذلك من أهم أسباب التمرد على عثمان الثاني ، وقد برز فيها تدخل الحريم بشكل كبير مما أدى إلى مقتل عثمان في النهاية .

وخـير دليل على سيطرتهم على القصر ، ما حدث للسلطان عثمان الثاني عندما أراد أن يتزوج من أخت السلطان محمد الثالث مـع عـزمه على إبطال الإنكشارية ، ولكن العلماء ورجال الدين حذروه من عاقبة هذا التصرف ، ومن العاصفة التي ستهب عليه ، وأنـه لن يرى من رعيتهُ إلا العصيان والتمرد والتخريب ، فأجابهم بغطرسة بأنه سيمحق كل ما يعترضه ، وأنه سيبيد الإنكشارية على الخصوص عن بكرة أبيهم ، ويقتلهم وسيسحق علماء الشريعة سحقاً فألقى هذا الجواب الرعب والفزع في قلوب العلماء ، وانطلقوا إلى

---

[1] يلماز اوزتونا : مصدر سابق ، ج١ ، ص٤٦٢ ، ٤٦٣ .

جامع السلطان أحمد وأخبروا زعماء الإنكشارية بوعيد وتهديد السلطان لهم . [1]

وما هي إلا لمحة عين حتى سار الشعب والجند إلى القصر السلطاني صائحين ، ومطالبين بضرب عنق الصدر الأعظم والشيخ عمر مؤدب السلطان ومستشاره وأكبر خصم لأغا الإنكشارية ، ومع كل الغيظ الذي يعتمل في نفوسهم ، والصخب الذي أحدثوه لم يؤذوا أحداً وعادوا إلى ثكناتهم يعدون العدة للانتقام . [2]

وعلم الناس بما أجاب السلطان فسيطر عليهم القلق والفزع واشتعلت بينهم نيران الفتنة وأصبحت الأوضاع داخل القصر غير مطمئنة وأنذرت الغيوم الملبدة في سماء القصر أن مأساة كبيرة ستحدث . [3]

وفي اليوم التالي مع طلوع الفجر ، خرجوا من ثكناتهم ، بكامل أسلحتهم وتوجهوا إلى القصر ، وأرسلوا الدفتردار إلى السراي ، نائباً عنهم وطالب برأس الشيخ عمر قوجه والصدر الأعظم وبعض الرجال من ذوي المناصب في الدولة مثل كبير أمناء بيت المال ، فزجرهم السلطان ورفض طلبهم ، غير مدرك لخطورة الموقف ، ورفض قطعياً إجابة طلبهم ، فهجمت الإنكشارية على جدران القصر وحطمتها ، والإنكشارية الباقية كانوا يحملون

---

[1] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٨ . انظر خليفة محمود : المرجع السابق ، ص٣٧٩ .

[2] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٨ .

[3] خليفة بن محمود : مرجع سابق ، ص٣٧٩ .

السـيوف فـي يديهم ، متأهبين لدخول القصر ، والفتك بمن فيه ، وعـندما حـاول الصـدر الأعظم تهدئتهم ثاروا وانـقـضوا عليه وقـتلوه . [1] كمـا أعـتقد العلماء أنه بالإمكان إقناع عثمان الثاني وإثناءه عن أسلوبه الفظ ، ولم يطلبوا خلعهُ بشكل قطعي . [2] وكان الشوربجي داود قائد الإنكشارية ، في أقصى درجة التمرد والهياج ، وعـندما صاح بهم رجل وقال " لا نريد سلطاناً إلا مصطفى . أين هـو . لـيأت ويجلس على العرش " وأخذت تردد الإنكشارية هذا القول . وانطلقت تبحث عن مصطفى ، في المكان المحبوس فيه ، واهـتدت لموقعـه وكسـروا سـقف الغرفة ببلطانهم ودخلت عليه الإنكشـارية فوجدته نائماً على فراش بالٍ ، وعنده خادمان أخرسان جالسـان أمامه ، استيقظ مصطفى على جلبتهم ، وظن أنهم جاءوا لقـتله فمـد لهـم عـنقه بكل خضوع وخوف ، فأكبوا على أقدامه يقـبلونها ، وقالوا له أنت سلطاننا ، فأخرج معنا ، وأخرجوه فما أن صـار في الهواء الطلق حتى أغمُي عليه ، وساروا به إلى جامعهم ونصبوه سلطاناً . [3]

وقـد حاول العلماء طلب العفو من الإنكشارية عن السلطان عـثمان الثاني ونصحوهم بأن يتركوا مصطفى وشأنه ، وهو الذي

---

(1) حبيـب السـيوفي : مرجع سابق ، ص٢٨ . يوسف أصاف : تاريخ سلاطين بني عثمان ، الطبعة الأولـى ، القاهرة : مدبولي ، ١٤١٥هـ – ١٩٥٠م ، ص٧٧ . للاستزادة عن هذا الصراع الرجوع إلى جوزيف فون هامر : مرجع سابق ، ص٢٢٨-٢٣٠ .

(2) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج١ ، ص٤١٣ .

(3) أحمـد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص١٩٥ – ١٩٦ . انظر حبيب السيوفي : مرجع سابـق ، ص٢٨ . للاستزادة الرجوع لأحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص ١٩٦ .

أرغمهـــم علـــى خلعه المرة الأولى لضعفه وعدم قدرته على القيام بمهـــام الدولـــة . وأثناء ذلك استيقظ مصطفى الأول من إغمائته ، وطلـــب أن يكـــون هو السلطان، فجردت الإنكشارية سيوفها مهددة العلمـــاء والمفتـــي بالقتل إذا لم يوافقوا ، فأقسم المفتي يمين الولاء لمصـــطفى ثـــم حـــذا حـــذوه جميع العلماء . [1] وفي أثـــناء هذه الأحـــداث ، علم السلطان عثمان ما جرى فأسرع على أمل أن يجد حـــلاً يجعل الثائرين يكفوا عن العصيان ، فنصحهُ ضابط الجند بأن يعطـــي العسكر خمسين دوكاً ، وخمسة أذرع من الجوخ ، وعندما ذهـــب للعســـكر ، وقال لهم ذلك ، تأثروا من صغر سنه وصرخوا ليتـــنحى عن الملك وإنما ليس لأحد أن يمسه بأذى فذهب من فوره إلى قصره .[2]

لكن الإنكشارية عادت وهجمت على أبواب القصر ، وسلطت مدافعهـــا حتى سقطت الأبواب ، ودخل الإنكشارية القصر كالسيل الجـــارف لا يـــردهم شـــيء ، حتى استطاعوا الوصول إلى مكان السلطان عثمان فأخذوه عنوة وشدوه خارج القصر ، وطافوا به في شـــوارع إستانبول طواف الازدراء والمهانة ، وبمنتهى الذل قادوه إلـــى قلعة ذات السبع [*] مع شتمهِ ونعتهِ بأبشع الألفاظ ، موسعينهُ ضـــرباً ، وسجنوه في هذه القلعة، بأمر من صاحب الديوان ، وكان هـــذا يحـــدث لأول مرة في تاريخ الدولة العثمانية ، حيث كان ذلك

---

[2] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٩ .

[1] مرجع سابق ، ص٢٩ . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص١٩٦ .

[*] تدعى بقلعة ذات السبع " يدي قوله " . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٨ .

إهانـــة وتحقير لهيبة السلطان ، ولم يكتفوا بذلك بل انـــتهكوا حرمة قـــصـــره بالقـــبض على نـــساءه وزوجاته والاستيلاء عليهن،[١] ونجحـــت الإنـــكشارية بذلك في خلع السلطان عـــثمان الثاني في ٩ رجـــب ١٠٣١هـــ/ ٢٠ مـــايو ١٦٢٢م ، بعد حكم دام أربعة سـنـــوات وأربعة شهور وكان عمره ثمانية عشر عاماً ، وأعيد مصطفى الأول مرة أخرى للحكم . [٢]

أمـــا عـــثمان سجنوه في نفس السجن الذي كان فيه مصطفى الأولـــى، والـــذي أصبح فيما بعد السجن الرسمي للدولة العثمانية ، وفي اليوم التالي للفتنة سلموه لرجال (*) موكلين به ، حيث كانوا في انـــتظاره ، وأوسعوه ضرباً وتولوا قتله شنقاً (**) حيث خنقوه بخيط مـــن حرير في ظلام السجن بشكل بشع منتهكة حرمة ولاة الأمر ، بأمر من داود باشا ، [٣] وهذا الصدر الأعظم قد عينته الإنكشارية ،

---

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٨ . انظر يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص٧٧.

(٢) محمد مختار : التوفيقات الإلهامية في مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الإفرنجية والقبطية ، ج٢ ، دراســة محمد عمارة ، الطبعة الأولى ، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٤٠٠هـــ – ١٩٨٠م ، ص١٠٦٧ . أنظر محمد فريد المحامي : ص٢٧٨ .

(*) أســماء الـــرجال الذين تولوا قتله هم : داود باشا وعمر باشا الكيفيا وقلنر أوغلي انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٨ .

(**) وردت روايـــة أن داود باشـــا اخذ السلطان عثمان الثاني إلى مكان آخر ليبعده عن الإنكشارية ، وفـــي اليوم التالي أمر بقتله أمامهم ، ثم قطع أذنه وأرسلها في صندوق إلى السلطان مصطفى الأول ، بعـــد أن كتـــب علـــيها "هدية يقدمها لجلالة السلطان وزيره الآمين المخلص " انظر حبيب السيوفي : مـــرجع سابق ، ص٢٩ ولكن هذه الرواية لا يجزم بحجتها لعدم إجماع المؤرخين عليها ، فقد وردت في مرجع واحد .

(٣) حبيب السيوفي : مرجع سابق، ص٢٩ انظر محمد الفريد المحامي ، ص٢٧٨ . محمد جميل بيهم: فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٤عبد العزيز الشناوي : ج١ ، ص٥١٤ . يوسف أصاف : ص٧٧ .

حيث قاموا في تلك الفترة بتعيين ستة وزراء كل من يدفع أكثر يتم تعيينه .[1]

لقـد كانت هذه الحادثة الأولى من نوعها في الدولة العثمانية وكـان قتل السلطان بهذه الطريقة البشعة لم يكن إلا نذير شؤم على الدولـة وإيذانـاً بقـوة سيطرة الإنكشارية على مقاليد الحكم ، لقد ارتكـبوا هـذه المعصـية والإثـم غير مبالين بالجرم العظيم الذي ارتـكـبوه ، ولقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بطاعة ولاة الأمر من دون معصية الخالق لقوله تعالى (**يـا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلـى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر**) [*] ولكن أين كانـت هـذه الآيـة عـن ذهنهم وهم يقومون بهذه الفعلة الشنعاء البغيضـة ، استهانوا بشخصية الحاكم وحطوا من قدر السلاطين ، فكانت إبادتهم أفضل من استمرارهم .

وهكذا أصبح السلطان عثمان الثاني أول ضحاياهم البارزين ، ونقطـة انطلاقـة جديدة للإنكشارية في اتجاه طغيانهم وجبروتهم ، وجـرأتهم وممارستهم لكثير من السيطرة على السلاطين ، إضافة إلـى العنف والقسوة مع الأهالي ، وابتزاز الأموال في أعقاب مقتل عثمان ، الذي أراد إبادة الإنكشارية ليتخلص من شرورهم فتخلصوا منه وقتلوه .[2]

---

[1] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٣ .

[*] سورة النساء ، آية ٥٩ .

[2] محمـد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٤ . انظر عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٠.

وأصبحوا مثل الطوفان الجارف الذي لا يرده شيء وبدلاً من أن يكونـــوا حـــماة للدولة أصبحوا من أهم معاول الهدم والتخريب فيها .

وبعـــد هذه المأساة نصبوا مصطفى الأول للمرة الثانية على الرغم من بقاء ضعفه في الحكم ، وأصبحت الحكومة العثمانية من يومهـــا ألعوبة في أيدي الإنكشارية ، تسلطوا على القصر السلطاني وأصـــبحوا يولون ويعزلون الوزراء كيفما شاءوا ويبيعون مناصب القصـــر والـــوزراء لمـــن يجزل العطاء ، وكان ذلك جهاراً وعلى مســـمع الناس ، وارتكبوا كافة أنواع المظالم في القصر وأصبح لا يردهم أحد .[١]

فمـــثلاً عـــزلوا داود باشا قاتل السلطان بعد بضعة أيام ، لقد ارتكـــب هـــذا الأخـــير عـــدة جرائم فقد قتل القائم مقام ، ورئيس الخصيان ، وثلاثة آخرين ولم يلبث أن تلقى العقاب الذي استحقه ، حيث هال الإنكشارية ما ارتكبه من فظائع فساقوه إلى نفس الحجرة التـــي قتل فيها عثمان الثاني وقتلوه هناك . ثم تقلد منصب الصدارة العظمـــى حســـين باشـــا الذي كان محبوباً من الإنكشارية ، فهدأت أحوالهم ، بتوزيع الأموال عليهم .[٢]

لقـــد جرت المؤامرة والتمرد بشكل لم يخطر على بال أحد ، فقـــد وقـــع العلمـــاء في حيرة من أمرهم ، خافوا من فكرة إجلاس مصطفى الأول ، والذي لا يصلح للحكم بأي شكل ، كما وأن مراد الـــرابع كان لا يزال دون العاشرة ، وأصبح واضحاً أن التمرد فقد

---

[١] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٩ .

[٢] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٩-٣٠ .

منطقيته ، وأن الإنكشارية ستضع مصطفى الأول حتى تحصل على إكرامية الجلوس ، ثم تخلعه وتحصل على إكرامية أخرى عند تعيين مـــراد الـــرابع وهذا يدل على طمعهم ، ومرة أخرى يظهر الحريم علـــى الســـطح بشكل سيء ، فقد حصلوا على وعود ورشاوي من والـــدة السلطان مصطفى الأول – السلطانة الوالدة – وأخته زوجة الوزيـــر داود باشـــا حتى يتم تعيين مصطفى الأول في الحكم ، فقد بـــايع العلماء السلطان مصطفى الأول تحت ظل السيوف ، ولأول مـــرة فـــي التاريخ العثماني منذ جلوس محمد الفاتح في ٨٥٥هـــ / ١٤٥١م يـــتم جلوس سلطان مرتين ، ولن يتكرر هذا الأمر بعد هذا الحادث .[١]

لقـــد كان رؤساء الإنكشارية يريدون الإبقاء على حياة عثمان خاصـــة وأن مصطفى معتل الصحة وغير قادر على الحكم ، لكنهم تلقوا أوامر من السلطانة الوالدة وأخت مصطفى الأول ، بضرورة قتل عثمان ، فلم يستطع رؤساء الإنكشارية التحكم في متبوعيهم من الإنكشارية .[٢]

وقـــد ظهرت هنا سطوة الحريم خاصة في هذا التمرد ، حيث استطاعوا تحريكه كما أرادوا ، فقد تمكنت السلطانة الوالدة ، وابنتها وزوجهـــا من تعيين مصطفى الأول على الرغم من معرفتهم بعدم قدرتـــه على الحكم ، إلا أنهم دفعوا الرشاوي ، وحركوا التمرد في

---

[١] يلمـــازا وزتونـــا : مصدر سابق ، ج١ ، ص٤٦٣ . لمزيد من التفاصيل عن دور الحريم في هذا التمرد الرجوع إلى محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص ٥٨٨ .

[٢] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج١ ، ص٤٦٣ .

اتجـــاه قتل عثمان الثاني حتى يتم لهم الأمر ، ولكن فسدت الأمور بتدخل الحريم وإرضاء رغباتهم ونزواتهم .

وكانت السلطة الحقيقية في يد الإنكشارية ، وقد طالت سلطنة السلطان مصطفى الأول على نحو غير متوقع كانت السلطانة الوالدة خلالها بمثابة نائبة السلطنة ، وانتشرت الفوضى في القصر ، كردة فعل لمقتل السلطان عثمان ، فكان الشعب يبكيه ، فأمر مقتله يعتبر كـــربلاء(*) التاريخ العثماني ، وقام داود باشا زوج أخت السلطان مصـــطفى علـــى أثر هياج الإنكشارية ، بنهب سراي طوب قابي ، وســـرقة الخيول والسيوف والحاجيات الأثرية ، ولم يترك ثمين إلا واستولى عليه . [١]

وهـــدأ تمرد الإنكشارية بعد توزيع مبلغ مليون ونصف عملة ذهبية عليهم ، هبة الجلوس للسلطان الجديد . [٢]

علـــى أن هدوء الأوضاع لم يستمر طويلاً ، إذ أن مصطفى الأول لم يكن أحسن حالاً من الأولى إذ عمت الفوضى الأقاليم ، لأن الســـلطة الفعلية كانت بيد الإنكشارية ، [٣]وتعرضت البلاد للنهب ، واستشعرت الإنكشارية من كما نكش (**) علي باشا تأيدهم ، فعينوه فـــي الصدارة العظمى ، وزادوا في النهب والسلب ، وما أن شبعوا

(*) كربلاء : هي الموقعة التي قتل فيها الحسين بن علي عام ٦١هـ ، على يد عبيد الله إبن زياد إبان حكم الدولة الأموية في دمشق .

(١) يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج ١ ، ص٤٦٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص٤٦٤ .

(٣) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣٠ ، أنظر سعيد أحمد برجاوي : مرجع سابق ، ص١٥٣ .

(**) معناها اللغوي : الماهر بالرمي عن القوس ، واصطلاحاً تعني الماهر الحاذق . انظر محمد جميل بيهم ، فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٤ .

حتى بدأوا يخططوا لعزل مصطفى الأول ، فأجتمع حسين باشا بعد عشـــرة أشهر بالعلماء ، وكبار رجال الدولة ، للتفاوض في ما هو أصـــلح للدولة ، فاستقر الرأي على عزل السلطان مصطفى الأول مـــرة ثانية ، ومبايعة مراد بن السلطان أحمد ، وكان عمره خمسة عشـــر عاماً أي صغير السن يسهل التحكم فيه ووافقت الإنكشارية على ذلك . [١]

وتم عزل مصطفى الأول في ١٠٣٢هـــ / ١٦٢٢م بفتوى من شـــيخ الإســـلام أسعد أفندي جاء فيها " أنه لا يجوز خلافة مختـــل عقلياً " [٢] والغريب في الأمر أنه خلال هذه الفترة كانوا يعلمون أنه مخـــتل عقلياً وضعيف الإرادة ، ولكن الطمع هو الذي سيطر على نفوســـهم جعلهـــم ينصبوه حتى يكتفوا من النهب ، ثم يعزلوه ، وقد مات بعد عزله بـــسبعة عشر عاماً .

وعمومـــاً فقـــد اشـــتهر فـــي تـــاريخ الدولة العثمانية ، أن الإنكشارية أجلسوا مصطفى الأول لأنه ضعيف الشخصية ، فأصبح ألعوبة بينهم ، وأعيد للحكم مرة أخرى لنفس السبب ، وطوال الوقت كانت الإنكشارية يستمعون لكلام قادتهم وضباطهم وتنفذه ، وعرف هذا العهد بعهد الإرهاب. [٣]

تولـــى مراد الرابع الحكم في سن صغيرة " ١٠٣٤ هـــ – ١٠٥٠هـــــ / ١٦٢٤– ١٦٤٠م " واســـتـــفحل فـــي عهده نـــفوذ

---

[١] محمـــد فـــريد المحامـــي : مصـــدر سابق ، ص ٢٧٩ ، مرجع سابق ، ص١٢٤ . انظر حبـــيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣٠ .

[٢] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص٦٠ .

[٣] رشاد أكرم قوجسي : مرجع سابق ، ص١٨٤ .

الإنكشارية بشكل كبير ، [1] حيث لعبوا دوراً كبيراً مؤثراً في الدولة سواء منذ قتل عثمان الثاني وحتى تعيين الوزراء وعزلهم .

وعندما تولى مراد الرابع حاول قدر الإمكان التخلص من الوصاية حتى يدير الدولة كما يشاء . [2] ولصغر سنهِ فشل في التخلص من الوصاية بسرعة واستمرت عليه ، قرابة عشر سنوات ، لم يحكم الدولة خلالها أبداً . [3]

وهكذا نجد أن العشر سنوات الأولى من حكم مراد الرابع كان الإنكشارية فيها أصحاب الكلمة ، وقد فسدوا ونهبوا وسلبوا وقاموا بعدة تمردات وكان السلطان لا يزال صغير السن فلم يجد مفر من تنفيذ أوامرهم وتحقيق رغباتهم . [4]

وبعد مرور فترة من الزمن على تولي مراد الرابع ، أقدمت الإنكشارية على قتل الصدر الأعظم حسن باشا ، وثاروا وتجمعوا حول القصر يهددون ، ثم أقدموا على قتل الصدر الأعظم الثاني حافظ باشا وتم تعيين رجب باشا صدراً أعظم بضغط من الإنكشارية وتنفيذاً لرغبة نائبه السلطان وكان يسميه مراد الرابع رئيس الأشقياء ، ثم لجأوا إلى حيلة التظاهر بأنهم ينفذون كلام السلطان ، وهدأوا وتظاهروا بأنهم خضعوا له، لكن ذلك لم يكن إلا تمويهاً للسلطان حتى يوقف المذابح التي أمر بها، وتمردوا ثانية بعدها وتجمعوا في ساحة القصر الداخلية وكانوا بقيادة رجب باشا ،

---

[1] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص٢٠٩ .

[2] دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص٥١٠ .

[3] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص٦٣ .

[4] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٨٩ .

فأمـــر الســـلطان بقتلهِ وإلقاءه من شباك القصر ، وهنا هدأ تمردهم وأدركـــوا أنهـــم أمـــام ســـلطان قوي . [١] ولم يستطع إظهار قوة شخصـــيته إلا بعـــد فـــترة من الزمن ، حين استطاع التخلص من سيطرة الإنكشارية عليه .

فـــي أثـــناء هذا الفترة زاد نهبهم للقصر السلطاني وإستانبول نفسها، مارسوا القتل وانتهاك المحرمات وكافة الأفعال المشينة . [٢]

وقد بدأت تظهر سيطرته على الأمور ، عندما استطاع إخماد تمـــرد السابق الذكر والذي يشبه التمرد الذي أودي بحياة السلطان عـــثمان الثانـــي، لكنه أخمده بمنتهى البراعة وجعله بلا تأثير ، وقد ألقـــى كلمة بليغة تمكن من خلالها جعل المتمرد ين له لا عليه ، ثم ألقى القبض على الرؤوس المدبرة للتمرد وقام بإعدامها . [٣]

وأعلـــن مـــراد الرابع ١٠٤٤ هـــ / ١٦٣٤م أنه منع شرب الخمر ، وأعدم كل من تسول له نفسه عصيان هذا الأمر . كما قام بإعدام كل من تثبت عليه أنه يحرض على تمرد ، كما أسس تشكيلة قويـــة من المخابرات التي جاءت بجميع أسماء المستبدين بالسلطة لـــيس داخـــل إستانبول فقط بل في جميع أنحاء الدولة ، فكان يقوم بإعدامهم كلما مر في أسفاره بأحد البلاد . [٤]

---

[١] عـــبد العزيـــز الشـــناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٥-٥١٦ . أنظر يلمازا وزتونا : مصدر ســـابق ، ج١ ، ص٤٧٠ .

[٢] رشاد أكرم قوجسي : مرجع سابق ، ص١٨٥ .

[٣] عبد القادر ده ده أو غلو : مرجع سابق ، ص٦٣ .

[٤] المرجع السابق ، ص٦٣ .

وهكــذا اســتطاع مراد الرابع إخماد هذه التمردات ببراعة ، وأكــد علــى كونه سلطان قادر على حل المشاكل بشكل أفضل من سابقيه ، ولقد كان حاكم مستبد برأيه ، ولكن هذا جاء بنتيجة إيجابية مــع الإنكشارية حيث أننا نجد أن العشر سنوات الأخيرة من حكمه كانــت هادئة نسبياً حيث أدركت الإنكشارية أخيراً أنها أمام سلطان قوي مقتدر .

لقد استطاع مراد الرابع أن يلجم تصرفات الإنكشارية ، بشكل جــيد وكان من الممكن أن يستطيع القضاء عليهم في فترة مبكرة ، ولكــن فكــرة القضــاء على الإنكشارية لم تكن تبلورت في أذهان الســلاطين بعــد ، وكان أول سلطان فكر في هذا الأمر هو عثمان الثانــي ، وقتلته الإنكشارية ، لذلك لم ترد على ذهن مراد الرابع ، على الرغم من امتلاكه القوة اللازمة لذلك.

علــى آيــة حال لم يستمر هذا الوضع طويلاً إذ سرعان ما عادت الإنكشارية إلى سابق عهدها في عهد السلطان إبراهيم الأول ١٠٥٠هـ - ١٠٥٨هـ / ١٦٤٠م - ١٦٤٨م ، وزاد طغيانهم حتى أنهــم كــانوا يوجهون انتقاداتهم الواضحة والصريحة أمام السلطان دون خوف أو جزع .[١]

كمــا أننا نلاحظ أن قاعدة تولي الأبناء قد زالت وسارت قاعدة الإنكشارية ورغباتها ، تولي من تريد وفق أهوائها الشخصية ، فإن إبراهــيم لم يكن ابن مراد الرابع وإنما أخيه ، وقد تولى الحكم لأن الإنكشــارية أرادتــهُ ، ولأنه كان الوحيد الموجود من الذكور من

---

[١] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

سـلالة آل عثمان ، وقد ولد محمد الرابع بعد توليهِ ، وهكذا نجت السلالة العثمانية من الانقطاع .

منذ تولي إبراهيم الأول الحكم ناضل ضد الإنكشارية ، وحاول كبح جماحهم ، لكنه لم يتمكن من اجتثاث الفساد من رؤوسه والقضـاء عليهم.[١]

فـقد أراد السـلطان إبراهـيم أن يتـزوج بـبنت المفتي وأسـمها " راجيل " ولكنها رفضتهُ ، فقام بإحضارها إلى سرايته ، ولكنه لم يجد منها إلا الاحتقار والإساءة ، فأعادها إلى والدها المفتي دون أن يصيبها بسوء ولكن المفتي أصر على الانتقام ، فاجتمع مع العلمـاء وأخـبرهم وأتفـق مع الإنكشارية على عزلهِ بل وقتلهِ إذا تطـور الأمـر لأنـه أراد الـزواج مـن بنت المفتي [٢] كما وأن الإنكشـارية أحست بأن السلطان إبراهيم يريد التخلص منهم والفتك بقـادتهم ، لأنهـم عارضوه في كثير من الأمور ، وعلموا أنه حدد موعداً لذلك في ليلة زفاف إحدى بناتهِ على ابن الصدر الأعظم .[٣] فقـرروا القيام بمؤامرة لعزلهِ ، والقيام بتمرد عظيمة لذلك متخذين أسباب واهية ، وهي أن السلطان إبراهيم يقف موقف عدائي منهم ، فبدأوا في نقده وتجريحهُ ، وانتهزوا فرصة إنشغاله بحفلة العرس ،

---

[١] بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص١٧٩ .

[٢] خليفة محمود : مرجع سابق ، ص٣٧٧ – ٣٧٨ .

[٣] بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ١٧٩ . انظر محمود شاكر : مرجع سابق ، ج٨ ، ص١٣٥ . انظر محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

وأجـــتمعوا فـــي جامع الفرقة (*) ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام عبد الرحمـــن أفـــندي ، وغـــيره من علماء الدين ، والذين أقروا عزله بـــتحريضِ مـــن جند الإنكشارية . والفرسان السباهية ، وتولية إبنه محمـــد الـــرابع رغم أنه لم يكمل عامه السابع .[1] وفعلاً قام تمرد عظـــيم على إبراهيم في إستانبول وتم عزله في ١٨/٥/ ١٠٥٨هـــ ٨ /٨/ ١٦٤٨م ، وقـــاموا بكافة الإجراءات لضمان نفاذ قرارهم ، واستعدوا عسكرياً حتى استطاعوا الإمساك بزمام الموقف [2]

تـــبع عزل السلطان إبراهيم ، تضجر الإنكشارية من الصدر الأعظـــم قـــارة مراد باشا ، وسعوا خلفهُ لقتلهِ ، رغم أنه كان من أغوات الإنكشارية لكنه استطاع التخلص منهم . [3]

وبعـــد مرور عشرة أيام أظهرت الخيالة عدم ارتياحها لتولي العـــرش السلطان محمد الرابع وهو صغير السن لا يزيد عن سبعة أعوام ، ولم يبلغ الحلم ، وأرادت إعادة السلطان إبراهيم الأول مرة أخرى ، فخاف قادة المؤامرة من إعادة السلطان رغم أنوفهم ، نظراً لمـــا قـــد يقوم به السلطان من انتقام من الإنكشارية ، فقرروا قتل الســـلطان إبراهيم باشا مثلما قتلوا عثمان الثاني قبلهُ ، وساروا إلى

(*) يطلـــق عليه جامع الوسط أو أورطة جامع . أنظر عبد العزيز الشناوي : ج١ ، المرجع السابق ، ص٥١٦.

[1] بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص١٨٠ . انظر عبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص٥١٦ . انظر دائرة المعارف الإسلامية ، ص٥١٠ .

[2] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص٦٤ . انظر عبد العزيز الشناوي : ج١،مرجع سابق ، ص٥١٦.

[3] دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ٥١٠٨ .

القصـــر الموجــود فيه ، وحاصروه ، وقام الجلاد بالدخول عليه و خنقه حتى توفي . (١)

وهكــذا ارتكــبوا ثاني أبشع جرائمهم ، وهكذا سيطروا تماماً علـــى هــذا الســلطان الصغير ، دون أن يلتفتوا إلى أمور الدولة وأصـــبحوا يـــرتعون فـــي العز والرخاء ، وارتاحوا لهذا الوضع الرخيص وعاثوا فساداً في القصر وأصبحوا يتدخلون في كل الأمور حـــتى ســـاءت أحـــوال الدولة وعمت في أرجائها الاضطرابات ، وأصبح نفوذ الإنكشارية لا يضاهيه أي هيئة أخرى في الدولة.

وعلى هذا حدثت خلافات بين الخيالة والإنكشارية ، ولضغط الإنكشارية في القصر السلطاني ، تم الاعتماد عليها بصورة أكـــبر من الخيالة ، وكانت هذه ضربة لفرقة الخيالة . (٢)

وهكــذا جلــس محمد الرابع على العرش وهو صغير السن ١٠٥٨هـــــ - ١١٠٤هـــــ / ١٦٤١م ، ١٦٩٢م . مما أبعده عن ممارسة الشؤون السياسية وأصبحت الإنكشارية ، وأصحاب النفوذ من الشخصيات الكبيرة في القصر هي المتحكمة في جميع الأمور، وعـــزل بين الحريم وأصبح وجوده مثل عدمه ، (٣) وقد تميز عهده ببروز تدخل نساء القصر في السياسة ، أمثال تورخان سلطان وهي والدته ، والتي سيطرت عليه لصغر سنه وأدى هذا إلى تراجع دور الســلطان فـــي قيادة الجيش والدولة، وقد انعكس هذا التراجع على

---

(١) محمد شاكر : مرجع سابق ، ج٨ ،، ص١٣٥ . انظر عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٦ . انظر بسام العسلي : ج٥ ، ص١٨٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية بالتركية ، ص٥١١ .

(٣) عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص٦٥ ، مخطوط تاريخ آل عثمان : ورقة ٣٥

أمـــور الدولـــة والقصـــر الداخلية ، فقد زاد تسلط الإنكشارية على الوضع داخل القصر والعاصمة، وأصبح الصدر الأعظم ضحية لهذا التســلط . [١] كما وأن نفوذ الإنكشارية زاد عن الحد حتى صارت تحدث مشادات بين الإنكشارية والسباهية في القصر حول السيطرة على السلطان و الغلبة دائماً للإنكشارية . [٢]

وقد زاد تسلط الإنكشارية على الصدور العظام في عهد محمد الرابع فنجد مثلاً أنه عندما حاول الصدر الأعظم أحمد باشا الألباني ١٠٦٣هـــ - ١٠٦٤هـــ / ١٦٥٢م - ١٦٥٣م أن يـــنقذ الوضع ويكافح الرشوة وتنظيم أول ميزانية للدولة لضبط النفقات ، واجهتهُ مقاومة عنيفة جداً وقاموا بقطع رأسه بعد تسعة أشهر فقط من توليه المنصـــب . كمـــا واجـــه نفس المصير الصدر الأعظم مراد باشا الألباني الأصل والذي قتلته الإنكشارية مثل الآخرين ولحق بهم من جـــاء بعدهـــم وهـــو مصطفى باشا ، الذي عزل ، وأصبح اهتمام الإنكشـــارية بالســـلطة والـــنفوذ ، أكبر من اهتمامهم بحياة الجهاد والوضع العسكري . [٣]

يتضـــح لـــنا أنهم أصبحوا مرابطين داخل القصر لا يبارحوه أبـــداً ، وكـــأنهم وجدوا لمراقبة السلطان وأفعاله ، وليس للجهاد وإعلاء راية الإسلام .

---

[١] محمـــد موفاكو : تاريخ بلغراد الإسلامية ، الكويت : دار العروبة للنشر ، المكتبة البلقانية ، د.ط ، د. ت ، ص٥٧ .

[٢] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص٦٥ .

[٣] محمد موفاكو : مرجع سابق ، ص٥٧ .

وقـــد استحال أمر الإنكشارية في القصر وأصبحوا شوكة في ظهـــر الدولـــة العثمانية ، لكن ظهور آل كوبريلي غير كثيراً من الأوضـــاع الخاطـــئة للإنكشارية داخل القصر ، وكان ذلك ســـنة ١٠٦٢ هـــــ /١٦٥١م[١] حيث تمكن آل كوبرللي من تثبيت الوضع فـــي الداخـــل وقضوا على الفساد والرشوة ، وضبط الإنكشارية ، وعملـــوا علـــى إحـــياء روح الجهاد في الجيش، فانتعشت الدولة العثمانية من جـــديد . [٢]

وقد مهد السبيل لظهور أل كوبرللي مقتل كوسم سلطان زوجة الســـلطان أحمـــد الأول ووالـــدة إبراهيم الأول و مراد الرابع عام ١٠٦٢هـــــ / ١٦٥١م والتـــي كانـــت مسيطرة على الأمور داخل القصـــر ، وفـــي أعقـــاب ذلـــك تم تعيين محمد باشا كوبريللي في الصـــدارة العظمـــى ، حيث عاملهم معاملة شديدة ، وقتل كثيراً من ضباط الإنكشارية ، بسبب مقتل كوسم ، كما هدد بقتل الآخرين إذا لـــم يلتزموا الهدوء والسكينة ، ولكنهم ثاروا عليه لأنهم أدركوا أنهم أمـــام خصـــم قوي قادر على معرفة أساليبهم وقمعهم ، [٣] إلا أنهم فشـــلوا فقد أدبهم الصدر الأعظم وأمر بإلقاء جثثهم في البحر وبلغ عدد قتلاهم أربعة آلاف جثة . [٤]

---

[١] محمد موفاكو : مرجع سابق ، ص٥٧ .

[٢] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٩٠ .

[٣] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٩٠. عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص٦٥ .

[٤] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

وبهذه المعاملة الشديدة على التوالي بين الصدور العظام محمد باشـا ثـم ولـده محمد باشا وقرة مصطفى باشا [*] في عهد محمد الرابع أحس الأهالي بالسكينة والهدوء والأمن لمدة من الزمان .

ولكـن للأسف هذا الوضع والهدوء لم يستمر طويلاً فقد هزُم العثمانيين بإنكسار فظيع عند أسوار فيينا ، وطبعاً انتهز الإنكشارية وسـارعوا إلـى العاصمة ، وقاموا بعمل تمرد كبير فيها ، وخلعوا السلطان محمد الرابع ونصبوا سليمان الثاني مكانه ، [١] وكانت هذه فرصة لا تعوض لهم حتى يوضحوا للأهالي عدم كفاءة آل كوبرللي فـي الصدارة، ويوقفوهم عند الحد الذي يريدوه وبذلك يتخلصوا من شخصيات حدت من نفوذهم كثيراً داخل القصر وخارجه .

ولقـى محمد الرابع نفس مصير من سبقوه ، ولكنه كان أوفر حظاً منهم حيث لم يقتل وإنما عزل في سنة ١٠٩٨هـ /١٦٨٦م ، ومات بعد عزله بحوالي خمس سنوات ، وقد ظل معزولاً في قصره بعيد عن الحياة السياسية ومات طبيعياً . [٢]

---

[*] مصـطفى باشا : صدر أعظم تلقى تعليمه في الدائرة السنية السلطانية ، ترقى في المناصب حتى وصـل سـلحدار للسلطان محمد الرابع ثم وزير ورئيس البحرية ثم أمير سليترة وطرابلس الشام وقد حـرر عاصمة بولونيا من الألبان ثم صار بعدها صدر أعظم ، وحرر بلغراد من الألمان ، ترقي بعد خدمـة خـارج القصـر لمدة ١١ عام كان ذو قيم شديدة وإدارياً جيد وشجاع ومستقيم . الموسوعة التركـية : ج٢٤ د. ط ، أنقـره : دار المعارف ، ١٩٧٦م ، ص١٧٠ لقد كانت الإنكشارية من أحد الأسـباب الرئيسـية لهزيمة العثمانيين عند أسوار فيينا ، كما سيتضح ذلك في المبحث القادم ، وعلى الرغم من ذلك فقد استغلوا هذا الوضع اسوء استغلال .

[١] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

[٢] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٧١

نصب الإنكشارية سليمان الثاني ابن إبراهيم الأول ١٠٩٩هـ ١١٠٢هـ / ١٦٨٧م – ١٦٩٠م على العرش ، [1] والذي تجاوز عن أعمالهم القبيحة وأفعالهم الشنيعة بمن سبقوه ، وأغدق عليهم الهدايا والأعطيات وصفح عن تمردهم الذي نتج عنه عزل محمد الرابع [2] وقد تولى أمور الدولة وهي في غاية الارتباك والفوضى ، وحاول قدر الإمكان تصحيح الأوضاع [3]

السلطان سليمان الثاني كان رجلاً زاهداً متعبداً ، يفضل الانزواء ودراسة الكتب الدينية ، ولذلك لم ترض به الإنكشارية سلطاناً عليها ، إلا أنها أملت في أخلاقه الهادئة أن تفسح لهم المجال في التمادي في أهوائها دون أن يتصدى لهم ، وعندما ذهب رؤسائهم إلى الصدر الأعظم، وطالبوا برواتبهم المتأخرة ، والأعطيات المعتادة عند جلوس كل سلطان، حاول الصدر الأعظم تهدئتهم بالكلام العذب ، والوعود الطيبة، وأعطاهم القليل من المال ، مع الوعد بإعطائهم الباقي حينما ترد الأموال من الولايات إذ أن خزينة الدولة كانت فارغة من الأموال . فغضبوا وتفرقوا في شوارع إستانبول ينهبون البيوت ويسلبون الأهالي . [4]

وهكذا نجد أنه اتخذ سياسة مختلفة مع الإنكشارية حيث التسامح والغفران ، ولكن هذه السياسة أيضاً لم تؤتِ بنتائج حسنة

---

(1) مخطوط آل عثمان : ورقة ٣٥ .

(2) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ ، إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، ج ١ ، ص١٨٤ .

(3) أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٢١٤ .

(4) حبيب السيوفي : مرجع سباق ، ص٣١ .

إذ أن تمـــرداتهم داخل العاصمة وحول القصر زادت عن حدها مما أدى إلـــى نـــتائج سلبية على الدولة العثمانية ، حيث أدى ذلك إلى ارتـــباكها ، وبلغـــت وقاحـــتهم مداها حيث صاروا يقتلوا الوزراء والصـــدور العظـــام ، وزاد هياج الإنكشارية وصارت تهجم على بيوت من تريد قتلهم . مثلما تخلصوا من فاضل مصطفى باشا القائم مقـــام ، عـــندما أراد تســـكين الاضطرابات فعينوه والياً على ميناء الدردنيل . [١]

وعـــندما اعـــتقل الصدر الأعظم ساويش باشا [*] بعضهم ، وحكـــم علـــيهم بـــالإعدام انتشرت الفوضى في شوارع إستانبول ، واقـــتحموا قصر ساويش باشا وقتلوه شر قتله قطعوه أرباً ، وعرف باسم قتيل الإنكشارية، ونهبوا قصرهِ وألقوا القبض على زوجاتـــــه وجواريه واتخذوهن سبايا.[**][٢]

---

[١] محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص ٣٠٥ .

[*] ساويش باشا : لم يعرف من أين أو نسبه ، تولى منصب الصدارة العظمى مرتين ، وقد قتل أثناء تمـــرد الإنكشارية ونهب قصره ، ومات مأسوفاً عليه ، الموسوعة التركية : ج٢٣ ، د. ط ، أنقرة ، ص١١٥ .

[**] وقـــد أورد محمـــد جميل بيهم أن الإنكشارية عندما هاجمت قصر الصدر الأعظم ، قد دخلوا على زوجته وأختهِ وقطعوا أيديهم وأرجلهم وأنوفهم ، ثم جروهما في الشارع بمنتهى الإهانة . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣١ .

لـــم تـــرد هـــذه القصـــة في كتب المؤرخين العثمانيين ولم يذكر المؤرخ مصدرها ، فلا يمكن الجزم بصـــحتها أو حـــتى قـــربها إلى الواقع ، ولكن السؤال هل وصلت بالإنكشارية الجرأة إلى درجة أنهم يقوموا بمثل هذا العمل الشنيع ، وإذا قلنا أن ذلك لعدم زواجهم ولكن هذا قانون منذ تأسيسهم والرعيل الأول لـــم يرتكـــب مـــثل هذه الفظاعة ، كما أنه في هذا الوقت كان قد سمح لهم بالزواج ، كذلك هل المرأتيـــن ستعيشان بعد النزيف من هذه الجروح حتى يتم جرهما إلى الشارع ، أم أنهم جروهما وهما ميتتين وهذا يعتبر تمثيل بالجثة مخالف لتعاليم الإسلام . ولذلك فإن الدراسة لا تؤيد الرواية . =

وبهـــذا العمل نجد أنهم انتهكوا حرمة قصر الصدر الأعظم ، واستولوا على النساء ، وكان هذا التطور في طغيانهم قد صار يمس النساء ، وهذا يدل على ما وصلت إليه الإنكشارية من فسق وفساد . ثـــم هجموا على الأسواق والحوانيت ونهبوها ، وأصبحت شوارع اســـتانبول مكانـــاً واســـعاً للفتن والتمردات وأصبح القصر مرتعاً لهـــؤلاء . [1] مرتكبيـــن فـــيه الفظائع ، مما آثار غضب أهالي اســـتانبول علـــيهم ، كمـــا أنـــه عندما عين السلطان سليمان الثاني إســـماعيل المرعشي [*] في الصدارة العظمى ، بذل كافة مجهوداته لتســـكين الاضطراب بين الإنكشارية ، وتعاون مع أهالي استانبول الذيـــن زادت ثورتهم على الإنكشارية واستبدادهم ، فحملوا السلاح وانقضـــوا على الإنكشارية وقتلوا منهم كثيراً وجرت مذبحة هائلة، وهكـــذا هدأت أحوالهم قليلاً ، وعاد النظام مرة أخرى ، [2] بعد أن وعدهـــم المفتي خيراً ، وحثهم على العودة إلى ثكناتهم . ومع ذلك فقد نفوا شيخ الإسلام دباغ زاده محمد أفندي . [**]

= [2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٧ . سعيد أحمد برجاوي : مرجـــع سابق ، ص١٦٩.

[1] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣١ .

[*] إســـماعيل المرعشـــي: يقـــال أنه من حي أباش في أنقرة ،عمل أول حياته خارج القصر، ثم صار صـــاحب إقطـــاع برتـــبة أمير أمراء الروملي، تدرج في الوظائف حتى صار صدراً أعظم في عهد ســـليمان الثانـــي ، ثـــم عُـــزل وحـــبس فـــي قلعة يدي قوله عام ١١٠٠هـــ/ ١٦٩٦م . الموسوعة التـــــركية : ج٢٠ ، أنقرة ، سنة ١٩٧٢م ، ص١٦٧

[2] إســـماعيل سرهنك : مصدر سابق ، ج١ ، ص١٧٤ – ١٨٤ . حبيب السيوفي : مرجع سابـــق ، ص٣١ .

[**] هـــو ابن محمود أفندي شيخ دباغين منطقة يدي قوله ، تلقى التعليم على أشهر علماء عهده وعمل بالـــتدريس في عدة مدارس ، ومفتشاً بأوقاف الحرمين ، عين قاضي لدمشق ، ثم أدرنه ثم إستانبول =

وقد حاول هذا الصدر الأعظم ، اعتقال مثيري الشغب والفتن والذين حاولوا التمرد مرة أخرى ، وكان يقضي عليهم لولا أن نحاه السلطان عن المنصب ، وعين بدلاً منه مصطفى باشا ، والذي كان صاحب ثروة كبيرة ، فوزع عليهم الأعطيات والمال ، بدلاً من معاقبتهم، فعاد إليهم الهدوء [1]

حاول سليمان الثاني بعد هذه الفوضى القيام بحركات تطهيرية كبيرة للقضاء على استبداد الجيش ، وهذه الحركات أعطت هدوءاً مؤقتاً للدولة والقصر لأنها كانت تعيش ظروفاً صعبة عند توليه الحكم .[2]

وبعد وفاة سليمان الثاني متأثراً بمرض عضال تولى الحكم أحمد الثاني ١١٠٢هـ - ١١٠٦ هـ / ١٦٩١م - ١٦٩٥م وقد حكم مدة أربعة سنوات وثمانية أشهر . [3]

وفي عهد أحمد الثاني استمرت الإنكشارية على نفس المنوال في السيطرة على شؤون القصر ، وإن كان نفوذهم قد خفضت حدته نتيجة لتولي مصطفى باشا كوبريلي منصب الصدارة العظمى حيث استطاع هذا الأخير أن ينقل الدولة من الدمار السريع الذي كان سيصل بها نتيجة التمردات المتتالية إلى هدوء نسبياً ، حيث

= ثم الأناضول ثم شيخ الإسلام في ١٠٩٨هـ - ١٦٨٧م وكان ضمن من أقصوا محمد الرابع عن الخلافة ، ونتيجة لخلافهِ مع الإنكشارية عزل من منصبهِ توفي عام ١١١٤هـ - ١٧٠٢م .

الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني ، ج٩ ، د. ط ، إستانبول ، ١٩٩٤م ، ص٦٢ .

[1] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣١ .

[2] عبد القادر ده ده أوغلو : مرجع سابق ، ص٦٦ .

[3] مخطوط تاريخ آل عثمان ، ورقة ٣٥ .

استطاع استمالة الجند والرعية لصفه وهدأت أحوال القصر . [1]

وقد حاول مصطفى الثاني ١٠٧٤هـ - ١١١٥هـ / ١٦٦٣م - ١٧٠٣م [2] الذي خلف أحمد الثاني أن يتصدى لأطماعهم داخل القصر والعمل على الحد منها ، محاولاً إصلاح الشؤون الداخلية ، وإبطال المفاسد ، ومعاقبة المرتشين ومنع المظالم ، غير أن الإنكشارية لم تسمح بذلك لأنه كان مناخ الضعف والفوضى هو المناسب لهما ، لما يوفره لهم من فرصة للسلب والنهب وهتك الأعراض ، وانتهاك الحرمات ، وبسبب ضغط الإنكشارية ، وعدم إعجابهم لهذه الشدة ، وقفوا في وجه الإصلاحات،وعزل السلطان مصطفى الثاني في ٢ ربيع الثاني ١١١٥هـ أغسطس ١٧٠٣م ونصبوا مكانه أخيه السلطان أحمد الثالث، وقتلوا فيض الله أفندي . [3]

تولى أحمد الثالث ١١١٥هـ - ١١٤٩هـ / ١٧٠٣م - ١٧٥٤م[4] الحكم وهو خائف مما قد يصيبهُ من الإنكشارية مثل الذين سبقوه ، وخاصة أخاه [5] فاستهل حكمه بتوزيع الهبات والأموال بكثرة على الإنكشارية ، ووافق على طلبهم بقتل المفتي " فيض الله أفندي " لأنه كان ضد أعمالهم وفعلاً قبضوا عليه

---

[1] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

[2] أحمد عرابي : مخطوط تاريخ الملوك العثمانية والوزراء والصدور ومشايخ الإسلام والقبودانات ، ١٣٧٧هـ ، القاهرة : مكتبة فاروق قديماً ، ورقة ٣ .

[3] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٦ . انظر سعيد أحمد برجاوي : مرجع سابق ، ص١٧٤.

[4] مخطوط آل عثمان ، ورقة ٣٥ .

[5] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣٣ .

وقتـــلوه ، ونفوا أولاده ، وهكذا عادت السكينة والراحة إلى القصر فـــي استانبول [1] لقد اتخذت طلباتهم منحنى جديد وهو قتل كل من يقف بطريقهم حتى ولو كان المفتي أو شيخ الإسلام .

وعـــندما هـــدأت الأوضاع واستقرت الأحوال ، بدأ السلطان أحمد الثالث الانتقام من الإنكشارية والاقتصاص من رؤوس الفتنة ، وإنزال العقاب العادل عليهم ، فحاول تفريق الإنكشارية عن القصر والعاصمة بكافة الأعذار ، وقتل عدداً كبيراً منهم ، ومن ضمنهم من أجلســوه على العرش وحتى المفتي الجديد ، وعزل الصدر الأعظم تشـــانجي أحمـــد باشا الذي انتخبه الإنكشارية في ثورتهم ، وعين مكانـــه زوج أخته داماد[*]حسن باشا [**]، وبـــلغ عـــدد من قـــتلهم خمسة عشر ألف ، ويرى أن جرائد وصحائف أسماءهم كانت تظهر كل يوم لمدة ستة شهور عن الذين يقتلون أو يلقون في اليم.[2]

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣١٢ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ن ص٢٠١ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣٣ .

[*] دامـــاد : لفظ فارسي أستعمل في التركية ومعناه الصهر وكان هذا اللفظ يستعمل مضافاً إلى الاسم بمعنى الشريف لمن كان متزوجاً من بنت السلطان ، أو من أخته انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣١٢.

[**] حسن باشا : من بلاد المورة ، أخذ لقب داماد لأنه تزوج من خديجة سلطان أخت مصطفى الثاني واحمد الثالث وبنت مراد الرابع . لم يعرف متى دخل القصر السلطاني تدرج في الوظائف حتى صار والـــي مصـــر برتبة وزير في عهد سليمان الثاني . ثم فقد سمعته وفقد وظيفة الوالي لخيانته لأغا دار السعادة ، وأثناء ولايته على صاقز سقطت في يد البندقية ، تنقل بين عدد كبير من الوظائف السياسية كـــان شجاع كريم ، أهتم بتاريخ نعيمه وشجعه على الاستمرار في الكتابة ، والتأليف وأمر ببناء عدد من التكايا وتوفي عام ١٧١٣م عن عمر يناهز الستين عاماً . الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني ، ج١٦ ، د.ط ، إستانبول : ١٩٩٧م ، ص١١٥ ، ١١٦ .

[2] محمـــد فريد المحامي ، مصدر سابق ، ص٣١٢ . انظر حبيب السيوفي : مـــرجع سابق ، ص٣٣ ، انظر بسام العسلي: ج٥ ، مرجع سابق ، ص٢٠١ .

هــذا يدل على كثرة عدد الإنكشارية ، وبالتالي ليس كل هذا العدد قد دُرب عسكرياً أو خضع لأنظمة الإنكشارية ، وبالتالي فإن الفســاد والإنحلال الذي أصابهم ، جاء نتيجة العناصر الفاسدة التي دخلت فيها وأدخلت مفاهيم جديدة عليها .

وبالطـــبع بدأت الإنكشارية تثور على أحمد الثالث بسبب هذه الأوضاع الجديدة ، خاصة بعد تعيين داماد حسن باشا ، في منصب الصــدارة العظمـــى، وإنصرافهُ للإصلاح ، حيث جدد الترسانة ، وأنشأ كثيراً من المدارس ، لكن هذه الإصلاحات وكذلك مصاهرته للســلطان ، لــم تضمن له الحماية ، إذ أنه أصبح هدفاً للمؤامرات والدســائس مــن قبل الإنكشارية، وأعداء الإصلاح ، وهم الذين لا يعجــبهم وجــود رجل حازم يقبض على الأمور بشكل يحول بينهم وبيــن تحقيق رغباتهم ، فدبروا المؤامرة حتى استطاعوا عزله في ٢٨ جمادى الأولى ١١١٦هــ ٢٨ سبتمبر ١٧٠٤م.[١]

ومن بعده كثر تغير الصدور العظام في عهد أحمد الثالث تبعاً لأهــواء الإنكشـــارية ورغــباتها [٢] فقد جاء نعمان كوبربللي في الصــدارة العظمـــى ، وحــاول أن يأخذ على عاتقه مهمة إصلاح الإنكشـــارية ودفع رواتبهم بانتظام منعاً لأي تمردات قد يقومون بها لكــنه للأســف لم يستمر في الصدارة العظمى . [*] وعين بدلاً منه

---

[١] محمد فريد المحامي ، مصدر سابق ، ص٣١٢ . انظر بسام العسلي : ج٥ ، مرجع سابق ، ص ٢٠١.

[٢] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣١٢ .

[*] لقــد كــان هذا الصدر الأعظم متحلي بصفات جده وأبيه ، وكان يأخذ رواتب الإنكشارية من بيت المال ، ولا يأخذها قسراً من الأهالي بالظلم والجور ، ولــكن هذا لم يعجب السلطان إذ أنه لا يريد =

إبراهيم باشا ، والذي أراد توفير الرواتب للإنكشارية ، لأن السلطان رفـض أن يؤخـذ مـن المال الذي يدخل في الخزينة ، مما جعل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، يفرض ضريبة جديدة أسمها " بدل " علـى التجار وأصحاب الدكاكين ، لكن هذه الضريبة جاءت بنتائج عكسـية حيـث أن كثـيراً من التجار كان من الإنكشارية ، الذين يمارسون البيع والشراء فبداوا في التذمر علانية ، ولكن ولاة الأمر لم يأخذوا هذا التذمر في الاعتبار ، حتى تطورت وأصبحت فتنة في البلاد ، فقد حدث أن ثلاثة من أفراد الإنكشارية قد أثارت حنقهم هذه الضـريبة لأنهـم كانوا يتاجرون في التجارة البسيطة مثل الملابس القديمـة ، أو الفواكـه أو القهوة ، لذلك أخذوا يصيحون ويشتمون الصـدر الأعظـم، وصار ينضم إليهم الإنكشارية وأفراد الشعب ، حتى كثر عددهم شيئاً فشيئاً ، وأخذوا قطعاً من الملابس القديمة التي كان يبيعها أحدهم ، وساروا في الطرقات مستلين سيوفهم ، يخربوا كل من يعترضهم ، وفسدوا في العاصمة ، ودخلوا البيوت ونهبوها وقـتلوا أهلها ، ثم حاصروا القصر السلطاني وطالبوا بقتل الصدر

= أن يخـرج مـال من الخزينة ، وعندما سأل الصدر الأعظم أن سلفه وجدوا طريقة أخرى لرواتب الجـند ، فـرد علـيه نعمان أنه إذا كان سلفه يجيدون أسلوب سلب الناس لزيادة دخل جلالتكم ، فمن دواعـي فخـري أن أجهـل هذا الأسلوب ، فلم يعجب هذا السلطان وعزله . انظر حبيب السيوفي : مـرجع سابق ، ص٧٤ ، ٣٣ .

وهـو الابـن الأكبر لفاضل مصطفى باشا ، دخل الديوان الهمايوني ليصبح الوزير السادس ترقى في الوظـائف ، وتزوج من عائشة سلطان إبنه مصطفى الثاني ، رقي إلى منصب الصدارة العظمى بعد زواجـه ولكنه لم يستمر واستقال ، ومات و عمره تسعة وأربعين عام ، عام ١٧١٩م ، ودفن بجامع كوبرللـي ، كـان رجل فاضل تخرج من مدرسة رفيعة المستوى الموسوعة التركية : المجلد ٢٢ ، أنقرة : دار المعارف ، ١٩٧٥م ، ص٢٩٣ .

الأعظم ، ونائبه ومساعده ، بل والمفتي أيضاً (*)، حتى طالبوا بخلع السلطان نفسه ، وسلطوا أفواه مدافعهم على أسوار القصر . (١)

فأجــبر السلطان على قتل الصدر الأعظم ، ومن شدة خوف الســلطان أضــطر التنازل عن العرش ١١٤٣هــ / ١٧٣٠م لابن أخــيه محمود الأول ، وكانت تمرد الإنكشارية تعبيراً عن غضبهم على المسحة الأوروبية التي طبعت حياة السلطان وسلوك بطانته ، إضــافة إلــى خوفهم من روح الإصلاح التي بدأت تنتشر وتظهر بوادرهــا ، فقلق الإنكشارية على نفوذها . (٢) كما أن الاستياء كان شديداً ضد تبذير القصر ، وكانت التمرد بــزعامة الألباني باتــرونا خــليل . (٣) كما قتلوا الصدر الأعظم والقبودان باشا ، ولم يستطع السلطان (**) أحمد منعهم وتساهل معهم كثيراً خوفاً على حياته .(٤) ووصــل تطــاولهم مداه عندما أرغموا السلطان أحمد الثالث على التــنازل لإبــن أخــيه محمود الأول ١١٤٣هــ - ١١٦٨هــــ / ١٧٣٠م -١٧٥٤م وأصــبح هو السلطان بالاسم وسيطر على أمور الحكم بترونا خليل قائد التمرد السابقة . (٥)

(*) ولعدة أسباب أخرى سيتم ذكرها بإذن الله في المبحث القادم .

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣٣-٣٤ .

(٢) سيد مصطفى – خالد زيادة : مرجع سابق ، ص١٦-١٧ .

(٣) عمر عبد العزيز عمر : مرجع سابق ، ص٥١ .

(**) لقــد عزل السلطان نعمان كوبريللي لأنه أخذ رواتب الإنكشارية في بيت المال وإبراهيم باشا وفر أموال بيت المال بفرض ضريبة البدل ، التي قامت بتمرد ودفع السلطان ثمن طمعه .

(٤) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٨ .

(٥) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٣ .

ونتيجة لانشغال السلطان أحمد الثالث بمشاكل الإنكشارية في القصر وإستانبول ، فقد انشغل عن متابعة ما كان يجري حولهُ من تطـورات على ساحة السياسية الخارجية ، حيث بدأ بطرس الأكبر العمل على إضعاف من حوله من الأقوياء ، أي السويد (*) وبولونيا والدولة العثمانية. (١)

وفي عهد السلطان محمود الأول تتضح لنا رؤية مهمة وهي أن الإنكشـــارية أصبحت تدمر كل شيء في طريقها حتى وإن كان رجلاً منهم مثلما حدث مع بترونا خليل .(**)

وقـــد توفـــي محمود الأول بعد حكم دام خمسة وعشرين سنة ومـــات وعمـــره ستون عاماً ، وكانت أيامه هادئة وسعيدة لاتصافه بالعدل والرحمة بين جميع الناس ، لم يفضل فئة على أخرى وكان يمـــيل للمساواة بين الناس ، وفي أيامه اتسع نطاق الدولة في آسيا وأوروبا . (٢)

وبالطـــبع فإن أحوال الإنكشارية قد هدأت وإن لم يخلو الأمر من تدخلاتهم وسيطرتهم على أمور الدولة خاصة في عهد السلطان عـــثمان الثالـــث ١١٦٨هـــ - ١١٧١هـــ / ١٧٥٤م-١٧٥٧م . (٣) والذي بقي فترة وجيزة في الحكم ولكن هذا لا ينكر وجود تدخلات

(*) بـــدأ بملـــك السويد شارل الثاني عشر ودخل معه في معركة خرج منها منتصراً انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣١٢ .

(١) مصدر سابق : ص٣١٢- ٣٢٠ . انظر محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني : ، ص١٣٦٥ عبد العزيز الشناوي ، ج١ ، مرجع سابق ، ص٥١٨ .

(**) سيأتي الحديث عنه بالتفصيل في المبحث القادم .

(٢) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٢٥ .

(٣) مخطوط تاريخ الملوك العثمانية ، ورقة ٤ .

مـــن الإنكشـــارية إلا أنه لم يرد ذكر أي تمرد أو تدخل في شئون القصـــر في عهده إذ أنه كان يتفقد أحوال الرعية ليلاً ، حيث ينزل متـــنكراً للشوارع والأزقة ، [١] وهذا يدل على أن الدولة في عهده كانت تسير على ما يرام مما أدى إلى هدوء الإنكشارية وتدخلاتهم .

وعـــندما تولى الحكم السلطان مصطفى الثالث ١١٧١هـ – ١١٨٧هــــ/ ١٧٥٧م – ١٧٧٣م . [٢] أخـــذ يعمـــل مـــن أجـــل الإصــــلاحات الداخلية، وقد أغفل اهتمامه بإصلاح الإنكشارية مما أدى بــــه إلـــى مجابهتهم بين الحين والآخر داخل القصر السلطاني فــقط . [٣]

تولى بعده عبد الحميد الأول ١١٨٧هــ– ١٢٠٣هــ /١٧٧٣م ١٧٨٨م . [٤] ولكـــنه لـــم يـــوزع العطايا والهبات على الإنكشارية المعتادة عند تولي أي سلطان الحكم وذلك لفرع الخزينة (*) ، ولكنه لكـــي يتجنب ثورتهم أقر كل الموظفين والقادة حتى لا يقع أي خلل مـــن جهـــتهم .[٥]ولم يذكر أي تمرد في عهده أو تدخل في القصر الســـلطاني ربمـــا لإنشـــغال الإنكشارية بالحرب الدائرة بين الدولة العثمانـــية وروسيا ، فلم يكن هناك مجال للتدخل لأن الحرب كانت تضغط عليهم .

---

[١] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٢٧٥ .

[٢] مخطوط تاريخ الملوك العثمانية ، ورقة ٤ .

[٣] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٢٩ .

[٤] مخطوط تاريخ آل عثمان ، ورقة ٣٦ .

(*) وذلك لأن الدولة صرفت جميع الأموال في تجهيز الجيوش ، للحرب ضد روسيا .

[٥] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٤١ .

وفي عهد خلفةُ سليم الثالث ١٢٠٣هـ - ١٢٢٥هـ /١٧٨٩م ١٨٠٧م . [١] عـادت الإنكشارية وبقوة إلى سابق عهدها في التحكم في السلاطين وفي عزل وقتل من شاءوا .

لقد كانت مشكلة سليم الثالث الوحيدة هي إنشاء " جيش جديد " علـى الـنظام الأوروبـي وهـو بذلك قد خرج من تحت سيطرة الإنكشـارية ، وكـان شـغله الشاغل إعادة تنظيم الجيش وتطوير أسـلحته .[٢] فكـان موقـف الإنكشـارية يتركز في صدهم للنظام الجديـد ، ولم تذكر لهم المصادر أي تمردات أخرى لأسباب تأخر رواتب أو ما شابه .

وهكـذا قامـت بتمرد ضد السلطان سليم الثالث وإصلاحاتهُ أرغمـتهُ خلالهـا على إبطال النظام الجديد ، وإرغامه على تعيين بعض من ضباط الإنكشارية في مناصب قيادية في أرجاء القـصر والحكومة ، وقد تقبل سليم مطالبهم وكأنه دولة مهزومة . [٣]

ولأن الإنكشارية خافت من عودة السلطان لمشروع الإصلاح قامـت بالـتجمع فـي مـيدان آت [*] وقلبوا القدور ، علامة على العصـيان ، وقـاموا بقتل رواد الإصلاح ، ورصوا رؤوسهم أمام الأهالـي ، وقرروا عزل السلطان سليم الثالث في ٢١ ربيع الآخر

---

[١] مخطوط تاريخ ملوك العثمانية ، ورقة ٤ .

[٢] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢٦ .

[٣] مرجع سابق ، ج١، ص٥٢٧ .

[*] آت ميدان : إذا خففت لفظه آت فمعناها اللحم وإذا ضمت (أط) فمعناها الفرس ، وهو المقصود هنا ، أي ميدان الخيل . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٣ .

١٢٢٢هـ/ ٢٨ يونيه ١٨٠٧م ساعدهم على ذلك المفتي الذي أصدر فتوى بوجوب عزل السلطان.[١]

وقد تعهد شيخ الإسلام بإيصال هذا إلى السلطان ، وكان ضالعاً معهم ، بتبليغ هذه الفتوى إلى السلطان ، وأبلغه هذه الرسالة مظهراً أسفه من هذه الحادثة الجبرية ، وقد تقبل هذا الأمر السلطان وغادر القصر السلطاني [٢] ونودي بعد يومين بمصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول ، سلطاناً وخلفاً لسليم الثالث . [٣]

وهكذا أهمل المشروع الجليل ، مشروع الإصلاح ، لعدم موافقتهُ لأغراض الإنكشارية المستبدة في القصر . [٤] وانسحب السلطان سليم الثالث إلى قصره ، حيث بدأ في تعليم ابن أخيه محمود الثاني أصول حكم الدولة العثمانية ، وعلمه كيفية الإحطيات من الإنكشارية وتفادي ضعف السلاطين واعتبار ما حدث تجربة فريدة من نوعها [٥] ، تستحق المحاولة مرة أخرى وهكذا وضع عصارة تجربته وعلمه في ذهن محمود الثاني وعمل على إعداده ليكمل المشوار الذي بدأه .

وكان مصطفى الرابع ١٢٢٢هـ - ١٢٢٣هـ / ١٨٠٧م - ١٨٠٨م . ألعوبة بأيدي المتمردين ، وكآله يحركونها وقتما شاءوا ،

---

[١] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٣ . السيد رجب حراز : مرجع سابق ، ص ١٧ .

[٢] عبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص٥٢٩ .

[٣] مخطوط تاريخ آل عثمان ورقة ٣٦ .

[٤] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٤ .

[٥] علي سلطان : مرجع سابق ، ص٢٦٩ .

حيث كان نصير النظام القديم ومن مبغضين النظام الجديد ، [١] وقد فــرح بـــه الإنكشـــارية كثيراً ، لكن الرعب دب في قلوب أهالي إستانبول ، فأقفلوا الحوانيت ، ثم تقدم المفتي شيخ الإسلام وقائم مقام " موســـى باشـــا " إلـــى الجموع التي كانت مجتمعه في ميدان آت وأخـــبروهم أن السلطان وعد بإبطال النظام الجديد ، فعادت السكينة والهـــدوء إلـــى صفوف الإنكشارية ، وصارت السلطة في يد القائم مقـــام " كوســـبح موسى " باشا والمفتي شـــيخ الإسلام " عطاء الله أفندي " .[٢]

استهل مصطفى الرابع حكمهُ بتثبيت الوزراء في مناصبهم ، وأعـــتمد تعييـــن قباقجي أوغلي حاكماً على قلاع البسفور ، فأعاد الإنكشـــارية قدورهـــم إلـــى ثكناتهم علامة على رضاهم وخلودهم للـــراحة.[٣] وقام بقتل كثير من ضباط النظام الجديد بناء على طلب الإنكشـــارية، وقام بإعادة النظام القديم وهكذا سادت القصر الفتن والاضطرابات . [٤]

وقـــد نال بذلك مصطفى الرابع رضى الإنكشارية ، كيف لا وهو من صنع يدهم وهم من نصبوه وموضع ثقة الرجعيين وخصوم التجديد .

وعلـــى أثـــر تمـــرد قباقجي أوغلي واختلاف قادة التمرد ، ومحاولة البيرقدار مصطفى باشا إرجاع سليم الثالث للحكم ، وعدم

---

[١] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٤ .

[٢] أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص٢٧٨ .

[٣] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٨ .

[٤] علي سلطان : مرجع سابق ، ص٢٦٩ .

موافقـــة الصـــدر الأعظــم على ذلك ، أثرت على مصطفى الرابع وزادت هواجســه ، وخــاف على نفسه من عواقب الأمور أو أن يصيبهُ سوء ، فأنقلب على الإنكشارية ، فعزل شيخ الإسلام ، وأمر بتســريح فيالق الإنكشارية ، وأظهر البيرقدار قائد هذه الحركة بأنه راضٍ تماماً عما حدث ، وأضمر محاصرة القصر والمطالبة بعودة ســليم الثالــث للحكم ، وأمر البيرقدار بحبس الصدر الأعظم لأنه عارض في عودة سليم الثالث للحكم ، خوفاً مما قد يحدث ، فأصبح موقف مصطفى الرابع حرج ، حيث خسر أنصاره الإنكشارية ، كما خسر أتباع النظام الجديد ، فخاف على نفسه والعرش ، وأمر بقتل سليم الثالث ، وأرسل أناساً لهذا الغرض ، فدخلوا عليه وهو يصلي صـــلاة العصــر فلــم يمهلــوه إلى أن يتم صلاته ، بل وثبوا عليه وأوقعوه على الأرض ، وقام مدافعاً عن نفسه ، ولكنهم تغلبوا عليه وخــنقوه حتى مات ، وحملوه للسلطان مصطفى الرابع ميتاً ، فأمر بإلقاء جثتهُ من شباك القصر للثائرين ، [1] ثم عمد إلى التخلص من قباقجـــي أوغلي قائد التمرد السابق ، [2] وأعتقد أنه بذلك سيهدأ من تمردهم ويسكن من هياج الإنكشارية ، إلا أن هذا العمل جاء بنتيجة عكســية ، فقــد زاد هــياجهم ، وقرروا عزل السلطان مصطــفى الــرابع ، وحجــزه فـــي نفس المكان الذي كان محجوزاً فيه سليم الثــالث ، ولم يتم ذلك الأمر حيث تم قتله بواسطـــة الإنكشارية في

---

(1) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٧ . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٢٧٨. انظر عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٣٣ .

(2) محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٦٠ ، ٢٦١ .

قصره ولحق من سبقوه بنفس الشكل. [1]

وهكـذا فقـد انقلبت عليه الإنكشارية ، لأنه حاول إضعافهم بتسـريح فـيالقهم ، ممـا أدى إلى قتلهِ وهم من وضعوه أصلاً ، وسيضعوا محمود الثاني من بعده ، وهو من سيقضي عليهم .

وكان مصطفى الرابع قد أمر بقتل محمود الثاني أيضاً ولكن البيرقدار مصطفى باشا ، حماه من الموت ، حيث سارع لإنقاذ سليم الثالث مع مجموعة من الرجال ، ولكنهم وصلوا متأخرين ، فعندما وصـلوا كان سليم قد فارق الحياة ، فأمر البيرقدار المجموعة التي معـه ، الإسـراع لـنجدة محمود الثاني لأنه الوارث الوحيد لتخت السـلطنة الباقي من سلالة آل عثمان ، فأخذت تبحث عنه العساكر في جميع أنحاء القصر، وكان السلطان محمود الثاني قد أصيب في يـده بخنجر ، عندما هاجمه عساكر مصطفى الرابع يريدون قتله ، فوجـدوه العساكر من أعلى السرايا، فأنزلوه منها ، وقد تهلل وجه البـيرقدار مصـطفى باشا فرحاً ، وأجلسه على كرسي السلطنة ، وهكـذا فقـد نصبتهُ الإنكشارية سلطاناً عليها، فعين مصطفى باشا البـيرقدار صـدراً أعظم ، الذي سارع بأخذ الثأر من الذين قتلوا السلطان سليم الثالث . [2]

وينتهـي تدخل الإنكشارية في القصر السلطاني أو في غيره بعهـد السلطان سليم الثالث ، حيث كان آخر ما قاموا به هو تعيين

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٧ . انظر عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ،ج١ ، ص٥٣٣ .

[2] أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٢٧٨ – ٢٧٩ .

محمـــود الثانـــي فـــي الحكم ، والذي لم يعطيهم فرصة التدخل في القصر السلطاني في عهده ، حيث واجههم بكل قوته ، وشعروا بأنه يريد الإصلاح وأنه يريد وضع نظام إصلاحي ، فأصبحوا يتحينون الفـــرص للقضـــاء عليه حتى وانتهم الفرصة المناسبة ، وحاصروا القصـــر مطالبيـــن بعودة مصطفى الرابع لكنه كان قد مات ، فألقى بجثـــته مـــن شباك القصر للإنكشارية الثائرة ، مما زاد في ثورتهم وهـــياجهم ، فأضـــرموا الـــنار في القصر السلطاني ، لكي يلجئوا الصدر الأعظم على الفرار والخروج لهم حتى يقتلوه ، ولكنه دافع عـــن القصـــر حتى الموت ، وانتهى هذه التمرد بحرقهم لأطراف المدينة وأجزاء من القصر حتى رضخ لهم السلطان ، مؤجلاً عملية القضاء عليهم حتى يستعد لهم جيداً . [1]

وهكـــذا دخـــل محمـــود الثاني إلى السلطة وهو مصر على القضـــاء علـــى الإنكشارية وقام بعمل الكثير حتى وصل إلى نهاية الإنكشارية التي كانت معول هدم في داخل القصر أثر بشكل سلبي على الدولة العثمانية وتطورها .

غـــير أن ذلك لم يمنعه في بعض الأحيان من صرف أموال علـــى سبيل المكافأة لهم أوالهدية ، حتى تأتي إليه الفرصة المناسبة للتخلص منهم. [2] لكن تدخلهم في السياسة العليا أثر على استمرار أوتوقـــف الحروب ، أو انسحاب جيش ، وبالتالي أثر على موقفها بين دول أوروبا وروسيا ، مما أضعفها فاستطاعوا التغلب عليها .

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٩٩-٤٠٠ .

[2] أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول . خط همايوني رقم الوثيقة ١٥٢٣٦ H.H .

المبحث الثالث

تدخلهم في مسائل السياسة العليا :

لقد كانت الإنكشارية سلاحاً حاداً رهيباً استطاعت الدولة العثمانية من خلاله تحقيق أكبر انتصاراتهم ، وفتوحاتهم ، كان الجيش العثماني يخوض غمار المعركة ضد أعتى الجيوش وأقواها ، ولكن شيئاً فشيئاً تبوأت الإنكشارية مركزاً مهماً في الدولة ، وأصبحت قوة خطيرة تحكمت ردحاً من الزمان في السلاطين وفي السياسة الخاصة بالدولة .

حيث بدأوا يشكلون خطراً على الدولة بتدخلاتهم في القصر كما سبق وأن أوضحت ، وكذلك تدخلهم في المسائل السياسية العليا حيث رفضوا التقدم في حرب أو الخروج لمعركة وغير ذلك ممّا أثر بشكل سلبي على كيان الدولة من الداخل ، إضافة إلى هذا أن الإنكشارية أدركوا أهميتهم في المعارك ومقدرتهم القتالية فداخلهم الغرور ، وبدافع هذا الإحساس وصلوا إلى أعلى مستوى وزجوا بأنفسهم في السياسة العليا للدولة ، وهي بالطبع مسائل ليست من اختصاصهم وكانوا يطالبون بخلع السلطان القائم بالحكم بمقولة أنه ليس له نشاط حربي ، ويتدخلون في اختيار السلطان الجديد .

وتدخل الإنكشارية في السياسة العليا كان له أبلغ الضرر على الدولة حيث أنه عندما تسيطر عقلية عسكرية على الحكم ، فإن هذه الدولة كتب عليها الهلاك لأن رجل الجيش ، يفكر بالسيف فقط ، لا يفكر بعقله وهو في نفس الوقت ليس رجل سياسة وإنما رجل حرب

وفتح بلاد وحصون ، وحكمةُ يصبح ليس فيه أي مرونة أو ليونة ، إضافة إلى أن الإنكشارية ، ستتخذ من أسلوب التمرد وسيلة لتحقيق رغباتها ، ولن تبقى في الثكنات العسكرية للتدريب ، وإنما ستتدخل في السياسة ، مما جر على الدولة المصاعب والنكبات . [١]

أصبحت الإنكشارية هي القوة المتحكمة تماماً في سير السياسة فإذا لم تكن ترغب في شيء قضت عليه ، وهذا ما حدث بالنسبة للإصلاح ، فقد استطاعت أن توقفه لأنه ليس في مصلحتها .

وقد صدق المؤرخون عندما قالوا عنهم أنهم تحولوا من "ضباط أمن ودفاع " إلى " آلات شر وفساد " فقد تضاءلت صلاحيتهم في وظيفتهم الأساسية الحرب والقتال ، وتفاقمت سلطتهم على الناس والأرواح ، وكثر تعديهم على الأموال و الأعراض .

ونجد أنهم لم يتركوا سلطاناً إلا وأدخلوا أراءهم في سياسته العليا.

أول ذكر لتدخلهم في السياسة العليا في عهد بايزيد الثاني ٨٨٦ هـ - ٩١٨هـ / ١٤٨١م - ١٥١٢م ، فقد ساد ، الهدوء في بداية عهده ، ولكن الإنكشارية ظلت تتحين الفرصة لتستهتر بأوامر السلطان بايزيد ، خاصة مع طول المدة التي بقوا فيها بلا

---

[١] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٣ .

حــرب، وجــاءتهم الفرصــة مناسبة عندما آوت مدينة بروسة (*) الأمــــير جــم (**)، فساروا إليها وهموا بسلب المدينة، ولم يوقفهم عن هذا الأمر إلا دفع السلطان بايزيد لهم ألف أقجة لكل جندي.[1]

وعلى هذا نرى أن تمردهم كان في البداية كشعلة صغيرة في الهشــيم لكن رغبة السلاطين في استمرار الفتوحات ونشر الإسلام جعلهم يتحملون مطالب الإنكشارية وتمرداتهم المبكرة جداً . خاصة وأن لهم الفضل بعد الله في الفتوحات ونشر الإسلام .

وبذلك أعتلى العرش سليم الأول ، والذي اعتبرته الإنكشارية مديــناً لهــا بحياته والعرش ، فأغدق عليهم الهدايا ، إلا أن هذا لم يجدي نفعاً ، فقد اسهموا في تقليص الفتوحات ، وتمردوا عليه رغم قــوة شخصــيته وصــرامته ، ورغم محاولتهِ أن يربطهم مباشرة بشخصهِ ، إلا أن ذلك لم ينفع . [2]

ومع هذا فقد ظل خطر الإنكشارية جاثماً على الدولة العثمانية وعلــى ســليم الأول بالأخص ، إذ أنه رضخ لرغباتهم في توزيع العطايا، لكن سرعان ما ظهر نفوذهم وتدخلهم الصريح في السياسة العليا بعد عام ونصف في حرب سليم الأول ضد الشاه إسماعــيــل

(*) بروســه مدينة تقع في الأناضول . بنيت على سفح جبل ، أسسها ملك بيثينيه ، بروسه بروسياس الثاني لها أهمية تجارية ،واستراتيجية في الدفاع ضد الأتراك فتحها أورخان سنة ٧٢٦هـــ – ١٣٢٥م وجعلها عاصمة ولاياته .س. موستراس : مرجع سابق ، ص١٥٧ ، ١٥٨ .

(**) طــوال فترة حكم السلطان بايزيد الثاني كان على خلاف مع اخيهِ جم على العرش وهذا ما جعله يوقف الفتوحات على الجبهة الخارجية ، ويتفرغ للجبهة الداخلية ، .

[1] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٢ .

[2] مرجع سابق ، ص١٣٢ .

الصفوي ، وكان تدخلهم ينذر بخطر شديد . [١]

وقـد كانت أبرز أخطار الإنكشارية في عهد سليم الأول هي تسـببهم فـي إيقاف بعض الفتوحات ، مثل إيقاف الحرب في بلاد فـارس ، بـل وقطع رأس الصدر الأعظم ورأس قاضي العسكر ، ورأس قائدهم أيضاً.[٢]

وتفصيل هذه التمردات أنه في أثناء حرب الدولة العثمانية مع الدولة الصفوية في فارس ، وأثناء سير السلطان سليم خلف خصمه الشـاه إسماعيل الصفوي ، وكان سليم معسكر في منطقة " أق ده " القريـبة من قلعة " كماخ " حيث تبادل الرسائل مع الشاه إسماعيل الصفوي ولكن دون نتيجة وبقي سليم على رأيه يسعى خلف خصم لـم يخرج لمقابلته ، في الوقت الذي دمر فيه هذا الخصم الجسور وحـرق الغلال وأعلاف الحيوانات، فبدت خطة الشاه إسماعيل في الأفـق للإنكشارية ، وهي أن يخوضوا في الأراضي دون مؤن أو أعـلاف، خاصـة وأن المواد الغذائية بدأت تقل في توزيع الجرايه اليومية ، فبدأت همسات ولمزات الإنكشارية، وكذلك أصوات التذمر في الارتفاع ، ولأن الوزراء ومستشارين السلطان خافوا من تجيش الجـيوش دون فـائدة ، حـاولا إيصال[*] هذا المعنى إلى السلطان

---

[١] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٠ .

[٢] محمد أنيس : مرجع سابق ، ص٧٨ .

[*] وقـد كلفـوا همدم باشا بكلربيك قرمان بمهمة إيصال تذمر الإنكشارية للسلطان وكان رفيق صباه وكانت مهمته صعبة وشاقة خاصة مع مزاج سليم المتعكر ، وقد باءت مهمته بالفشل ودفع حياته ثمناً لها ، انظر محمود حسن الصراف : معركة جالدران ٩٢٠ هـ – ١٥١٤م ، د. ط ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩١م ، ص٨١ .

ســـليم ، لكـــن دون فـــائدة ، خاصــــة وأن الإنكشارية قد قطعوا المســـافات الطويلة دون أن يقابلوا هذا العدو الذي أتوا لمحاربتهِ ، وبـــدأ عليهم الإرهاق والتعب وعدم الرضا ، وقد تمت تهدئتهم قليلاً بعد أن عين " زينل باشا " في قيادة الجيش بدلاً من همدم باشا"(*)(١)

فـــي هـــذه الأثناء كانت موقعة جالديران (**) على الأبواب ، أشيع بين الجنود أن السلطان مصمم على السير إلى تبريز وفتحها ، ولأن الإنكشـــارية قـــد ســـئموا من طول الطريق ومتاعب السفر ، إضـــافة إلـــى قلة المؤن ، ثارت الإنكشارية للمرة الثانية ولكن هذه المرة اختلف أسلوبها عن سابقتها ، فقد كان الفضل في تهدئتهم في المرة الأولى يرجع إلى سياسية همدم باشا ، وهذه المرة جاء التمرد علـــى شـــكل عصـــيان عسكري فقد وضعوا بنادقهم على الأرض وعلقوا عليها أحذيتهم ، وهذه الأعمال في عرفهم تدل على أنهم لن يتحركوا خطوة واحدة إلا في إتجاه إستانبول. (٢)

فتنـــبه السلطان للموقف المتدهور ، وبدأ في علاج الأمر وقد أرســـل مندوبين من قبلهِ لمقابلة ممثلي الإنكشارية ، والذين قالوا ما يلي :

(*) ذكرت بعض المصادر التاريخية أنهم أثناء هذا التمرد أطلقوا الرصاص على مقر قيادة السلطان ، وأثاروا عليه لواء الوكلاء ، راجع إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٠٧ . ولكن لم يأتي ذكر هذه الحادثة في مرجع أو مصدر آخر .

(١) محمود حسن صراف : مرجع سابق ، ص٨٠-٨١ .

(**) جالديـــران : تقـــع صـــحراء جالداران في شمال غرب مدينة خوى ، وتبعد عن مدينة تبريز ٢٠ فرســـخاً . وكانت من توابع ولاية " يخور سعد " الأرمينية ، محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص٨٦ .

(٢) مرجع سابق ، ص٨٤-٨٣ .

" لقـــد حضرنا للحرب ، والحال أننا لسنا أمام عدو حتى نحاربه ، وإلى أين يمكن الذهاب في هذا البلد الخرب؟!! إن ســفرنا الطويـــل وقلة المؤن " الجراية والعلوفة " قد أصـــابت خـــيول الفرسان والمدفعية بالتعب والإرهاق ، والجـــيش الـــذي أصيب بالتعب والإرهاق لن يتمكن من التعامل مع جيش العدو المحتفظ بقوته ، علاوة على أنه في حالة الدفاع. تقصير من هذا ؟وهذا العار الذي لحق بنا أسوأ لنا من الموت ، ويمكن إرسال شخص إلى "أردبـــيل أوغلو " أي الشاه إسماعيل ليغقد معه صلحا . [1]

وعلـــى أثر هذا الحديث اضطر السلطان إلى الخروج بنفسه من مقر القيادة، ليتحدث معهم ، واكتفى بتهديدهم ، ولمح إلى تحقيق رغبـــتهم كذلك، كما أنه أشاع بين الإنكشارية عن طريق جواسيسه أنـــه ســيعقـــد صـــلح مع الشاه إسماعـــيل بمجرد وصوله إلى مديـــــنة " خوى " بتكليف العلماء بهذا الأمر ، وإذا لم يتمكنوا من عقـــد الصلح فإنه لا مفر من الحرب . وهكذا نجحت خطة السلطان وهـــدأت ثورة الإنكشارية ، وعاد كل فرد منهم إلى وحدته وتحرك الجيش بإتجاه " خوى "[*] .

وكانـــت هـــذه الأخبار قد وصلت إلى الشاه إسماعيل ، فأراد اســـتغلال وضع الجيش العثماني للنيل منه ، وهو في حالة الإجهاد

---

[1] محمود حسن الصراف : مـــرجع سابق ، ص٨٣ .

[*] خوى : تقع في ولاية طرابزون ، لواء كردستان ، على البحر الأسود . س. موستراس : مـــرجع سابق ، ص٢٦٠ .

والإحـــباط النفســـي وعــــدم الاتزان ، فتحرك صوب " خوى " وقد وصلت هذه الأخبار لسليم عن طريق جواسيسه (*) ، وفي أثناء سير ســـليم إلى " خوى " جاءته رسالة من الشاه إسماعيل تفيد بأنه قرر الحرب وحدد سهل جالداران مكاناً لها ، فتحرك سليم فوراً لأرض المعركة ، وفي هذا كان راحة لسليم لخوفهِ من التقدم أكثر في شمال غـــرب فـــارس لتعرضه لعصيان الإنكشارية من جديد ،[١] وهكذا وقعت معركة جالديران (**) الشهيرة في فجر يوم الأربعاء ٢ رجب ٩٢٠هـــــ والموافــق ٢٢ أغســـطس ١٥١٤م ، وتلا ذلك بعدة أيام دخـــول تبريز ، وقد دخلها سليم منتصراً واستولى على كنوز الشاه وتحفه ونساءه ، وانتقل سليم من نصر إلى آخر متوغلاً في أراضي الدولة الصفوية ، وتراجع الشاه إسماعيل إلى داخل بلاده خـــوفاً من

(*) لقـــد جاءت الأخبار تفيد بأن حاكم ديار بكر محمد خان أستاجلو وهو أحد قادة الشاه إسماعيل ، قد وصـــل بجيشه إلى خوى ، وأن الشاه أصبح قريباً منه ، ثم جاءت رسالة أخرى تفيد أن الشاه قد التقى مـــع قـــائدهِ في خوى على رأس قوة القزلباش ، وهذ المعلومة جاءت من شهسوار على بيك أحد قادة فـــرق الفرسان العثمانيين، وهذا الخبر أسعد سليم نوعاً ما فأهدى هذا القائد فرساً قيماً مرصعاً سرجه ولجامـــه بالياقوت والزمرد ، وكانت هذه الهدية دليلاً على الفرحة بهذا الخبر ، لأن سليم كانت حالته النفســـية ســـيئة للغايـــة ، وقـــد كان مثل هذا الخبر سيريحه من مغبة التقدم دون معرفة النتيجة لأنه سيتعرض بلا شك لعصيان وتمرد الإنكشارية ، إضافة إلى تعريض جيشه للدمار والخطر الكبير .

[١] محمود حسن الصواف : المرجع السابق ، ص٨٣-٨٦ .

(**) موقعـــة جالديران : لها أهمية تاريخية بالغة ، حيث بلورت العداء الديني والسياسي بين الجارتين الدولـــة العثمانية والدولة الصفوية ، وكانت محصلة طبيعية للعلاقات السياسية العدائية بين الطرفين ، وأصـــبحت الأمـــور فيما بعد نتيجة للعاطفة الدينية الجياشة لكلا الشعبين التركي والفارسي ، أصبحت العصـــبية المذهبـــية عصبية سياسية ، أي العداء بين السنة والشيعة ، وأصبح العالم الإسلامي منقسم إلـــى قسمين السنة وتتزعمها الدولة العثمانية ، والشيعي وتتزعمها الدولة الصفوية ، مما كان له أبلغ الأثر السيئ على الدولتين . محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص١٣٨ .

الوقوع في الأسر ، وكان سليم في قمة انتصاره . [١]

وقــد أراد سليم اكتساح بلاد فارس ، لكن هذا الأمر لم يتم إذ سرعان ما حدث تغير في الموقف الحربي ، فلم تطل إقامة سليم في تــبريز أكــثر من ثمانية أيام ، بسبب عدم رغبة الإنكشارية ، في الــبقاء ، أو الموافقة على خطط سليم العسكرية ، وبدأوا يلحون في العــودة لديارهم ، وبدأوا حركة عصيان وتمرد ثالثة ، على الرغم مــن أن السلطان بمجرد نزولهُ في تبريز ، إذا لم يمض يومان إلا وكــان قد دفع لهم رواتب ثلاثة شهور دفعة واحدة كمكافاة لهم على الانتصــار في المعركة ، إلا أن هذا لم يمنعهم من التمرد والامتناع عــن تــناول الطعــام في وقت الظهيرة ، بل وقلبوا قدورهم أمام الخــيام . وكان هذا دليل على اعتراضهم وعدم رضاهم . [٢]

وهكــذا نجــد أن العطف الذي أحاطهم به سليم من البداية لم يكن ذا فائدة فعندما أمرهم سليم بمواصلة الزحف في بلاد فارس ، رفضوا الامتثال لأوامره والتقدم إلى ما بعد نهر آراس [*] ، بحجة الــبرد القارس وقلة المؤن وقد صدق القول فيهم " فإن أنت أكرمت اللئيم تمرداً " [٣]

فــي الناحــية المقابلة كان الشتاء على الأبواب ، والجيش قد عضه الجوع ، لقلة المواد الغذائية في هذه البلاد ، خاصة وأن الشاه

---

[١] عــبد العزيز الشناوي ، ج١ ، المرجع السابق ن ص٥١٠ . انظر محمود حسن الصراف :مرجع سابق ، ص٨٦ .

[٢] مرجع سابق ، ص١١٧ راجع بسام العسلي : مرجع سابق ، ج ٥ ، ص١٥٢ .

[*] هــو نهر اراس Aras وهو ينبع من جنوب تركيا ويمر بشمال إيران ثم روسيا ويصب في بحر الخزر . انظر محمد فريد بك المحامي : مصدر سابق ، ص١٩١ .

[٣] مصدر سابق : ص١٩١ . انظر محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٣ .

إســماعيل قد أمر بحرق المؤمن والغلال التي في تبريز وقراها ، ودمر مصادرها تماماً ، لكن السلطان استطاع بصعوبة بالغة توفير الغلال من قمح وشعير لقواتهِ ، والأعلاف للدواب ، وقد كلفته مبالغ طائلة في شرائها من أرمينيا وكردستان ، وكذلك في نقلها ، ومن هــذا المنطلق ، رأى أنه من الصعب توفير المؤن اللازمة للجيش خلال فصل الشتاء لارتفاع تكاليف شرائها ونقلها من ناحية ، ومن الناحــية الأخرى انقطاع الطرق بسبب تراكم الثلوج في المنطقة ، فــأجل فتح تلك البلاد إلى فرصة أخرى، وقرر الرجوع إلى بلاده أماســيا ليقضـــي فصل الصيف فيها ويستأنف الحرب في الشتاء ، ولكن الإنكشارية عندما علموا بذلك ثاروا وهاجوا وأقسموا على أن مــا مــن قوة في الدنيا تستطيع إجبارهم على التوغل في تلك البلاد الفيافي الجرداء . [١]

وقد استدعى السلطان سليم أغا الإنكشارية وجماعة من قادتهم وكان في حالة غضب وسألهم لماذا لم يتناول الجنود طعامهم ، وما هو سبب عدم رضاهم، بالرغم من أنهم أخذوا رواتب ثلاثة شهور ، وحصلوا على جزء كبير من الغنائم ، وعطايا الفتح،فماذا يريدون ؟ أجابــه أغــا الإنكشارية ، أن مطلبهم الوحيد هو الاكتفاء بهذا الفتح الكبــير والعــودة إلـــى آسيا الصغرى بأسرع ما يمكن . فأمهلهم السلطان مدة ٢٤ ساعة ليقدموا ردهم كتابة ليتسنى دراسته . [٢]

---

[١] محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص١١٧-١١٨ . انظر حبيب السيوفي مرجع ســابق ، ص١٧ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٩١ .

[٢] محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص١١٨ .

وفي اليوم التالي ذهب أغا الإنكشارية إلى السلطان سليم وقدم عريضة (*) موقعة من ضباط وجند الإنكشارية ، أصروا على عدم محاسبة أهل فارس ، وذلك لأنهم مسلمين وموحدين بالله ، ولكن يختلف مذهبهم ، وقد تأثر سليم بهذه العريضة جداً ، وطلب من العلماء والقضاة والمفتي أن يعرف فتواهم في مذهب الشيعة هل هو حق أم باطل ؟

وقد تدارس العلماء هذا الأمر وخرجت فتواهم (**) بأن هذا المذهب باطل ويجوز محاربتهم لأنهم حللوا أكثر الأفعال المحرمة ، والذي حلله الله حرموه ويغيرون في أحكام القرآن ، وقد أرسل سليم إلى الإنكشارية نسخة منها ، ليقرأ على الجنود ، ولكن لم تهدأ ثورتهم إلا ظاهرياً ، وبدأوا في ممارسة أعمالهم اليومية داخل معسكراتهم ، إلا أنهم كانوا لا يزالون في داخلهم يرددون أن محاربة الفرس ليس لها داعي لأنها بدون سبب . حتى أنه في نفس الليلة قد أطلقت ثلاث سهام على مقر إقامة السلطان ومزقت خيمته وبحث في هذا الأمر ولم يجد نتيجة . وإزاء هذا الموقف قرر السلطان نهائياً العودة إلى إستانبول . [1] وقد خاف سليم من تمردهم مرة أخرى ، وهو بعيد عن قاعدة دولتهِ مما قد يعرض الجيش للتمزق ، وكان تقدير السلطان للموقف الحربي أن الانسحاب هو أخف الضررين ، خاصة وأنه خاف من أن ينتهز الشاه إسماعيل

(*) لمراجعة نص العريضة . انظر الملاحق .

(**) لمراجعة نص فتوى العلماء والقضاة انظر الملاحق .

(1) محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص ص ١١٨-١٢٠ .

هــذه الفرصة الذهبية ، ويعيد ترتيب جيشه ، ويعاود الهجوم على الجــيش العثماني وينال منه وتصبح الانتصار هزيمة ، فآثار سليم الرضوخ لرغبتهم والعودة . [١]

وترى الدراسة أن في تمرد الإنكشارية بعضاً من الحق حيث أن المدة طالت ، وظروف الطقس سيئة ، إضافة إلى أن قلة المؤن الغذائية والأعلاف زادت من الأمر سوءاً ، كما وأن سليم لم يستمع لهــم في البداية وقتل همدم باشا ، ولكن تمردهم لا يصل إلى درجة إيقــاف الحرب ، وإنما كان يكفي إظهار عدم الرضا والسخط فقط خاصــة وأن ســليم قد رضاهم بالعطايا ، أما بالنسبة لعدم اقتناعهم بقتال الصفويين الشيعة فهذا غير وارد لأنهم عندما خرجوا للحرب كــانوا يعلمــوا أنهم ذاهبين لحرب الدولة الصفوية واعتبروه جهاد للقضاء على المذهب الشيعي .

وقــد كــان فــي أثناء الإعداد للحملة ، أن خاف قادة الجيش والــوزراء من بعد المسافة ووعورة الطريق ، ولكن حدث ما ثبت عــزم السلطان هو أن أحد أفرد الإنكشارية ويدعى عبد الله أرتمى على قدمي السلطان وقال:

> " يا مولاي لا تتردد في هذا الجهاد المقدس ، ولكن موافقــاً دائمــاً وسيفك بتاراً . إن جنود الإنكشارية معك ، وسوف يرافقونك إلى أي مكان تتوجه إليه ، ونحن في انتظار أوامرك لمحاربة " أردبيل أوغلي".

---

[١] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٤٩٥-٥١٠ .

ومـــن هـــذا النص يتضح تصميم الإنكشارية على الحرب ، وأصـــبح الوضـــع واضـــحاً ومهيـــئاً للمسير وقد نال هذا الجندي استحسان السلطان ، لدعاءه ورجاءه ، حتى أنه رفع درجتهُ من قائد فصـــيلة إلى درجة أعلى بجانب ولاية سالونيك . [١] وهذا يدل على أن الإنكشارية كانت تعلم وجه الجيش ومن سيحارب ، فتّمردهم إذاً لم يكن بسبب الذي ذكروه في العريضة ، وإنما كان فقط لخوفهم من قلـــة المؤن ، ولطمعهم في عطف السلطان ، ورغبتهم الحقيقية في العودة لبلادهم .

على أنه يوجد أسباب أخرى لمطالب الإنكشارية ، مثل سوء الأحوال الجوية في فارس ، إضافة إلى أنهم تذرعوا بحجة الاكتفاء بهذه الفتوحات في بلاد أرمينية وما بين النهرين ، كما أوضحوا أنه من الصعب تعقب الشاه إسماعيل الصفوي ، لوعورة المسالك وكثرة المستنقعات ووجود الهضاب المرتفعة . [٢]

و يوجـــد ســـبب آخر لتمرد الإنكشارية وإذ لم تذكره أغلب المصـــادر، فقد ذكر في مصدر واحد ، حيث أوضح أن الإنكشارية كـــانوا لا يرضـــخون لرغبة السلطان إذ ما قام بعمل لا يعجبهم فلم يقبلوا أن يأخذ سليم بهروزه هانم [*] زوجة الشاه إسماعيل المسلمة ، وإزاء هـــذا الموقف، وحتى لا يكون سليم عرضة للقيل والقال من

---

[١] محمود حسن الصراف : المرجع السابق ن ص٤٩ .

[٢] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٠ .

[*] بهـــروزه هانم هي زوجة الشاه إسماعيل والأقرب إلى قلبهِ ، ونفسه من بقية زوجاته ، وقد حاول استردادها مرات عدة من الأسر لكن سليم لم يوافق ولم تكتب أخبار كثيرة عنها احتراماً لسيدهم وإمام الشيعة . محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص١١٠ .

قادة الإنكشارية فزوجها لقاضي عسكر الأناضول ، لكن هذا الزواج كـــان مشـــئوم ، إذ لــم يمض شهران حتى ثارت الإنكشارية أثناء طـــريق العودة في أماسيا ، واستمرت ثورتهم عشرة أيام ، وصبر سليم عليهم حتى وصل إلى إستانبول. [1]

وقـــد قرر سليم على إثر تمرداتهم المتكررة هذه أن يتخلص من رؤوس الفتنة والمحرضين على التمرد ، خاصة وأنه سمع من الإنكشارية تكرارهم لاسم إبنهُ سليمان ، فقلق وخاف من أن يفعلوا مع إبنهِ ما فعلوه معه ضد إبيه بايزيد ، وعندما أقترب من مشارف إستانبول أمر بنقل الإنكشارية عبر البحر ، وحينما رأوا الإنكشارية أنفســـهم فـــي هـــذا المأزق ، ليس لديهم رواتب أو سفن تـــدخلهم العاصـــمة ، فخمدت ثورتهم، وذهبوا إلى أبواب العاصمة ، حاملين عصيهم البيضاء دليل السلم ، وطلبوا السماح من السلطان مظهرين الندم على ما فعلوا ، [2] فاجتمع بكبار شخصيات الإنكشارية وتحدث معهـــم على الثورتين المذكورتين وعرض أسماء مثيري التمرد ، وأصدر أمر إلى قاضي أدرنه يتضمن تنفيذ حكم الإعدام فيهم .[3] ثم أحضرهم مكبلين بالحديد وضرب أعناقهم وتخلص من رؤوس الفتنة عـــند أســـوار المدينة ، ثم سمح للباقي بالعودة لثكناتهم ، كما جعل لنفســـه الحـــق في تعيين القائد العام لهم ، بدون أن يكون من قادة

---

(1) محمود حسن الصراف : المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

(2) حبيب السيوفي : المرجع السابق ، ص١٧ .

(3) أرشيف توب قابي سراي : تصنيف E ١١٤٥٧ محمود حسن الصراف : المرجع الســـــابق ، ص١٢٧ .

الإنكشـــارية وذلك لضمان السيطرة عليهم . [1] وفي أثناء ذلك قام بالــتخلص مــن قاضـــي العسكر جعفر جبلي زوج بهروزه هانم ، وقــتــله ، وهكذا انتهت قصتها ولم يعرف مصيرها . [2] وبعد هذه الأحداث والتمردات والقضاء على من قام بها لم يسمع بعد ذلك عن ثــورات أو تمـــردات للإنكشارية داخل إستانبول [3] ولكن خارجها سيكون هناك ثورات كما سيأتي ذكرها .

لقــد كانـــت لهم تدخلات في أثناء ضم مصر فقد حصل بين الإنكشـــارية وبعضهم اختلاف وارتفعت أصواتهم وأرادوا الهروب مـــن ساحة المعركة ، ولكن خافوا من عار الهزيمة ، فآثروا البقاء والتصالح والانقضاض على العدو ، وقد سمع سليم الأول أصواتهم فوقــف ينظر إليهم ، فاعتقدت الإنكشارية أن السلطان يريد تركهم فأحـــاطوا بجـــواده ، وقـــالوا له بلسان واحد أين تذهب هل تسلمنا للموت وتنجوا أنت بنفسك ، قف وأثبت أما تغلِب أو تغلُب . [4]

هذه الحادثة إن هي صغيرة وغير محدده بزمن أو مكان ولكن تـــدل علـــى مدى استعدادهم للثورة والتمرد ، على الرغم من أنهم جنود دربوا على الحرب وليس العصيان .

---

[1] حبيب السيوفي : المرجع السابق ، ص١٧ . أنظر محمد سهيل طقوش: مرجع سابق ، ص٢٥٠ .

[2] محمود حسن الصراف : مرجع سابق ، ص١٢٨ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص١٩١.

[3] إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٨ .

[4] محمـــد الزنبلـــي الرمال : سيرة الجراكسة وما وقع بينهم مع السلطان سليم بن بايزيد بن السلطان محمد الفاتح القسطنطينية من الحروب والقتال . مخطوط ورقة ١٤-١٥ .

لقـــد كانـــت لهم حركات تمرد في القاهرة فـــفي ٤ شعـــبان ٩٢٣هــ / ٣١ أغسطس ١٥١٧م حدثت واقعة مهولة ، حيث قبض السـلطان على حوالي أربعين من جنود الإنكشارية وقد أمر بشنق جماعـــة منهم ، وقطع أيدي البعض الآخر ، وذلك لأنه ثبت عليهم أنهـــم أرادوا قـــتل السلطان أثناء تواجده في مقياس النيل كما وأن السلطان أراد معاقبتهم على ما فعلوه مع خاير بك[*] في نفس السنة يـــوم الـــثلاثاء ٢٨ شـــعبان ٩٢٣هــ / ٢٤ سمبتمبر ١٥١٧م حيث أرســـل إليه بخبره بأن الإنكشارية ثارت وطالبت بأن يجعل لهم كل يوم لحم وعليق مثل المماليك سابقاً. [١]

وقد أحس السلطان سليم الأول نزعة الإنكشارية نحو التدخل فـــي السياسة العليا والتمرد العسكري ، وقد وضحت له هذه الأمور منذ الأيام الأولى لحكمهِ وفي أثناء حربهِ في بلاد فارس ، فرأى أن يحد من قوة الإنكشارية بعد ما أحس بضغطهم الشديد عليه ، وكسر حـــدة قوتهـــم ، وجبروتهم ، مع الإبقاء عليهم كتنظيم عسكري في الجـــيش ، والاســـتفادة منهم كقوة مشاة لها ثقلها في الحرب ، فقام

---

[*] خاير بك أول أمير أمراء للعثمانيين على مصر . أصله شركسي ولد في إقليم قراج عام ٨٦٨هــ/ ١٤٦٤م تـــربى في قصر قايتابي ، وصار من مماليك قايتباي ، تدرج في الوظائف ، حتى أرسل إلى السلطان بايزيد الثاني رسولاً بهدايا قيمة ، وقد شكل دوراً أثناء ضم سليم الأول لمصر ، ودوره الجيد انعكـــس فـــي تولـــيه منصـــب والي مصر لما له من معرفة ودراية بأحوال مصر والمماليك وقيادة العــــرب ، وقد نظم علاقة الأمراء العثمانيين والجيوش والمماليك وشيوخ العرب كان يقدم كل عام مقـــدار مـــن خـــراج مصر وبارود وجنود أحياناً توفي عام ٩٢٨ هــ – ١٥٢٢م . الموســـــوعة الإسلامية : الوقف الديني بتركيا ، ج١٧ ، د. ط ، إستانبول : ١٩٩٨م ، ص٤٩ – ٥٠ .

[١] إبـــن إيـــاس الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، الطبعة الثانية ، القاهرة : مكتبة مدبولي ، د.ت ، ج٥ ، ص ٢٠٢ –٢١٠ .

بتوزيعهم على البلاد المفتوحة، فعندما ضم بلاد الشام سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ثم ضم مصر ٩٢٣هـ / ١٥١٧م ، ترك قوات في الإقليمين لتعزيز القوات العثمانية في المنطقتين ولدعم الحكم العثماني من ناحية ، وتشتيت جموع الإنكشارية من ناحية أخرى ومنع تجمعهم في العاصمة ، وعندما عاد سليم الأول إلى إستانبول ، تلقى نداء استغاثة من خير الدين [*] بربروسا، ليعاونه في جهاده ضد الأسبان ، فأرسل له السلطان سليم الأول عام ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ألفين من الإنكشارية ، كإجراء سريع ، ولدعم حركة الجهاد الإسلامية في شمال إفريقيا . كما سمح له بتجنيد الأهالي من الأناضول حتى يتمكن من مواجهة الأخطار المسيحية الصليبية ، وقد أقبل أهالي الأناضول على هذا التجنيد طمعاً في الغنائم من ناحية ، وإسهاماً في حركة الجهاد الديني من ناحية أخرى ، هذه الأعمال جاءت متماشية مع سياسة سليم الأول في تفريق الإنكشارية وهي السياسة التي أرسى قواعدها إتجاه الإنكشارية [١]. وذلك لأنهم إذا بقوا في العاصمة مجتمعين صاروا قوة كبيرة يصعب التغلب عليها في حالة أي تمرد .

---

[*] خير الدين بربروسا " أي حمر اللحية " أصله تركي نشأ في جزيرة مدللي ، في بداية حياته مارس التجارة، ثم أسس قاعدة في جربه بتونس ، انطلق منها إلى الجهاد البحري وقد صار اسم بربروس يثير الرعب والذعر في قلوب القوى الصليبية في البحر المتوسط وعلى رأسها الأسبان . أنظر عبد اللطيف محمد الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس ، الطبعة الأولى ، الرياض : العبيكان ، ١٤١٤هـ – ١٩٩٣م ، ص٧٦ .

[١] عبد العزيز الشناوي:مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٠٠ . محمد سهيل طقوش:مرجع سابق،ص٢٥٠ .

فـــي أعقـــاب معركة مرج دابق ٩٢٢هـ / ١٥١٦م ، أعتقد الأهالـــي أن البلاد ستخلد للراحة ، ويرفرف عليها طير السعادة ، لكن الوضع لم يصبح ، إذ زادت الضرائب وصارت تجمع بقسوةٍ ، وزاد فساد الإنكشارية فكانوا يجمعوا الأخضر واليابس في القرى ، خاصـــة وأن الإنكشـــارية كانت تنتشر في القرى ، وفي هذا الوقت يزيد الاعتداء على بيوت الأهالي وعلى أموالهم وأعراضهم ، ويكثر خطف النساء من الطرقات وهكذا . [١]

وقد كان لهم تمرد في القاهرة حيث تذكر المصادر حادثة في يوم الإثنين ٢٧ محرم ٩٢٤هـ/ يناير ١٥١٨م إذ طلب خايربك [**] والـــي القاهـــرة من جنود الإنكشارية السفر للشام ، ولما جاء يوم الإثنيـــن ولـــم يخرج الجنود وأظهروا العصيان على السفر ، قرّر خايـــربك الخروج لهم والقبض عليهم ، فنزل من قلعة قايتباي إلى مشـــارف القاهرة ، وحدثت فتنة واشتباكات بين جند خاير بك وجند الإنكشـــارية ، حتى أن الناس خافوا على بضائعهم من نهب الجنود فـــنقلوها من الدكاكين إلى أماكن أكثر أمن وخاصة تجار الأقمشة ، لأن الناس كانت تعلم نهب الإنكشارية وضررها . [٢]

لقـــد فســـدوا كثـــيراً في فتوحات سليم الأول وكانوا يدخلون المديـــنة وينهـــبوها ويعيـــثون فـــيها فساداً ، مخالفين بذلك شروط

---

[١] محمد كرد علي : مصدر سابق ، ج٢ ، ٢٤٣ – ٢٤٤ .

[*] للاستزادة عن أحوالهم مع خاير بك.انظر ابن إياس : مصدر سابق، ج٥، ص ص٢٥٠ – ٢٥٨.

[٢] إبن إياس : مصدر سابق ، ج٥ ، ص٢٣٨ .

التسليم ، وكانوا يرتكبوا شتى أنواع المعاصي والمحرمات ، خانوا الأمانات ، وقطعوا الطرق ، ونهبوا المنازل والدكاكين . [1]

وجاء السلطان سليمان القانوني ، وتقدمت الفتوحات في أيامه تقدماً كبيراً ، وكثرت الفتوحات ، وبلغت الدولة أوج تقدمها وإتساعها ، لكن هذه الفتوحات لم تمنع الإنكشارية من القيام بتمردات ، ففي أثناء فتح رودس وعندما تم عقد الصلح وتسليم الجزيرة في خلال إثنى عشر يوم ، وكان بشرط أن تبتعد الجيوش العثمانية عن المدينة المحاصرة ، حتى لا يتضرر الخارجين من المدينة وكان ذلك في ٢ صفر سنة ٩٢٩هـ/ ٢١ ديسمبر ١٥٢٢م لكن جزأً من الإنكشارية لم يطق صبراً فدخل المدينة في ٥ صفر مخالفين بذلك أوامر السلطان سليمان ، وقاموا بنهب المدينة وسلبها وارتكاب كافة أنواع القبائح ، ومما أغضب عليهم السلطان ، وأمر بالالتزام بشروط التسليم ، وعاقب المفسدين على أفعالهم وهكذا عاد الأمن إلى المدينة . [2]

لقد أصبح أسلوب الإنكشارية إذا فتحوا أي بلد السلب والنهب وحرق الزرع وتخريب الديار . [3] وكانت حركة تمردهم في رودس [*] تدل على أنه أصبح من الصعب السيطرة عليهم وأنه من

---

[1] حسين ابن كمال البغدادي القادري : مخطوط ، ورقة ٥ . وراجع محمد أنيس : مرجع سابق ، ص٧٨ .

[2] محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص٢٠٦ راجع بسام العسلي مرجع سابق ، ج٥ ، ص١٢٤ .

[3] حسين كمال القادري البغدادي : ورقة ١٩ .

[*] رودس : تقع في البحر المتوسط ، تعاقب على حكمها الإغريق ثم الفرس ثم الرومان ثم فرسان القديس يوحنا ، حتى فتحها سليمان الثاني ، س. موستراس : مرجع سابق ، ص٢٧٨ .

الممكـــن خروج زمامهم من يد السلطان ، استباحوا لأنفسهم أشياء عديـــدة ليست من أخلاق الجندي المسلم ، وكل ذلك حدث في عهد يعتبر من أقوى عهود الدولة العثمانية ، وما سيأتي بعد ذلك كـــان أكثر فظاعة ، على الأقل هنا لم يفكروا مطلقاً بقتل السلطان .

وبعد فتح رودس لم يقم السلطان سليمان بفتوحات لمدة ثلاث ســنوات ، هذا الهدوء لم يريح الإنكشارية ، كانوا يريدون الحرب لكثرة الغنائم ، ولأنهم لم يميلوا بعد لحياة الراحة والرفاهية ، وكانوا كالـــنار تـــأكل بعضـــها إن لـــم تجـــد ما تأكله ، [1] كما أن جنود الإنكشـــارية القدمـــاء كـــانوا يتذكرون كيف أنهم حرموا من نهب رودس عـــند فـــتحها ، وقـــد زاد على ذلك أنه في سنة ٩٢٩هـــ / ١٥٢٢م . بقـــوا في المدينة متحملين آلامهم لعدم وجود حرب ، في الوقـــت الـــذي خرج فيه السلطان سليمان لقضاء الشتاء في أدرنه للصـــيد ، مخالفـــاً بذلك القواعد بتركهم ، واصطحب معه الديوان وكـــبار الضباط ، فشعرت الإنكشارية بألم جديد أضيف عليهم ، فقد تـــركهم الســـلطان للبرد والبطالة ، فقاموا بعمل تمرد وقلبوا قدور حســـائهم، ونزلوا إلى الشوارع مسلحين بأسلحتهم النارية والرماح والسيوف ، وقاموا بحرق بيوت بعض الأهالي ونهبها [2] وهنا ترى الدراســـة أن الجـــندي الإنكشاري تخلى عن صفات الجندي المسلم الذي تحلى بروح الجهاد والعطف على الأسرى و المعاملة الحسنة و أبدلها بالتمرد والنهب وعدم الإلتزام بواجبات الشريعة الإسلامية .

---

(١) محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص١٣٣ .

(٢) هارولد لامب : سليمان القانوني سلطان الشرق العظيم ، ترجمة شكري محمود نعيم، د. ط ، بغداد نيويورك: شركة النبراس للنشر مؤسسة فرانكلين ١٩٦١م ، ص١٠١ .

وذهبوا إلى بيت الصدر الأعظم إبراهيم باشا ، وكان في مصر، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على ما في ديوان الجمارك ومستودعاته ، ثم عدد من بيوت الأعيان ، ثم توجهوا إلى حارة اليهود ، قرب السوق المسقفة ، وقاموا بنهب ما فيها ، وتركوا ورائهم الخراب .[1]

وعندما علم السلطان سليمان بالأمر ركب البحر متوجهاً للجنوب، ولم يذهب للجموع الثائرة قرب السراي ، وإنما اتجه إلى الجوسق في أعلى البوسفور على المياه العذبة ، ثم توجه مع حرس قليل إلى قاعة الاستقبال المهجورة قرب ثكنات الإنكشارية ، واستدعى ضباط وحداتهم، وعندما حضر الضباط اندفع معه مجموعة من الجند رافعين السيوف في وجه السلطان وكان هذا خطر عظيم ، إذ من الممكن أن يقوم الإنكشارية بمهاجمة السلطان ، لكنه تدارك الأمر فسل سيفه وقتل واحد ، وجرح الآخر وعندما رأى الجنود الدماء على الأرض ألقوا سيوفهم ، فقام السلطان بعتابهم بعدل وقسوة معاً ، وأعدم أغا الإنكشارية وقادة العصيان، [2] ووزع السلطان على الباقيين ألف دوكة [*] " قطعة ذهبية" كدفعة أولى تتلوها أقساط إذا هدأوا وعادوا لثكناتهم ، فرجعوا

---

[1] عبد العزيز الشناوي ، ج١، ص٩١ ، راجع محمد جميل بيهم:مرجع سابق ، ص١٣٣،هارولد لامب:مرجع سابق ، ص١٠١ ، محمد سهيل طقوش : ص٢٥٠ ، انظر إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٥٠٨ .

[2] هارولد لامب : مرجع سابق ، ص١٠٢ .

[*] ذكرت في بعض المصادر أنها كانت مائة ألف دوكاً " قطعة ذهبية " .

راضين بما غنموا ، وأنهوا التمرد طمعاً في مزيد من العطايا . [١]

وقام السلطان بتشتيت بعضهم فوزعهم على المناطق ، وألقى القــبض على رؤسائهم فقتل البعض ، وعزل الآخر . [٢] فقد فكر في استئناف الجهاد لأنه تأكد أن ترك الإنكشارية دون عمل ستكون عاقبــته وخــيمة على السكان والأمن العام ، فهم لا يتورعون عن إرتكاب أي فعل وهكذا قرر إكتساح بلاد المجر وفتح مدنها ، ونشر الإسلام بها . [٣]

وما أن أعلن الشتاء والثلوج نهايتهُ ، وبدأت الأعشاب تغطي الأراضي حتى دقت طبول الحرب مرة أخرى ، وبهذا لم يكن أمام الســلطان سليمان حل إلا إشغالهم في حرب جديدة . [٤] وفي نفس الوقت فرصة لإعادة مجد الفتوحات العثمانية وإحياء لحركة الجهاد

ونجــد هنا أن تمردهم كان لطلب المال ، فقد حاول السلطان امتصاص رغبتهم الدائمة في الحرب والثورة ، عن طريق إشراكهم فــي حرب جديدة ، ليحول تفكيرهم عن التمرد إضافة إلى أن هذا العمــل سيجعل وقتهم غير كافي لتدبير حركات تمرد ، إضافة إلى قــوة شخصــية السلطان سليمان ، وقد عاد هذا بالنفع على الدولة العثمانية حيث امتدت الفتوحات في شرق أوروبا . [٥]

---

[١] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٣ ، راجع عبد العزيز الشناوي : مرجع سابــق ، ج١ ، ص٩١.

[٢] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٠ .

[٣] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٩ .

[٤] هارولد لامب : مرجع سابق ، ص١٠٢ .

[٥] عبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص٩١ .

وفي حرب المجر أصدر السلطان سليمان أوامر صارمة بأن لا تمس مدينة بودابست التي فتحها، والمحافظة على سلامة جنود النمسا في وقت انسحابهم ، وهذا وفق الاتفاق المبرم بين الطرفين ، لكن الأمر لم يعِ الإنكشارية ودخلت المدينة وانقضت على من فيها بالقتل والنهب ، ولم تهتم للأمان الذي منحه السلطان للجنود . [١] وهناك تمرد آخر وقع من الإنكشارية في أثناء حملة فيينا عام ٩٣٦هـ / ١٥٢٩م ، حيث قامت الإنكشارية بمطالبة السلطان بزيادة الرواتب ، وقد توسط الوزير إبراهيم باشا بينهم وبين السلطان لكنهم تعدو عليه وشتموه وثاروا عليهم . [٢] ويلاحظ القارئ أن الإنكشارية أصبحت في حالة ثورة مستمرة في السلم أرادت الحرب ، وأثناء الحرب لم يهتموا بأمان المدن التي تسلم نفسها ، ومن هذه الفترة يبدأ الخطأ فيهم وفي السلاطين فلو تعاملوا منذ البداية معهم بحزم لما وصلوا إلى درجة أنهم يكونوا من أسباب ضعف الدولة العثمانية . [*]

أما عن تمردات الإنكشارية في الشمال الإفريقي في عهد سليمان، نجد أنه زاد نفوذهم مع ازدياد انتصاراتهم العسكرية التي أحرزوها في المنطقة كما صار لهم اليد الطولى في التحكم في الأمور فقد عارضوا مثلاً دخول بكلربك إلى الجزائر ٩٦٤هـ /

---

[١] محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص١٣٣ .

[٢] إسماعيل حقي أوزن : مرجع سابق ، ص٥٠٨ .

[*] في عهد هذا السلطان زادت تمرداتهم كلها بسبب زيادة الأعطيات والرواتب وأخذ الهبات من السلطان فتكالبت عليه المحن و استهانوا بشخصيته نظراً لضعفها ، وصار همهم بدل الحرب والجهاد وفتح البلاد ونشر الإسلام ، أخذ العطايا من السلطان . وهذا كان مؤشر مبكر جداً لفسادهم .

١٥٥٦م بـــل وقـــتلوه حين دعمه مجاهدوا البحر ، كما قاموا بأسر الوالـــي ٩٧٠هـــــ / ١٥٥٦م " حســـن باشا " وهو ابن خير الدين بربروســا وأرسلوه إلى إستانبول مصفد بالسلاسل بحجة أنه حاول تجنيد القبائل في الجيش واتهموه بمحاولة الاستقلال . [١]

كذلـــك حدث أن تمردوا في عهد سليم الثاني ، فأظهر محمد باشـــا الصـــدر الأعظـــم حـــزماً ونشاطاً في مجازاة المتسببين في الاخـــتلال ، وإيقـــاف كـــلاً عـــند حده ، وكان سبب تمردهم تأخر رواتـــــبهم ، لفـــراغ خزيـــنة الدولـــة من الأموال ، وقد واجهت الإنكشـــارية لعـــدم صرف رواتبها صعوبات في أثناء تواجدهم في الأســـتانة ، ولكـــن حدث ما قضى على هذا التمرد إذ أنه تصادف وصول أحد القادة العسكريين من إيطاليا محملاً بالغنائم ، فصرفت لهم الدولة رواتبهم من هذه الغنائم . [٢]

كـــان الوضـــع كذلـــك في طرابلس ، ومع أن الدولة حاولت التصـــدي لهـــم وردعهم إلا أنهم مارسوا سلطتهم من خلال ديوان الإنكشارية . وقد صارت لهم كثير من الامتيازات في الجزائر ضد مجـــاهدي الـــبحر وسيطروا عليها خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر الميلادي[٣] .

وكانت لهم تمردات في بلاد الشام ، ولكنها لم تبلغ حد العنف بالنســـبة للثورات الأخرى ، ولم يكن لهم طمع في الزعامة بقدر ما

---

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٦ .

(٢) إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص٩٧ .

(٣) عبد الكريم رافق : المرجع السابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

هو ابتزاز الفلاحين فقط .[1] ويعتبر عهد سليم الثاني بداية إزدياد المشاكل من الإنكشارية ، إذ أصروا على عدم الخروج للحرب ، إلا إذا كـان السلطان سليم على رأس الحملة .[2] كما صارت عاداتهم عندما يثوروا لا تخمد الثورة إلا بتوزيع الأموال .[3]

عـندما حـدث تمرد في بلاد الحجاز على الحكم العثماني ٩٧٦هـ / ١٥٦٩م ، وخلـع أهـل الحجـاز طاعة العثمانيين ، وأخرجوهم من الأماكن المقدسة ، وبقوا هم فيها ، كانت هذه فرصة للسـلطان سـليم الثاني للتخلص من الإنكشارية، فأرسلهم إلى تلك الـبلاد البعـيدة ، لإخضـاع الثورة ، فأخضعوها بسهولة ويسر ، وعـادوا مرة أخرى إلى إستانبول بشكل لم يتوقعه السلطان نفسه ، وقد توجس الصدر الأعظم منهم خطراً ، فأشار على السلطان سليم الثاني أن يقوم بالجهاد وفتح بلاد جديدة ، ووقع اختياره على قبرص والتـي كانت تحت سيطرة البنادقة ، فجهز مئتي سفينة على متنها عشـرون ألف من الإنكشارية واستقبلهم أهل الجزيرة بالترحاب ، لأنهـم ملوا حكم البنادقة الظالم ، فضربوا حصاراً على " نيقوزيه " مـدة ليسـت قصيرة ، وفتحوها ، وهنا يأتي دور الإنكشارية في الشـغب ، حيث قاموا بقتل أهل المدينة حتى وصل عدد القتلى إلى خمسة عشر ألف ، وهم بذلك أثبتوا عدم جدارتهم بثقة أهل الجزيرة بهم واستقبالهم بالترحاب ، فأهملوا هذه المشاعر وقاموا بما أملت به

---

[1] عبدالكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٤١.

[2] إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٤٨٤ .

[3] يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص٤٨ .

علـــيهم طبيعتهم الثورية . أما مدينة فمغوسطه (*) فقد قاومتهم لمدة أربعة شهور حتى استسلمت في النهاية ، فنهبتها الإنكشارية وعاثوا فيها فساداً وأوثقوا كل من لاقوه . [1] ثم سارت الجيوش الإسلامية إلـــى جزيرة كفالية فنهبوها وهدموا منازلها ، ثم اتجهوا إلى جزيرة كورفـــس ، وهـــي مفـــتاح بلاد البنادقة ، وحاصروها لعدة أيام ثم دخلوها وعاثوا فيها فساداً ونهباً وسلباً ، وكانت هذه أعمالهم في كل الجـــزر والمدن التي فتحوها في هذه المنطقة ، وطالت إقامتهم في البحر حتى قابلهم العدو . [2] ويتضح مما سبق أن هذا صار منهجهم في الفتوحات ، وطريقهم النهب والسلب.

ثـــم جـــاءت معـــركة ليبانتو (**) البحرية لتفضح الإنكشارية وتنظـــيمهم المخـــتل حيـــث خســـرت الإنكشارية كثير من رجالها وخسرت الدولة العثمانية المعركة بسبب ضعف تنظيم الإنكشارية.[3]

(*) فمغوسطه : مدينة تقع في شرق جزيرة قبرص ، ميناء جيد ، دخلها الأتراك عام ٩٧٩هـ / ١٥٧١م. س- موستراس : مرجع سابق ، ص ٤٥٢.

[1] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٩ ، ٢٠ .

[2] أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ج٢ ، ص١٨٠ .

(**) معـــركة ليبانتو البحرية : وقعت في عهد السلطان سليم الثاني ١٧ جماد الأولى ٩٧٩ هــ – ١٧ أكـــتوبر ١٥٧١م ، حيـــث اشتبك الأسطول العثماني الإسلامي مع الأسطول المسيحي ، ولكن شاءت إدارة الله هزيمة الأسطول العثماني ، وقد كانت أول هزيمة للعثمانيين منذ أوائل ق ١٥م فرحت بها أوروبـــا ، وكانـــت إيذانـــاً بزوال السيادة العثمانية عن البحر المتوسط . انظر علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص٤٥٠ ، ٤٥١ .

وليـــبا نـــت : تقع في الطرف الشمالي الغربي لخليج كورنث في اليونان حالياً . علي حسون : مرجع سابق ، ص ١٢٥ .

[3] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص١٩-٢٠ .

وعـــندما تولى مراد الثالث الحكم ، استهل حكمهِ بمنع شرب الخمـــر، ربمــا يعود ذلك لأنه لاحظ أن هناك فئات من الإنكشارية انخرطت في شرب المسكر مما يعيق القوة العسكرية ويؤثر عليها .

ولـــم يستطع مراد الثالث أن يحد من هذا الأمر كثيراً ، وذلك يـــدل على ضعف قوة الدولة العثمانية وعدم إستطاعتها مجابهة منع الخمـــر وإقامةشـــرع الله علـــيهم [١] ، وهـــذا يـــدل على انحراف الإنكشارية عن خطها الإسلامي في الجهاد والشوق للشهادة . [٢]

وعهـــد السلطان مراد الثالث يعتبر فاتحة جبروت الإنكشارية وهـــو أحد السلاطين الذين تصدوا لمشكلة الإنكشارية بعد أن أدرك أنهـــم أصـــبحوا مركز قوة خطير في الدولة وتجاوزوا اختصاصهم كمحاربين بالتعدي على السلطان وتنفيذ أوامرهم [٣] وقاموا بتمردات أثـــناء التدريبات والتلفظ بألفاظ غير مناسبة ، حيث كان يوقع عليهم العقاب اللازم. [٤]

هـــذا الكـــرم من السلطان مراد الثالث لم يمنعهم من الثورة والتمرد مرة أخرى ، حيث أخذت طابع العنف أكثر من ذي قبل ، وأصـــبح أســـاس التمرد سوء الأوضاع الاقتصادية وانخفاض قيمة العملـــة التي كانوا يستلمون بها وراتبهم مما أدى إلى أنهم أصبحوا ميالين إلى السلب والنهب.

---

[١] محمـــد جمـــيل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٣ . انظر محمد فريد المحامي : مـــصدر سابق ، ص٢٥٩ .

[٢] علي محمد الصلابي : المرجع السابق ، ص٤٦٧ .

[٣] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٠ .

[٤] أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة رقم ١٩٣٧١ خط همايوني H.H .

فـــي عام ٩٩٠هــ / ١٥٨٢م بدأت الحملات العسكرية على بـــلاد فـــارس اتخذ الإنكشارية هذه الحملات وسيلة لجمع الأموال والسلب والنهب وتقسيم الغنائم فيما بينهم . كما أنهم لم يفوتوا فرصة للتمرد على قادتهم ، واتفقوا مع أشقياء جورجيا في أرمينيا والقفقاس على نهب وسلب البلاد التي يدخلوها واقتسام الغنائم فيما بينهم.[١]

وفـــي عـــام ٩٩٣هــــ / ١٥٨٥م تم عقد الصلح بين الدولة العثمانـــية والدولة الصفوية ، تنازل بموجبهِ الفرس عن أقليم الكرج وبشروان ولورستان وجزء من أذربيجان وهدأت الأحوال في البلاد خـــلال عام ٩٩٤هــ وهدأت الحروب في أنحاء الدولة ، وقد أزعج هـــذا الأمر الإنكشارية والتي اعتادت على الاستمرار في الحروب نظـــراً لمـــا تدره عليها من غنائم ، فقاموا بثورات حتى يزيدوا من دخلهم .[*] [٢]

كانت الإنكشارية تتمرد إذا انقطعت الحروب وترتكب فظائع الأعمـــال ، فـــي البلاد المفتوحة بل وفي الأستانة ذاتها ، [٣] إذ أنه عـــندما تقـــع فتنة عظيمة أو حروب وسفك دماء ، ينحصر هذا في الإنكشارية وأفعالها . [٤]

---

[١] محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص١٣٣ – ١٣٤ . انـــظر علي حسون : مرجع سابـــق ، ص١٣٣ .

[*] لقد قامت السباهية بثورات ولكن لو أتحدت مع الإنكشارية لكانت عواقبها وخيمة على حياة الدولة من الداخل والخارج . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٦٩ .

[٢] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٣٩ .

[٣] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٦٤ .

[٤] حسين بن كمال : ورقة ١٤ .

والسبب الحقيقي لتمردهم هو حرمانهم من الحرب وأغنامها ، وقــد سولت لهم أنفسهم الجشعة القيام بتمرد جديد لجني المزيد من الأمــوال والغـــنائم ، على الرغم من أنه ليس هذا السبب وراء كل تمرداتهم فبعضها كان بسبب رغبتهم في إنهاء الحرب ، مثلما حدث في عهد سليم الأول في حربهِ مع الدولة الصفوية ، وهذا يدل على عدم ثباتهم واختلاف آراءهم وعدم معرفتهم ماذا يريدوا .

كذلــك وصــلت درجة فسادهم في عهد مراد الثالث إلى أنهم كــانوا يتدخلون في تعيين أمراء منطقة الروملي ، وقد نجحوا فعلاً فــي عــام ١٠٠٠هـــ / ١٥٩١م أن يعيــنوا أمير منطقة بغــدان بالرشوة ، بعد أن أخفوه في ثكنتهم لمدة من الزمن . [١]

ومما يؤكد عدم ثبات مطالبهم أنه عندما طال أمد السلم ، ولم تدخــل الدولة في حروب جديدة بدأت تظهر الثورات في كل مكان مــن العاصمة وبودابست والقاهرة [*] وتبريز وغيرها من المدن ، مطالبين بالحرب والجهاد ، فاضطر سنان باشا [**] الصدر الأعظم

---

[١] إسماعيل حقي أوزون ، مرجع سابق ، ص٤٨٣ .

[*] سيأتي الحديث عن ثورات القاهرة .

[**] ســنان باشــا : أحد أهم رجال الدولة العثمانية ، ١٥٢٠ – ١٥٩٦م ، من أصل ألباني تربى في الدوشــرمة ، ترقى في المناصب بفضل وجود أخيه إياس أغا عين قائد على اليمن برتبة وزير ، قام خلالهــا بأعمــال جلــيلة في ربط اليمن بالدولة العثمانية ، ثم عين أمير أمراء مصر ، ثم قائد أعلى للقــوات البرية والبحرية . وفي عام ١٥٥٢م صار صدراً أعظماً . قام بأعمال مهمة من أجل رفع مســتوى الأقجة وأمر بفتح دور لسك العملة في أنحاء من الدولة العثمانية ، وأعظم مبادرة له مشروع قــناة صــقاريا لأهميــته في تلبية حاجة القوات من الأخشاب ، ومن ناحية التجارة والاقتصاد ، لكن الحســاد لــم يمهلــوه وعزل من الصدارة ، ثم عاد مرة أخرى وتوجه إلى إيران لإخضاعها ، ولم يســتطع ، وعــزل مرة أخرى وعاد للمنصب في عهد محمد الثالث ومات تاركاً ثورة طائلة خلفهُ ، اشــتهر بالشجاعة مع قــليل من الغرور . الموســوعة الــتركية : ج٢٩ ، د. ط ، أنقرة، ١٩٨٠م ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

إلى إدخالهم في حرب طاحنة ضد بلاد المجر ، رغم أنه متيقن من ضـعف الاستعداد الحربي عند الدولة وحاجتها الماسة للراحة .[1] وأكـد علـى ذلك جميع الوزراء الذين رأوا أن من حسن السياسة إشـغال الإنكشارية بحروب خارجية ، فأوعز السلطان مراد الثالث إلـى حسـن باشا [*] والي البشناق والهرسك بشن غارة على بلاد النمسا وإفتعال حرب حتى يلتهي الإنكشارية بها[2].

وقـد أدى عـدم كفاية الاستعداد الحربي إلى سقوط عدد من القـلاع العثمانية بأيدي النمسا التي ساندت المجر ، كما هزم حسن باشا والي الهرسك وقتل والي بودابست العثماني [3] وإذا نظرنا إلى إلحـاحهم في دخول الحرب ، لا يوجد سبب مقنع إذ أن استعدادهم العسـكري كان ضعيفاً ، فلماذا الحرب هل للغنائم ؟ واستمرت هذه الحرب خمسة عشر عاماً ، زلزلت أركان الدولة العثمانية الداخلية ، رغم ما حققته من بعض الانتصارات.[4]

وكانـت هذه الحرب هي أولى مساوئ تدخل الإنكشارية في مسائل السياسة العليا ، إذ أنها ترغم السلطان على افتعال الحرب ،

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٦٤ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثـماني ، ص١٣٤ .

[*] حسـن باشـا : من أصل ألباني . جاء عن طريق الدوشرمه . شارك مع الجيش في حرب المجر تحـت قـيادة سـنان باشا ، ثم عين أغا للإنكشارية ، ثم عين أمير أمراء شبروان ، وأثناء ذلك هاجم الـروس وهزمهم وكبدهم خسائر فادحة . أصلح عملة الأقجه عين صدراً أعظم بناء على رغبة والده السـلطان ، تـزوج مـن إبنة السلطان محمد الثالث كان له دور عظيم في حرب النمسا . وقد ولي الهرسـك ، وتم قتلهِ أثناء الحرب في حديقته . الموسوعة الإسلامية : الوقف الديني التركي ، د.ط ، إستانبول : ١٩٩٧م ، ج١٦ ، ص ٣٤٣ .

[2] إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٥١ .

[3] علي حسون : مرجع سابق ، ص١٠٧ . علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص٤٦٩ .

[4] علي حسون : مرجع سابق ، ص١١٣ .

ممـــا يعتبر مؤشر خطير يهدد كيان الدولة العثمانية الداخلي ، حيث فقـــدت هذه الدولة بعض أراضيها بسبب تمردات الإنكشارية وهذا دلـــيل واضـــح على أن الإنكشارية كانت من أسباب ضعف الدولة العثمانية ومن ثم سقوطها.

ونتـــيجة للفوضى التي عمت البلاد في عهد مراد الثالث ، لم يعـــد حكـــام الولايات التابعة للدولة العثمانية يهتموا بالأوامر التي تصدر لهم ، وذلك لعدم وجود رقيب عليهم (*) ، وكان أشدهم وطأة والي قرمانية والذي أعلن العصيان على إستانبول ، فسار له الصدر الأعظم ليصده عن إستانبول التي أراد مهاجمتها . [1]

لقـــد كانـــت لهم عدة ثورات في الأقاليم في عهد مراد الثالث ففي تونس مثلاً كان لهم نفوذ واسع ، حاول الوالي العثماني مواجهة هذا النفوذ والتصدي له ، ولكنه لم يفلح ، وقد ضمت الإنكشارية في جنباتها عناصر غير تركية ، برز خلالها مسلمون من أصل مسيحي وهؤلاء قاموا بثورات عديدة ، حتى صار لهم ديوان خاص بهم ينفذ رغـــباتهم ، ولقبوا رئيس الديوان بالداي وأسسوه سنة ١٠٠٠هـــ / ١٥٩١م وقاموا بقتل بعض من أعضاء الديوان القديم . [2]

وعلى نقيض ثورات العساكر في شمال إفريقيه في عهد مراد الثالث ، كانت ثورات مصر نتيجة لظروف اقتصادية وسياسية ، فقد

(*) عندما كانت الدولة ترسل مفوضين معهم خط شريف يأمر بضرب عنق أحد الولاة ، كان الولاة لا يهـــتمون بهذا الأمر ويقوموا بالقبض على الرسول وقتلهِ دون خوف من السلطان . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٣ .

[1] حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٣ .

[2] عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٨ .

قامت الإنكشارية بسلسلة من التمردات في ٢ شوال ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م وحتى ١٠ ذي القعدة ١٠١٧هـ / ١٦٠٩م اتصفت هذه التمردات بالعنف والبطش ، ففي أول تمرد هاجمت الإنكشارية الوالي العثماني " أويس باشا " وهو في الديوان ، كما اقتحموا بيت قاضي القضاة الحنفي العثماني، وقتلوا عدداً من اتباعهِ ، كما بداءوا بسلب ونهب الحوانيت في القاعدة ، وهجموا على بيوت الأعيان وخاصة السكان المحليين ، ونهبوا الكثير منها ، ولم يهدأ التمرد إلا حين وافق " أويس باشا " على قبول طلباتهم، وكانت تتلخص في السماح بأخذ ما يسمى الطلبة ، وهي مبالغ من المال كانوا يفرضونها على الفلاحين وأصحاب الأطيان في الريف.(*)(١)

أما عن الإنكشارية في دمشق ، فقد دخلت فيها عناصر من أصل محلي أي غير تركي ، كما حدث في كثير من الولايات الأخرى ، وذلك للاستفادة من الامتيازات الكثيرة التي تتمتع بها هذه الفرقة ، وهذا يدل على بدأ تسوس أنظمة الإنكشارية الصارمة ، والتي كانت لا تسمح لغير الأروام الانتساب إليها ، وبهذا اختلطت الإنكشارية مع السكان ، وصاروا تجاراً وتعاطوا الربا ، ودخلوا في الحرف ، وعاشوا خارج القلعة ، وقد أحس السلطان مراد الثالث

(*) وقد ذكر محمد بن أبي السرور البكري الأخباري المعاصر ، أنهم كانوا يأخذوها دون وجه حق ، ويذكر أن بلداً بالمنوفية كان مقدار الضرائب الذي يؤخذ منها مائة ألف ونصف فضة ، ولكن بالطلبة غرمت ضعف المبلغ ، وقد طلبت الإنكشارية الثائرة منع أولاد البلد المحلين من الانتساب إلى الطوائف العسكرية ، ومنع دخول المماليك البيض أنظر عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٩ - ١٣٠ .

(١) المرجع السابق ، ص١٢٩-١٣٠ .

بخطـــر هــذا الأمـــر فأصدر فرماناً في جمادى الأولى ٩٨٥هـــ / ١٥٧٧م موجهـــاً إلى حاكم دمشق يأمره فيه أن يعين في الوظائف الموجـــودة فـــي الإنكشـــارية إناساً من رومي ، وليس من السكان المحلييـــن أو الغرباء مثل الأكراد . ولكن صدور هذا الفرمان جاء متأخراً إذ أن انتساب غير الأورام إلى الإنكشارية في دمشق بدأ قبل تاريخ هذا الفرمان ، ولم يتوقف بصدوره ، بل ازداد شدة ، وعمت الفوضى بين صفوف الإنكشارية ، وكثر تحديهم للسلطات القائمة بل وأمتد تسلطهم خارج دمشق . [(١)] وكانت في الفتن والتمردات تكثر مظالمهم وإجرامهم في البلاد . [(٢)]

على أنه أبرز ثوراتهم في دمشق ما حدث في عام ٩٨٧هـــ / ١٥٧٩م عـــندما قام أحد الجلادين بإعدام أحد مشايخ دمشق ، أثار ذلك العمل نفوس الإنكشارية ونقمتهم فقاموا بالقبض على هذا الجلاد وقطعـــوه بالســـكاكين وقـــد ساعد على هذا الشغب سوء الأوضاع الاقتصـــادية في الدولة والتضخم المالي الذي نتج عنه ، فأدى ذلك إلى انخفاض مرتباتهم[(*)] وتحت ضغط هذه الأوضاع بدأ أفراد هذه الحامـــيات العسكرية في الخروج من ثكناتهم ومشاركة الأهالي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية . [(٣)]

ومـــن كثرة فسادهم أنهم كانوا لا يستمعون إلى نصائح القائد العـــام للجيش ففي سنة ١٠٠٣هـــ / ١٥٩٤م ، تركوا مواقعهم التي

---

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٤١-١٤٢ .

(٢) حسين بن كمال : ورقة ٢٢ .

(*) انخفاض القيمة الشرائية لمرتباتهم الثابتة .

(٣) نوفان رجا الحمود : مرجع سابق ، ص ١٣٣-١٣٤ .

حددها لهم القائد سنان باشا ، وذهبوا إلى إستانبول ، وعندما أمرهم السلطان مراد الثالث بالذهاب مرة أخرى إلى الجبهة ، وقد أمرهم السلطان بذلك وهو في قصره ، لكنهم رفضوا الطلب واشترطوا خروج السلطان معهم ، وأخذ الهبة من السلطان.

ولم يتحرك الجند إلا بعد أن توسل لهم أغا الإنكشارية ، ليتحركوا لجبهة القتال ، وفي الطريق توقفوا مرة أخرى في جورلو ، وقالوا للأغا أنه المسئول عن صرف المنحة التي طلبوها ، فرد عليهم الأغا أنه عبد مثلهم ولا يملك حق منح المال ، هذا الحق يملكه فقط السلطان مراد الثالث وتقدم للمسير ، لكنه عاد واقترح عليهم أن يرسلوا رسالة للسلطان يذكروه بهذه المنحة ، وذهب قائد فرقة المشاه للسلطان وذكرّه فقال له السلطان هل يريدوني أنا أم يريدون خزائني ؟ فرد قائد المشاة أن الإنكشارية لن تتحرك إلا بعد صرف الأجور لهم المتأخرة سنة ، وبالفعل أرسل لهم السلطان في اليوم التالي ستمائة ألف قطعة ذهبية على عربة يجرها إثنا عشر حصاناً . [1]

منذ أواخر عهد مراد الثالث أصبحت الإنكشارية من أهم أدوات التخريب ، وكثرت اعتداءتهم على الرعية ، إذ حاول الولاة تخفيف حدة غلوائهم ، إما لكي يستأثروا بالقوة دونهم ، أو يخففوا عن عاتق الأمة بعض شرورهم ، ولكن هذه الأعمال لم تأتِ إلا بشرور أكثر على الناس ، وصارت الحوادث مليئة بالدماء.[2]

---

[1] إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٤٨٣ ، ٤٨٤ .

[2] محمد كرد : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٢٤٧ ، ٢٤٨ .

وزادت حـركات الطغـيان فـي إسـتانبول وخارجهـا من الإنكشارية في عهد محمد الثالث ، وتكررت الحركات الخارجة (*) عـن طاعة الدولة في الأقاليم ، (١) ولكنها كانت تحدث على فترات متباعدة ، ولم تبلغ درجة خطورة حركات الإنكشارية ، (٢)

وأيضـاً فـي عهد السلطان محمد الثالث صارت الإنكشارية تتهرب من القتال ، وهنا حدث تغير في ثوراتهم ، كانت في بعض الأحيان تقوم طلباً للحرب ، والغنائم ، ولكن في عهد محمد الثالث ، صاروا يميلون لحياة السلم والرفاهية ، ويتهربوا من الحروب .

عـندما عـزم محمد الثالث على الحرب في إحدى المرات ، تهـرب مـن الإنكشارية ما يقرب من عشرة آلاف جندي ، وكذبوا بشكل صريح جداً ، وقدموا ما يثبت أنهم غير مؤهلين للحرب ، مع العلـم بأن عدد الإنكشارية في ذلك الوقت كان لا يتجاوز الأربعين ألـف جـندياً (٣) لدرجـة أنه في بعض الأحيان كانوا يهربون من معسكرات التدريب حتى لا يدخلوا المعركة (٤)

وعندما تأكد محمد الثالث من ضعفهم وتخاذل حالهم ، خرج بنفسهِ للحرب وقيادة الجيش ، فدبت الحمية الدينية في الإنكشارية ، وسـاروا إلى بلغراد ودمروا جيوش النمسا ، وعادت إلى الأذهان

(*) يطلق عليها الحركة الجلالية ، للاستزاده الرجوع نوفان رجا الحمود : مرجع سابق ، ص١٣٤-١٣٥ .

(١) المرجع السابق ، ص١٣٤ .

(٢) أرشـيف رئاسة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ١٩٣٠٤ . خط همايوني عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٣ .

(٣) إسماعيل حقي أوزون : مرجع سابق ، ص٤٨٢ .

(٤) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : وثيقة رقم ١٢٧٢ : خط همايوني H.H .

صـــورة الفتوحات في عهد سليمان القانوني ، وعاد السلطان غانماً إلى العاصمة ، ويقول إبراهيم أفندي في تاريخه وكان حاضراً تلك الموقعة ، لو أن الجنود الإنكشارية ثبتت أكثر وأمضت الشتاء على الحـــدود ، ولـــم تصـــر على العودة ، وتقدمت في الربيع ، لتمكن العثمانيين من فتح مدينة فيينا .[١] كذلك حدث أثناء القتال مع الأفلاق والـــبغدان ، تمردات مما اضطرهم للتقهقر لعدم ثباتهم ومجاهرتهم بالعداء . [٢]

أماعن تمرداتهم في الأقاليم نجد أنه في أواخر القرن السادس عشـــر الميلادي دخل نفوذ الإنكشارية ولاية حلب ، فكان يذهب كل ســـنة قســـم منهم لغرض الخدمة ، حيث يقومون بتحصيل أموال القـــرى ، أي الضـــرائب ، وفي سبيل ذلك كثيراً ما مارسوا الظلم والجـــور وابـــتزاز الأموال ، حتى ضجت الناس منهم ، واستفادت الإنكشـــارية [*] مـــن قتال الحركات الجلالية، ووطدت نفوذها في شمال حلب ، وعندما زاد الأمر عن حده ، اضطروا ولاة حلب إلى قتالهم وإخراجهم بالقوة ، وإجبارهم على مغادرة حلب بمساعدة علي باشا جانبلاط [**] [٣]

---

[١] علي حسون : مرجع سابق ، ص١٣١ .إسماعيل سرهنك : تاريخ الدولة العثمانية ، ص١٣١ .

[٢] يوسف همام أصاف : مرجع سابق ، ص٧٢ .

[*] أشـــتهر من إنكشارية دمشق عدة أسماء مثل : خداوردي ، أق ياق ، قره ياق ، وحمزه الكردي ، وتدل أسماءهم على أنهم في الأصل غرباء عن دمشق. انظرعبد الكريم رافق:مرجع سابق،ص١٤٢ .

[**] حكمت أسرة جانبلاط كلّس وحلب ، ومن هنا جاء العداء بين هذه الأسرة وبين الإنكشارية ، حيث رفضـــت أســـرة جانبلاط تسلط الإنكشارية وجبروتها على الأهالي في دمشق وحلب ، ومما أدى إلى وقوع صدام شديد بينهم . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٤٢ .

[٣] مرجع سابق ، ص١٤٢ ، ١٤٣ .

وقـــد تجـــاوز الإنكشـــارية الحدود في الاعتداء على الرعية والتسلط على فقرائها بحجة جباية الأموال ، فأعدم والي حلب سبعة عشر رجلاً منهم.[١]

وإذا دققنا النظر في تمردات الإنكشارية في داخل استانبول أو خارجهـــا نجـــد أنها من الإنكشارية القليلي العدد الموجودون داخل المدن ، وهذا يعني أن الأغلبية كانت في الحروب الدائرة بين الدولة العثمانـــية ، والنمسا والمجر ، وهذا يبرر إرجاع بعض المؤرخين إلـــى أن قلة الثورات في عهد محمد الثالث تعود إلى انشغال الدولة العثمانـــية وبالتالي الإنكشارية ، بالحرب الطاحنة على حدود النمسا والمجـــر ، ولكن هذا الانشغال لم يعوقهم عن التدخل والقيام ببعض التمردات في عهد محمد الثالث .[٢]

أمـــا عن تمرداتهم داخل القاهرة في عهد محمد الثالث ، فقد زادت بســـــبب تخـــاذل أويس باشا ، وبلغت جرأتـــهم في عـــام ١٠٠٦هـــــ/ ١٥٩٨م أن اجتمعوا واعترضوا طريق حاكم مصر محمـــد باشا ، قرب قلعة القاهرة ، وأطلقوا النار عليه ، فهرب من طريقهم والتجأ إلى القلعة وأصبحت السلطة الفعلية في يد العساكر ، وأبطلـــت أحكام هذا الوزير ، وقتل الثائرون كثير من كبار الأمراء والموظفين والأعيان ممن كان يعارضون مصالحهم ، وتتبعوا أولاد البلد الأصليين من لهم مناصب عليا وقتلوهم ، ربما بهدف الحيلولة

---

[١] محمد كرد : مصدر سابق ، ج٢ ، ص٢٤٧ .

[٢] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٥ .

دون تسرب هؤلاء للطبقة الحاكمة . [1]

ومع تولي أحمد الأول الحكم زاد عصيانهم خاصة في البلاد العربـــية ، أمـــا في إستانبول فقد ثاروا أثناء حرب احمد الأول مع الشـــاه عــباس ، وإخـــراجه مـــن الـــبلاد التي اغتصبها ، فثارت الإنكشـــارية مطالـــبة بالعطايا فاضطر السلطان أحمد إلى الرجوع لإســـتنابول متداركاً لثورتهم حيث ألف مجلساً حربياً وحكم بالإعدام على المتسببين في التمرد . [2]

أمـــا عـــن الأقالـــيم العربـــية ففي مطلع القرن السابع عشر المـــيلادي زادت سيطرتهم على شمال إفريقيا ، وساعدهم في ذلك ظهـــور ديـــوان لهـــم يمـــثلهم ، ويمثل طلباتهم وكان الولاة تباعاً يمضـــون على قرارات هذا الديوان وشيئاً فشيئاً زادت سيطرة هذا الديوان على الأهالي . [3]

وقـــد استتب الأمر داخل استانبول للإنكشارية في عهد أحمد الأول ، وســـارت الأمور وفق هواهم ، فلا نكاد نسمع عن ثورات داخـــل إســـتانبول، أما في البلاد العربية فنجد أنها تعددت في بغداد ودمشق والقاهرة .

ففي القاهرة كان أجرأ عمل قاموا بعملهِ هو قتل حاكم مصر إبراهـــيم باشـــا ، في ١ جمادى الأولى ١٠١٣هـــ / ٢٥ سبـــتمبر

---

(١) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٣٠-١٣١ .

(٢) يوسف همام أصاف : مرجع سابق ، ص٧٤ .

(٣) عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٨ .

١٦٠٤م ، وعــرف بالمقــتول ، وكـــان مكلفاً بالقضاء على تمرد العساكر ، وإزالة الطلبة ، وقد نصبت الإنكشارية مكانه قائم مقام .

هذا التحدي الصارخ جعل الدولة العثمانية تبطش بالمتمردين وقــتل عــدد مــنهم ، في عام ١٠١٤ هــ / ١٦٠٥م . لكن حركة التطهــير هذه لم تؤت فائدة ، فإن القضاء عليهم نهائياً جاء في عهد محمد باشا [(١)]، الذي أبطل الطلبة ، مما أثار الإنكشارية ، فتجمعوا عــند مقــام أحمــد البدوي [(*)]، وتحالفوا على عدم رفع الطلبة ، وتقاسموا حارات القاهرة لنهبها ، لكن قوات محمد باشا ، استخدمت المدافــع ، وهزمــت الثائرين في موقعة إسمها الخانقاه في ١٠ ذي القعــدة ١٠١٨ هــ / ١٤ فبراير ١٦٠٩ فبراير وقد قتل عدد كبير منهم ، والباقي نُفي إلى اليمن . [(**)] [(٢)]

وقــد اشــتركت مع الإنكشارية السباهية وبعض من المماليك الشراكســة وقــد كانــت مهمتهم الأساسية ، الحفاظ على الأمن ،

[(١)] أحد أهم الصدور العظام في عهد أحمد الأول ، وله دور في تهدئة الأوضاع في مصر ، تولى خلال حياته عدة مناصب أهمها أمير أمراء البوسنة . الموسوعة الإسلامية ، العالم الإسلامي ، قاموس التاريخ والجغرافيا والأنثوغرافيا والسير الذاتية ، ج٧ ، إستانبول : دار المعارف ١٩٨٨م ، ص٥٨٥ .

[(*)] الواقع في مدينة طنطا بمصر .

[(**)] ويعلــق على ذلك ابن أبي السرور أنه الضم العثماني لمصر في عهد الدولة العثمانية ، وهذا يدل علــى أهمية القضاء على الثائرين بالنسبة لهيبة الدولة العثمانية . وقد وضع كتاب لهذا الحدث أسماه " تفــريج الكــربة بدفــع الطلبة " وأطلق على محمد باشا عدة ألقاب مثل معمر مصر ومبطل الطلبة وقــول قيران أي محطم المماليك. وقد قام محمد باشا بالعديد من الإصلاحات أهمها تنظيم الضرائب ، والعمــل بمقتضى دفتر التربيع الذي أحله العثمانيون ، محل دفتر الشراكسة ، وكان المماليك قد عادوا إلى العمل بدفتر الشراكة للاستفادة من امتيازاتهم القديمة . وأمر بدفع الرواتب بكاملها يوم ٢٨ من كل شهر . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٣١ ، ١٣٢ .

[(٢)] مرجع سابق ، ص١٣١ ، ١٣٢ .

وحمايـــة الفلاحين ، والمساعدة في جمع الضرائب ، التي بدأ عليها الاختلال بوضوح ، منذ عهد علي باشا الصوفي . [1]

على أنه لو تأملنا هذا التمرد نجد أنهم خلعوا السلطان ونصبوا مكانـــه سـلطانا آخر ، وهذا ما حدث فعلاً فكان هذا التمرد تحويل لأفكارهم . أما في دمشق فقد برزت أسماء لزعماء من الإنكشارية كان لهم دور كبير فيها أمثال حسن التركماني وبعض أفراد أسرته ، وذلـــك فـــي عام ١٠١٥هـ / ١٦٠٦م ، كما حفل سجلهم بالخزيا ضد المعنيين.[2]

أمـــا ولايـــة بغداد فقد كانت تمرداتهم أكثر عنفاً من الولايات العربية الأخرى ، وربما يرجع ذلك إلى مركز العراق الاستراتيجي أمـــام أعداءها الصفويين ، مما استلزم وجود قوة عسكرية عثمانية كـــبرى لحمايـــتها ، وساعد على ظهور زعامات عسكرية لم تشهد مـــثلها القاهرة أو بلاد الشام. كما وأن تعدد القبائل البدوية والكردية المـــتعددة الأجـــناس والولاء ، ووقوع العراق على أطراف الدولة العثمانية ، كل هذه العوامل ساعدت على ظهور ثورات أكثر عنفاً .

لقـــد فرضت الإنكشارية نفوذها على العراق في مطلع القرن الســـابع عشـــر وتحدوا الوالي حسن باشا ، فخرج هارباً من بغداد عـــندما ثاروا عليه ، لأنهم تصوروا أنه أثار عليهم السلطان ، وأقام بالموصل ، واستمر يحاربهم حتى عزل ، ويبدو أن هذا ساعد على تشـــجيع الإنكشـــارية للقـــيام بأعمال أكثر جرأة ، حيث أحسوا أن

---

[1] عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ١٣٢ ، ١٣٣ .

[2] مرجع سابق ، ص١٤٣ ، ١٤٤ .

السلطان أعترف ضمنياً بنفوذهم ، وكانت هذه أولى مراحل ازدياد نفوذهم ، إذ قاموا بثورات بعد ذلك ، حاول السلطان أحمد الأول إخضاعهم فأرسل جيشاً بقيادة والي ديار بكر نصوح باشا ، [*] الذي استطاع إخضاعهم فترة من الزمن [1]

وفي عهد مصطفى الأول ، يقوم باشا أرضوم بعصيان ضد السلطان ويزحف إلى أنقرة ، فتنضم الناس إليه في كثير من بلاد الأناضول كرهاً للإنكشارية . [2]

وسنرى أنه في خلال حكم ثلاث سلاطين مصطفى الأول وعثمان الثاني ومراد الرابع ، تصبح اليد الطولى للإنكشارية ، في كل أمور الدولة ، ويعتبر عثمان الثاني مثال متجسد لطغيان الإنكشارية وجبروتها.

وضعوا عثمان الثاني في الحكم في سن مبكرة ، فقد أطلق عليه لقب كنج أي الحدث صغير السن ، وكان توليه العرش في هذا السن المبكر حدث غير مسبوق ، وأيضا أطلق هذا اللقب عليه ليميزه عن عثمان الأول مؤسس الأسرة والدولة . [3]

---

[*] أحد رجال الدولة العثمانية ، وهو ابن أحد الألبان المسيحيين الذين أتوا إلى الديوشرمة ، ثم نشأ في القصر الهمايوني ، عين على إمارة زيلة ، ثم عُزل برغبة الإنكشارية عين على ولاية مصر ثم عين قائم مقام الصدر الأعظم ، وفي عام ١٦١١م عين صدر أعظم وقام بعمل مباحثات مع الصفويين الشاه عباس ، في ديار بكر وحددت في هذه المباحثات الحدود بين الدولتين ، كان على عداء مع خوجه زاده أفندي شيخ الإسلام، ونتيجة لتمرداته أمر السلطان أحمد الأول بإعدامه . ومن أشهر ابنائه المؤرخ محمد جلبي . الموسوعة التركية: ج٢٤ ، د. ط ، انقرة : ١٩٧٧م ، ص١٣٩-١٤٠ .

[1] عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٣٧ .

[2] شكيب أرسلان : مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

[3] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٣ .

ولكـــن بعد أن وضعتهُ الإنكشارية ، بدأت تنفر منه لكثير من الأسباب (*) ، ومما زاد من نفورهم أن الصدر الأعظم ، عزل قائم مقـــام الصـــدارة ، وهو أغا الإنكشارية ، الذي عاد من الأراضي الفارسية منتصراً . (١)

كما أعلن السلطان عثمان الثاني الجهاد على بولونيا (**) لأنها تدخلـــت فـــي شؤون إمارة البغدان ، (٢) وقاد جيش كبير العدد عبر نهـــر بـــروث وهزم البولونيين المتجمعيين عند نهر دينستر (***)، وكان لهذه المعركة وقعاً مؤثراً في نفوس المسيحيين حيث أدت إلى الخوف والرهبة في قلوبهم ، ولكن الإنكشارية تمردت ، وأضاعت هذا النصر وجعلتهُ غير حاسم . (٣) فقد طلبت ، عدم الاستمرار في الحـــرب ، لأنهـــا متـــعـــبة ومرهقة منها ، فغضب السلطان منهم

(*) تم ذكر الأسباب بالتفصيل في المبحث السابق من نفس الفصل .

(١) حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٦ .

(**) ذكـــر مصـــدر آخر أن سبب الحرب كان لتلبية دعوة قرال ترنسيلوانية ، الذي رغب في محاربة ملـــك النمسا، منتهزاً فرصة الشقاق الذي أحدثه في أوروبا ، كما أن انتشار الآراء الدينية الجديدة كان لهـــا أكـــبر الأثر في ذلك ، وأختلف المرجع في نهاية المعركة حيث ذكر أن المعركة انتهت بانتصار البولونيين ، بزعامة ولا ديسلاس ابن ملك بولونيه . انظر حبيب السيوفي مرجع سابق ، ص٢٧ .
لكن الدراسة ترى أن العثمانيين انتصروا لأننا نرى أن بولونيا تطلب الصلح فإذا كانت منتصرة فلماذا تطلب الصلح ، إضافة إلى أنها ما هي نتائج انتصارهم ؟ لم يورد النتائج في سياق كلامه .

(٢) علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص٤٨٧ .

(***) نهردينســـتر ، أحـــد روافـــد نهر جوسا ، الذي يصب في البحر الأدرياتيكي س . موستراس : مرجع سابق ، ص٥٨ .

(٣) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٣ .

وأغتاظ لميلهم للراحة .[1] كمامنع التدخين وصار السلطان عثمان يخرج بنفسه ليعاقب المخالفين. [2]

وعــندما طلبــت بولونيا عــقد الصلح معه عام ١٠٢٩هـــ/ ١٦٢٠م.[3] اســتخف به الإنكشارية لأن ذلك يتعارض مع تقاليدهم فـــي حب الحرب ، ولأنهم جنوداً محترفين ، المفروض أن مهنتهم الحـــرب ولـــيس التكاسل والميل للراحة ، ولابد أن تكون أفئـــدتهم تهـــوى القـــتال ، و نقمـــت عليه الإنكشارية وقررت وضع خطة للتخلص منه . وعقد السلطان الصلح دون أن يحقق جميع أهدافه ، مـــن هـــذه الحـــرب ، [4] ونتيجة لذلك عزم السلطان عثمان على الـــتخلص مـــنهم وإبـــادتهم ، ولأجـــل هـــذا الأمر الخطير بدأ في الاســـتعداد لضرب الإنكشارية وذلك بحشد قوات جديدة في آســـيا وأهـــــتم بـــتدريبها وتنظيمها . [5]

وبعـــد أن اســـتقر في إستانبول ، قرر التوجه للحج عـــــام ١٠٣١هـــــ /١٦٢١م [*] وأن يجمـــع في الطريق عسكراً من الشام ومصر من رجال العرب ، خاصة وأنه سيمر على الشام عن طريق الـــبر ويعســـكر هـــناك ، وهؤلاء الرجال يكونوا مطيعين له طوع

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٧٨ .

[2] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص٢٨ .

[3] محمد فريد المحامي :مصدر سابق ، ص٢٧٨ . انظر علي محمد الصلابي : مرجع ســـــابق ، ص٤٨٧.

[4] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٣ – ٥١٤ .

[5] علي محمود الصلابي : مرجع سابق ، ص٤٨٧ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع ســـابق ، ص٢٥١ .

[*] عزم على أداء فريضة الحج ولكن السياسة لم تحقق أمنيته .

لقد تم الحديث عن هذا الأمر بالتفصيل من المبحث السابق من نفس الفصل .

البـــنان ، ويقضي بهم على الإنكشارية ويمحي أثرهم ، [١] خاصة وأن الســلطان عزم على إخماد ثورة الدروز في جبل لبنان بجيش يجمع من مصر ، [٢] وهنا تأكدت الإنكشارية أنه عازم على الغدر بهــم ، وقد سعى العلماء ليثنوا السلطان عثمان الثاني عن السفر ، كمـــا طلــبوا من الإنكشارية العفو عن السلطان ، وأبلوغهم بعدول السلطان عن السفر إلى الحجاز ، فأمر بتسريح الرجال الذين جهزوا فـــي القاهــرة وأجتمع معهم العلماء في فــسحة آت ميدان[*] ولكن ظلوا ثائرين وهجموا على بيوت الوزراء متسلحين ونهبوها ، وقتلوا عدد كبير منهم ، ونهبوا من خزائن الدولة . [٣]

وانـــتهى الأمر بهم إلى التخلص من السلطان عثمان في عام ١٠٣١هـــ / ١٦٢١م . [٤]

وهكـــذا أصـــبح الســـلطان عـــثمان الثانـــي أول ضحاياهم البـــارزيـــن ، وبعهد قتلهِ مارسوا التدخل في السياسة العليا بمنتهى الحـــرية ، فلم يعد هناك من يقف أمامهم في تحقيق رغباتهم وانتهى الأمر بهم أن رغبوا في التخلص من السلطان عثمان الثاني وتمكنوا من إعدامه في سنة ١٠٣١هـــ / ١٦٢١م .

---

[١] يوســف أصاف : مرجع سابق ، ص٧٧ . أنظر إبراهيم حليم : مصدر سابق ، ص١٢٢-١٢٣ . حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٢٨ .

[٢] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٣ .

[*] للاستزادة عن أخبار صراع الإنكشارية مع عثمان الثاني الرجوع إلى أحمد زيني دحلان : مصدر سابق، ج٢ ، ص١٩٥، ١٩٦ .

[٣] يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص٧٧ .

[٤] محمد مختار : مرجع سابق ، ج٢ ، ص١٠٦٧ .

وبهــذا الإثم العظيم والجرأة على السلاطين ، صارت نقطة انطـــلاق جديـــدة للإنكشارية للتمادي في طغيانهم والتحكم بالسياسة العليا، وكان لإعدامه أصداء بعيدة ، حيث انتشرت الرهبة في دوائر الحكومة وبين العامة . [١] كما أن الولايات صارت في حالة ترقب دائمة وحاول بعض الولاة الأخذ بثأر عثمان الثاني والانتقام له ولكن هذه المحاولات باءت بالفشل مثل محاولة والي أرضروم أباظة باشا الذي حاول دخول إستانبول والانتقام من قتلة عثمان [٢].

هــذه الجــرأة قوبلت باستياء عام بين الناس والجند حتى أن طائفــة مــنهم أنكرتها ، خاصة عندما بدأوا بتبديد الثروات وأموال الخزينة العامة، ولم يحفلوا بأي شخص ، وزادوا في تمردهم . [٣]

لقــد صار لهم شان سياسي ، وأصبحوا أداة في يد أهل الفتن الذين فضلوا اللعب من خلف الستار ، [٤] فنجد أنه منذ ثورتهم على عــثمان الثانــي حتى ثورتهم على سليم الثالث تمت بصورة واحدة متكررة من حيث الأسباب والأحداث والنتائج . [٥]

وقد أعادوا السلطان مصطفى الأول مرة أخرى للحكم ، لأنه كــان ضعيف الشخصية ، ولم تحدث حروب أو فتوحات في عهده لقصر المدة، ولأن الإنكشارية سيطروا تماماً على مقاليد الأمور .

---

[١] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٤ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٢.

[٢] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٢٧٩ .

[٣] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٤ .

[٤] دائرة المعارف الإسلامية : مجلد الخامس ، مكتبة الشعب ، ص١١٥ .

[٥] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٣ .

وهكـــذا نجـــد أن مصير كثير من الذين يحاولون الإصلاح ، تتســـلط عليهم الجيوش الفاسدة ، فتدمرهم . [1] وفي عهده تم تغيير الـــوزراء والصدور العظام سبع مرات في خلال عام واحد وأربعة شهور ، وارتكبت كافة المظالم . [2]

وبتولي مراد الرابع الحكم أصيبت الدولة بحالة من الارتباك والفوضـــى لصـــغر سن السلطان ، فقد كان في الحادية عشر من عمره، وقد وضعوه لحداثة سنهِ حتى لا يجدوا معارضة في أعمالهم الاســـتبدادية، ولا يضعف نفوذهم الذي اكتسبوه بقتل سلطان وعزل الآخـــر ، وقد ساروا في طريق الطغيان لمدة العشر سنوات الأولى من حكمهِ ، فكانوا أصحاب الأمر والنهي في سياسة الدولة ، حيث واصلوا الثورات والسلطان خاضع لرغباتهم ، لا يجد مفـــر مـــــن تحقيقها ، فبدلوا الوزراء والصدور العظام على حسب أهوائهم . [3]

وقـــد أدى شـــغب الإنكشارية وعبثهم غير المسئول إلى قفز الطامعين في السلطة إلى المراكز الحساسة ، حيث استثمر البعض جـــو الضعف في الدولة بسبب التمردات المتتالية من الإنكشارية ، ومـــن ضـــمنهم قائد شرطة بغداد " بكير أغا " [*] الذي تمرد على

---

[1] علي حسون : مرجع سابق ، ص١٠٧ .

[2] علي محمد الصلابي : مرجع سابق ، ص٤٨٨ .

[3] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٨٠ . انظر علي حسون : مرجع سابق ، ص١٠٦-١١٣ . انظر عمر الإسكندري : مرجع السابق ، ص٤٠ .

[*] **بكـــير الصوباشـــي** : والي بغداد ، كان له فرقة عسكرية خاصة بهِ تتألف من ١٢٠ ألف جندي ، جمـــع ثروة طائلة ، استولى على ولاية بغداد إثر قتله للنقيب محمد الوالي السابق ، وكان له جولات مع الصوفيين للاستيلاء على بغداد ، وقد دخلها الصفويـــين بناء على خيانة محمـــد بن بكير لأبيه =

الوالي واستبد بالحكم ، فأرسلت له الدولة جيشاً بقيادة " حافظ باشا " الـــذي حاصر بغداد (*) ، فاستنجد بكير أغا بالشاه عباس الصفوي ، الذي وجد أن هذه فرصة سانحة لتوسيع ممتلكاته ، ودخول بغداد ، وفعلاً عادت من جديد بغداد تحت الحكم الصفوي . (١)

وكـــان هـــذا أخطر عمل قامت بهِ الإنكشارية إذ هي مهدت السبيل لضياع بغداد من حوزة الدولة العثمانية الأمر الذي أدى إلى فـــتح الباب لضياع البلاد من تحت حكم الدولة العثمانية الواحدة تلو الأخرى .

وعـــندما أراد حـــافظ أحمـــد (**)باشا استرداد بغداد ، وقام بحصـــارها ، وثارت الإنكشارية لطول الحصار ، مما أرغم حافظ باشـــا على رفع الحصار والعودة إلى الموصل ، ومن ثم إلى ديار بكـــر ، ولكن الإنكشارية عادت إلى التمرد مرة أخرى ، فتم تعيين

= ونفي بكير إلى مدينة زفر، وأحتل الصفويين بغداد وعذبوا أهل السنة كثيراً . الموسوعة التركية : ج٦ ، د. ط١ ، إستانبول ، د. ت ، ص ٢٩ .

وتذكـــر أيضاً بثورة بكر الصوباشي ، وهو من أصل رومي ، ينتسب إلى إنكشارية بغداد ، تدرج في المراتـــب العسكرية ، حتى صار هوباشي ، ثم نصب نفسه والياً ، ولذلك لقب بالصوباشي واعتمد في الأساس على الإنكشارية . عبد الكريم رافق : ص١٣٧-١٣٨ .

(*) وقد حاصرها الشاه عباس لمدة ثلاثة شهور ، بعد أن تم الصلح مع الجيش العثماني ووافق الشاه عباس على منح بكير أغا الولاية . وعادت بغداد للصفويين . انظر بسام العسلي : مرجع سابق،ج٥ ، ص١٧٣ .

(١) المرجع السابق ، ص١٧٣ .

(**) حافظ أحمد باشا ولد عام ٩٧١هـــ / ١٥٦٤م في مدينة فيلبيه . أبوه مؤذن . تميز بصوته الحسن وقـــد عاصـــر ولايـــة بكـــير لـــبغداد ، وفشل في استرداد بغداد من الفرس ، وقد سلمه خسرو باشا للإنكشـــارية الذين قتلوه. الموسوعة التركية للشؤون الدينية ، ج١٥ ، د. ط ، إستانبول : ١٩٩٧م ، ص٨٤-٨٥ .

خســـرو باشا (*) في الصدارة العظمى في أثناء ثورات الإنكشارية المتتالية في إستانبول.[1]

أمـــا خسرو باشا فقد ظلم الأهالي كثيراً وأعدم الكثير وبطش بـــيد مـــن حديد ، فقد كان نموذج لشخصية الوزير المستبد برأيه ، واعـــتمد فـــي استبداده على الإنكشارية بزعامة داماد رجب باشا ، وكان هذان الوزيران ، يقومان بكافة الأعمال التي من شأنها إخافة الســـلطان مراد الرابع ، حيث كانوا على استعداد للقيام بأي حركة تمرد ، ضد السلطان لأنهم أرادوا سلطاناً مطيعاً فاقد العزيمة . [2]

وقـــد أراد الصـــدر الأعظـــم خســـرو باشـــا دخـــول بغداد واســـتـــردادها ، لكن الإنكشارية لم تطعه ، لأنهم كانوا قد تعودوا على حياة الراحة والهدوء ، ولا يريدوا حرب ، لأن ضياع ممتلكات الدولة لم يعد يهمهم سوى تنفيذ رغباتهم وآرائهم .

لقد تمردوا على خسروا باشا لأنه أراد استرداد بغداد ، وهو زعـــيمهم وقائدهم ومع ذلك ثاروا عليه ، هذا يدل على أنهم صاروا

(*) خســـرو باشا : يقال أنه ولد عام ١٧٥٦م واسمه محمد خسرو ، من أهل منطقة أباظة تم إحضاره إلـــى إستانبول في سن صغيرة ، تدرج في الوظائف ، وحارب ضد الفرنسيين لإخراجهم من مصر ، وكلـــف بالذهـــاب لحـــرب الدولة العثمانية وروسيا في عام ١٨٠٦م وكان له دور الحياة السياسية في بـــــغداد . الموســـوعة الإسلامية : الوقف الديني لتركيا ، د . ط ، مجلد ١٩ ، إستانبول ، ١٩٩٩م ، ص ٤١-٤٤ . تولى قبله عدة وزراء المنصب مثل جركس محمد باشا ، وحافظ أحمد باشا ، وخليل باشا ثم عين خسرو باشا. بسام العسلي : مرجع سابق ، ص١٧٣-١٧٤ .

[1] المرجع السابق ، ص١٧٣ – ١٧٤ . انظر محمد سهيل طقوس : مرجع سابق ، ص٢٦٧ .

[2] يلمازا وزتونا : مصدر سابق ، ج١ ، ص٤٧٠

صراع خسرو باشا مع محمد علي في مصر وقضاء الأخير على نفوذ الإنكشارية انظر بـــسام العـــسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص٢٥٥،٢٥٦ . انظر محمد فـــريد المحامي : مصدر سابـــق ، ص٣٩٠ .

فــرقة ضـــالة لا تعــترف إلا بالـــراحة وتفضل مصلحتها وحياتها الشخصـــية علـــى مصلحة الدولة ، ولم يكن تمرد الإنكشارية على خســـرو باشـــا هو الحادثة الأولى التي جعلت إحساسهم بالفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام يخف تدريجياً حتى كاد أن يختفي لأن هذا الأمـــر اتضـــح منذ بداية خلعهم للسلاطين وتولية آخرون وتفضيل مصلحتهم الشخصية على مصلحة الدولة والإسلام .

ونتـــيجة لفشل خسرو باشا في فتح بغداد ، فقد عزله السلطان مراد الرابع ، وأعاد حافظ باشا إلى منصب الصدارة العظمى . لكن خسرو باشا لم يرض بهذا العزل ، وحاول أن يوقع بين السلطان ، ورؤساء الإنكشارية وأن يكيد للسلطان ، فاتصل برؤساء الإنكشارية وأوهمهـــم بـــأن السلطان عزلهُ من منصبهِ ، لأنه كان ينفذ رغبات الإنكشـــارية ويطـــيعهم ، فثارت الإنكشارية وطالبت بعودة خسروا باشـــا إلى منصبهِ ، ولكن السلطان مراد الرابع أصر على موقفه ، فصــــارت فتنة في إستانبول، وقتلت الإنكشارية حافظ باشا ، بعد أن فشـــل السلطان في حمايتهِ ، وقرر السلطان مراد الرابع قتل خسرو باشـــا علـــى أســـاس أنه محرك الفتنة، وعـــين مكانه من يـــدعى بـــيرام [*]محمد باشا . [١]

ومنذ ذلك الحين أظهر عزماً شديداً على مواجهة الإنكشارية والقضـــاء على رؤوس الإنكشارية وإبادتهم ، ثم وسع عمليات القتل

---

[*] الكلمة بيرم وليس بيرام : كلمة تركية ومعناها اللغوي عيد فكما أن الناس يسمون شعبان ورمضان ورجب وغيرها من أسماء الشهور كذلك يسمون عيداً . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٨٢ .

[١] مصدر سابق ، ص٢٨٢ .

لتشـــمل كل من يثبت عليه أنه شارك في الفتنة التي أشعلوها . [*]
وبذلـــك دخل الرعب إلى قلوبهم ووقعته مهابتهُ في قلوبهم ، فخافوا
مـــنه ، وأمن الناس على أموالهم وأعراضهمِ من تعدي الإنكشارية
عليهم ، وسادت السكينة في إستانبول . [1]

وعـــندما رأت الإنكشارية هذه القوة من السلطان مراد الرابع
لجـــأت إلـــى خداعـــه وتظاهـــرت بأنها تلتزم بالقواعد والانضباط
العـــســـكري ، وأنهـــم يقدروا السلطان وينفذون أوامره ويطعيوه .
ولكن ذلك لم يكن إلا تمويهاً حتى يوقف عمليات القتل والمذابح التي
أمر بها ، وبيتوا أمراً آخراً.[2]

فلـــم يمـــض شهران حتى قاموا بحركة عصيان جديدة بقيادة
دامـــاد باشاه إلا أن السلطان مراد الرابع أمر بقتلهِ وإلقاء جثته من
شـــباك الســـرايا للإنكشـــارية حـــتى تهدأ ثورتهم ، وفعلاً عرفت
الإنكشـــارية أنهـــا أمـــام سلطان قوي ، لا يستطيعون التغلب عليه
بســـهولة ، وفـــرض هيبـــته علـــى الجميع وبسط نفوذه في الداخل
والخـــارج ، وتولـــى إصلاح وقيادة الجيوش بنفسهِ ، وقام بإصلاح
الإنكشـــارية وإبعـــاد زعمـــاء الإنكشـــارية والأفراد المشبوهين ،
والمشـــكوك فـــي أمرهم ، [3] وهكذا استطاع مراد الرابع مواجهة

---

[*] لقد قيل أن رؤوسهم تكدست على ضفاف البسفور وقد قيل أن من قتلوا في هذا الحادث يبلغون مائة ألف أو يزيدون . انظر عمر الإسكندري : مرجع سابق ، ص٤٠ .

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٨٣ .

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٥ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٢ .

[3] بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص١٧٤ . انظر محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٤-١٣٥ .

الإنكشـــارية بكـــل حزم وقوه ، أن يوقف لمدة محدودة تدخلهم في المســـائل السياســـية العليا ، ويضع حداً لتصرفاتهم الهوجاء ، على الـــرغم من أن السنوات العشر الأولى من حكمهِ تميزت بالضعف والانحـــلال إلا أنه لم يلبث أن أعاد السيطرة على الدولة ، وفرض الأمن والاستقرار في وقت كانت الدولة في أشد الحاجة له . (*)

أما في عهد السلطان إبراهيم الأول نجد أن الإنكشارية عادت لسيرتها الأولى في التدخل في المسائل السياسية ، وكثر طغيانهم ، حـــتى أنهم كانوا يوجهون إلى السلطان انتقادات علناً لسياسته . (١) غـــير أنه مع ذلك استطاع كبح جماح ثورتهم لمدة طويلة ، لكنه لم يستطع اقتلاع الفساد من رؤوسهِ ، فأراد التخلص منهم وقتل قادتهم ولكنهم اكتشفوا هذا الأمر، وتأمروا عليهِ ، وتم عزله ، وتولية ابنه محمـــد الـــرابع ، الذي لم يكمل عامه السابع ، ولم يكتفوا بذلك بل قاموا بخنقهِ والتخلص منه ، خوفاً من عودتهِ للسلطة . (**)(٢)

(*) وقد كان لثورات الإنكشارية نتائج سلبية على الأقاليم فديوان الإنكشارية في شمال إفريقيا ، أصبحت له كل السلطات في التعيين والترقية منذ عام ١٠٣٦هـ / ١٦٢٦م ، وتم ذلك بموافقة السلطان مراد الرابع ، وصار بذلك له قوة القانون في البلاد ، حتى أنهم وصلوا إلى تعيين القبطان باشا وتحديد مرتبةُ ، وهذا كله تحكم فيه أغا الإنكشارية رئيس الديوان . وفي عهد السلطان مراد الرابع أيضاً زادت سلطة الولاة ، بسبب نشاط الإدارة في إستانبول فقد قتل ولاة الشام في عهده عدداً كبيراً من زعماء الإنكشارية في الشام ، أمثال ابن الصباغ ، وعلى بن الأرناؤوط، ونفوذ هؤلاء الزعماء في الشام سواء في الإنكشارية أو لدى شعب دمشق، يمثل حلقة في سلسلة الصراع على النفوذ في دمشق بين الولاة وزعماء الإنكشارية عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٢٨ – ١٤٤ .

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

(٢) محمود شاكر : مرجع سابق ، ج٨ ، ص١٣٥ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص١٨٠ .

(**) أمـــا عن الحال في الشام فقد زادت مدة الصراع بين الولاة وزعماء الإنكشارية ، وزادت حوادث القـــتل بين الفريقين ، وأبلغ دليل على ازدياد نفوذ زعماء الإنكشارية ، ضغطهم على الدولة العثمانية لتعين بعض أفرادهم أمراء لقافلة الحج الشامي ، للمحافظة عليها . مما يدل بوضوح على مـــــدى =

أما السلطان محمد الرابع فقد أمتدت مدة حكمه ٤٠ سنة وعدة أشهر [(١)]، توالت خلالها ثورات الإنكشارية ، وتمردات الأهالي من تسـلط الجـنود علـيهم ، واستبداد الإنكشارية حتى اختل النظام ، وصار عدم النظام سمة من سمات الدولة . [(٢)]

وعـادت الإنكشـارية لممارسة نشاطاتهم بحرية تامة ، فزاد عبثهم بالناس وزاد فسادهم ، وانتقلت عدوى التمرد وعدم الانضباط إلـى البحرية، مما أدى إلى ضعف الروح القتالية في البحرية ، [(٣)] ومـن ثم طبعاً التخاذل أمام العدو ، إذ أنه عندما تقابلت سفن الدولة العثمانـية مـع سـفن البنادقة في الدردنيل ، تمردت الإنكشارية ، وأحجمت عن مهاجمة سفن العدو وهربت الإنكشارية بسفنها ، [(٤)] وبالتالي هزم الأسطول العثماني في هذه الموقعة بالقرب من مدينة فوقيه [(*)]عام ١٠٥٩هـ / ١٦٤٩ [(٥)]

= سـيطرتهم علـى القرار السياسي في الدولة العثمانية.وقد حدثت لهم فتنة كبيرة في حلب حيث كان السـبب أن الإنكشـارية طلبـت من رؤسائها أن يصرفوا لهم الرواتب بالقروش وليس بالأقجات ، وطلـبوا عزل وكيل رئيسهم وكاتبه ، فوقعت فتنة نتيجة لرفض هذه المطالب فقتل منهم عدداً كبيراً ، ثـم صارت فتنة بينهم وبين رجال الصدر الأعظم وقتل فيها نحو خمسين رجلاً من الطرفين وانتهت الـثورة بانتصـار الإنكشارية وقتل الوكيل وكاتبه . محمد كرد : ج٢ ، المصدر السابق ، ص٢٧٠ . عبد الكريم رافق : مرجع سابق ، ص١٤٤-١٤٥ .

(١) مخطوط تاريخ آل عثمان : مؤلف مجهول ، ورقة ٣ .

(٢) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص٢٩٠ .

(٣) بسام العسلي : المرجع السابق ، ص١٨٠ .

(٤) علي حسون : مرجع سابق ، ص١١٤ .

(*) فوقـيه أو خوسيه مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط ، تقع شمال أزمير ، وتبعد عنها حوالي ٤٢ كيلو متراً ، وهناك فوقية الجديدة ، تقع شمال فوقيه الأولى . انظر بسام العسلي : مرجع سباق ، ج٥ ، ص١٨٠.

(٥) مرجع سابق : ص١٨٠ .

وقد استفاد أسطول البندقية (*) من غياب الانضباط في البحرية العثمانية ، وقيام الإنكشارية بكثير من التمردات ، وهاجم أسطول البنادقة، الأسطول العثماني أثناء تواجده في بوغاز الدردنيل عام ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م أثناء حرب الدولة العثمانية مع البنادقة ، فقامت الإنكشارية بعمل تمرد مع الملاحين بحجة أن سفن العدو أكبر وأمتن من سفنهم مما أدى إلى احتلال البنادقة لمدينتي تنيدوس (**)وجزيرة لمنوس (***) وغيرهما ، وتمرداتهم هذه أدت إلى شيء مهم ، وهو اختلال النظام الاقتصادي ، والذي سبب ارتفاع أسعار القمح والشعير وسائر أصناف المأكولات ، حيث منع البنادقة وصول السفن الحاملة لهذه البضائع من الوصول إلى إستانبول ، (١) وهكذا أصبحت مالية الدولة سيئة جداً ومنخفضة ، لصرفها الأموال في حل المشكلات الداخلية ، إضافة إلى التصدي للحروب الخارجية . (٢)

(*) حرب البنادقة اشتدت في عهد محمد الرابع ، لأن الدولة كانت تعاني من الاختلال والفساد في الإدارة والحكم ، فانتهز البنادقة هذه الفرصة وأرسلوا عمارة لتهديد مضيق الدردنيل . ولما أتت هذه العمارة حصل بينها وبين العثمانيين عدة وقائع ، ولما رأت الدولة أن سفن البنادقة قوية وأن معظم سفنها ببناء صغيرة، بادر الصدر الأعظم صوفي محمد باشا بإرسال أوامره إلى دار صناعة السفن ببناء سفن كبيرة من نوع الغليون لتكون عمادة العثمانيين على درجة من القوة . انظر إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١، ص ١٥٧ .

(**) تينيدوس : جزيرة صغيرة تقع عند مدخل الدردنيل .

(***) لمنوس : جزيرة صغيرة تقع إلى الغرب من تينيدوس . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص١٨١.

(١) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٩٠ . انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص١٨١ .

(٢) علي حسون : مرجع سابق ، ص١١٤ .

ومما زاد خطورة الأمور اندلاع ثورة بآسيا الصغرى في نفس العام ، بقيادة رجل يدعى قاطرجي أوغلي (*) ، لكن التمرد انتهى بالعفو عن قاطرجي أوغلي وتعينهُ والي على القرمان ، وهكذا انتهى التمرد ، لكن نارها ظلت تحت الرماد ، فقد كانت الإنكشارية ، تغذي نار الثورة أحياناً ، وفرسان السباهية هم من يعملون على إبقاءها .(**) (١)

وقد استمر الموقف على التدهور ، لا نظام ولا أمن ولا استقرار ، ولا حكومة ثابتة ، حتى قيض لها الله سبحانه في منصب الصدارة محمد باشا الشهير بكوبرللي (***) (٢) لقد برز آل كوبريلي في وقت كانت النقمة عمت على الناس جميعاً ، عرُفت هذه الأسرة بإخلاصها في العمل، وقد تمكنوا من كسر شوكة الإنكشارية بفرض النظام والانضباط عليهم ، وإخضاعهم وقد بادر محمد باشا منذ

(*) قاطرجي أوغلي أحد زعماء قطاع الطرق الجلاليين ، الذين ظهروا في منطقة " جوهر " في القرن السابع عشر الميلادي، ينسب لقبيلة جميل التركمانية ، وعائلته كرن وهي من الأسر الإقطاعية في تركستان ، اشتهر منذ صغره بالفروسية والمحاربة ، تولى زعامة الأشقياء وقطاع الطرق في سن مبكرة ، وانتشر نفوذه بين أنيون وبايشهر، وعندما تم القبض عليه وإرساله إلى إستانبول ، أعلن توبته وخدم مع محمد كوبرلي باشا ، وصار من مشاهير القادة وفي عام ١٦٥١م عين قائد للجيش العثماني . دائرة المعارف التركية : ج٢١ ، د.ط ، أنقرة، ١٩٧١م ، ص٤٠٠ .

(**) انضم إليه رجل يدعى كورجي بني ، ولكن وقع خلاف بينهما قبل الوصول إلى العاصمة ، فافترق عنه ، فحاربه الجند ، وقطعوا رأسه وأرسلوها إلى إستانبول . بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص١٨٠ .

(١) مرجع سابق ، ج٥ ، ص١٨٠ .

(***) الكوبرو : هو الجسر ومعناها صاحب الجسور ، أو صانع الجسور ، وما زال الناس يستخدمون هذا اللفظ على الجسر ، وقد كان لهذه الأسرة شأن في الدولة العثمانية . أنظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، ص٢٩٠ .

تولي الصدارة العظمى إلى تأديب الإنكشارية في أعقاب تمرد حدث منهم ، وأمر بإلقاء جثثهم في البحر، حتى قيل أنها بلغت أربعة آلاف جثة ، وبهذه الشدة التي عوملوا بها هدأت ثوراتهم وقصر طغيانهم . (١)

ولكن نجد أن الإنكشارية لعبت دوراً كبيراً عند أسوار فينا ، حيث طلب الصدر الأعظم الإذن من السلطان محمد الرابع ، بالسفر إلى بلاد النمسا وافتتاح مدينة فينا ونشر الإسلام فيها ، وفعلاً تم التجهيز (*) لهذا الأمر ، وبدأ المسير إلى قلعة بج ، وأطلق الصدر الأعظم أمره بنهب القلاع وحرق المزارع وقد سعدت الإنكشارية بهذا الأمر فنفذته على أكمل وجه ، ونهبت ما لا يحصى من الغنائم ، ولكنها تجاوزت الحدود وتعدت على النساء والرجال العاجزين عن الحركة ، وسبوا كثيراًمن النساء ، وتعدوا على حرمات البيوت ، واستولوا على الأموال ، وعلى طول الطريق إلى فيينا كانوا يقومون بكافة الأعمال البشعة ، حتى وصلوا إلى فينا وكانت محصنة بشكل جيد ، فضربوا حولها الحصار ورموها بالمدافع ، وكان قد هرب منها الأهالي ، وعندما ضاق الخناق على الناس المتبقية بداخلها طلبوا أن يسلموها طوعاً ، ولكن الوزير خاف من الإنكشارية ونهبها للمدينة ، وعندما راجعه الوزراء والعسكر في الدخول صلحاً رد عليهم أنهم إذا ضمنوا عدم فساد الإنكشارية

---

(١) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

(*) للاستزادة عن التجهيزات العسكرية في الجيش العثماني . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص٢٠٩ .

بهـــا ، وافق على الصلح واستمرت المفاوضات ثلاثة أيام ، وطال الحـــصـــار ، حتى تكالبت(*)جيوش أوروبا وتجمعت على الجيوش العثمانية،(١)ومنيت السلطنة بهزيمة وإنكسار فظيع حول أسوار فينا فـــي عـــام ١٠٩٨هـــــ / ١٦٨٧م، (٢) على الرغم أنهم كانوا أحد الأسباب الرئيسية لعدم فتح فينا إلا أنهم نسوا ذلك وسارعوا بالتمرد للـــتخلص من السلطان والصدر الأعظم وفي أثناء حرب العثمانيين مـــع جـــيوش النمســـا ، ألتحم الجيشان في معركة كبيرة في سهل موهاكز (**) في ٣ شوال ١٠٩٨هـــ / ١٢ أغسطس ١٦٨٧م ، وبعد أن دارت رحـــى المعركة ، انقلبت على العثمانيين وهزموا هزيمة نكـــراء وبـــدأت الجـــيوش النمساوية في جميع ما معهم من مدافع وســـلاح ومـــؤن وذخائـــر ، وعـــندما وصلت الأنباء للإنكشارية الموجودة في العاصمة هاجت وماجت وثارت، وأرسلت للإنكشارية الموجـــودة مـــع الصدر الأعظم سليمان باشا في ساحة المعركة، وطلبـــت مـــنهم إشـــهار العصيان والتمرد ، وفعلاً تم ذلك ، ولولا هروب الصدر الأعظم لبلغراد لأعدموه ، وانتهت هذه الثورة بعزل الســـلطان محمـــد الـــرابع في ٢ محـــرم ١٠٩٩هـــ / ٨ نوفمبر ١٦٨٧م (٣) واضـــطر حسين باشا الذي كان يُحاصر مدينة كنديا في

(*) للاســـتزاده عـــن اســـتعدادات ملوك أوروبا لقتال العثمانيين . انظر أحمد زيني دحلان : مصدر ســـابق ، ص ص ٢٠٩-٢١١ .

(١) مصدر سابق ، ص ٢٠٩-٢١١ . انظر محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٩٥-٢٩٦ .

(٢) محمد جميل بينهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

(**) تقـــابل العثمانـــيون في هذا السهل من قبل مع المجريين وانتصروا نصراً عزيزاً مجيداً قبل هذا التاريخ بـــ ١٦٠ عام . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٠٣ .

(٣) مصدر سابق ، ص٣٠٣ .

كريـــت ، وأن يـــرفع الحصــــار عنها ، بسبب التمرد الذي أثارته الإنكشارية . [1]

وهكــذا نرى أنها تحكمت في حركة المعارك ونهايتها طوال عهد محمد الرابع .

تولـــى سليمان الثاني الحكم ، وأغدق العطايا والهبات على الإنكشـــارية خوفـــاً منهم ، [2] إلا أن حالة الهياج والثورة لا زالت مستمرة .

وفـــي خضـــم هذه الأحداث كانت الدولة تعاني الأمرين من جـــراء الحـــرب الطاحنة بينها وبين الدول المتعاونة عليها : النمسا وبولونيا والبندقية ، وفي الوقت الذي كانت ترجو فيه من الإنكشارية الهـــدوء ضاعفت هذه الأخيرة مشاكلها الداخلية ، [3] وللأسف هذه الأعمال التي قامت الإنكشارية بها لم تفيدهم ، ولم تفيد الدولة ، فقد اســـتغل أعداء الدولة العثمانية انصرافها في حل مشاكلها الداخلية ، وبدأوا باحتلال أجزاء من أراضيها .

وهـــاجم أعـــداء الدولة العثمانية ممتلكاتها في النمسا والمجر وبـــلاد الـــيونان والصـــرب ، [4] وكانت هذه بداية ضياع ممتلكات الدولة العثمانية وهذه من أخطر نتائج تمرد الإنكشارية المستمر .

---

(1) محمود شاكر : مرجع سابق ، ج٨ ، ص١٣٥ .

(2) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ،ج١ ، ص٥١٧ . يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص٩٤ ، ٩٥ .

(3) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥ .

(4) عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٧ .

وقـد اغتنمت النمسا هذه الفرصة من ارتباك الدولة العثمانية وزحفت بجنودها على ولايتي البوسنة والهرسك واستولت عليها ،[1] واستولت علـى قلعتي أرلو [*] وليبا [**] وغيرهما ، إضافة إلى احـتلال البنادقة لمدينة ليبه في بلاد اليونان بقيادة موروزيني ، كما أحتلوا كافة سواحل دالماسيا أودالمانيا سنة ١٠٩٨ هـ / ١٦٨٧م ، وفـي السـنة التـي تلـتها سقطت مدائن سمندرية وقلومباز [***] وبلـغـراد ، وكان ذلك في سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٨م . ثم فقدت الدولـة العثمانية في سنة ١١٠٠ هـ / ١٦٨٩م مدينتي نيش وودين في بلاد الصرب . [٢]

وإزاء هـذه الأخطار الجسيمة التي واجهت الدولة العثمانية ، قام سليمان الثاني بعزل مصطفى باشا من الصدارة العظمى ، لعدم كفاءته وضعفِه في مواجهة العدو ، وعين كوبريلي مصطفى باشا ، الـذي كان يتمتع بكفاءة أبيه ، فقام بكسب ود الإنكشارية ، وحرز بذلك الانتصارات في الحروب التي خاضها . [٣]

---

[١] يوسف أصاف ، مرجع سابق ، ص٩٥ .

[*] أرلـو : مديـنة صـغيرة ببلاد المجر ، تقع شمال شرق مدينة بودابست ، اشتهرت في التاريخ العثمانـي بصـد هجمات العثمانيين ، وإلزامهم وضع الحصار عنها في سنة ١٥٥٢م ، ولكنها فتحت عنوة ١٥٩٦م . وبعد صلح سنة ١٦٠٦م ، صارت تتبع النمسا تارة وترانسلفانيا تارة أخرى ، وتسمى بلغة المجر إيجر والآن إيكير.

[**] ليبا : في بلاد المجر تقع قرب إيكير ، شمال شرق بودابست . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٢٤١-٢٩١ .

[***] يطلق عليها كولمباز : محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٠٥ .

[٢] مصدر سابق ، ص٣٠٥ ، انظر بسام العسلي : مرجع سابق ، ص١٩٥. انظر سعيد برجاوي ، مرجع سابق ، ص١٦٩

[٣] محمد جميل بيهم : مرجع سابق ، ص١٣٥ .

وقـــد استخدم معهم سياسة اللين تارة والشدة تارة أخرى كما صرف لهم ما هو متأخر لهم من رواتب [1] ، من أموال الأوقاف ، حـــتى لا يكـــون لهم حجة في اختلاس أموال الناس ، ومنعهم من اغتيال الأهالي ، وبذلك انتظمت أمور الجيش نوعاً ما . [2]

وبعـــد ســـليمان تولى أحمد الثاني الحكم ، ولكن لم يذكر أن للإنكشارية تدخلات في السياسة العليا ، أو حتى يذكر التاريخ أحداثاً مهمة فقد اقتصر الأمر على مناوشات حربية خفـــيفة في عهده . [3]

أما عهد مصطفى الثاني ، فقد تميز بهدوء الإنكشارية ، نظراً لأن آل كوبريلـــي كانوا في الصدارة العظمى ، فسارت الدولة في طـــريق الانتصـــارات إلا أنهـــا منيت بسوء الحظ نتيجة استشهاد مصطفى باشا كوبريلي في حربه مع النمسا ، وكادت الجنود تتشتت لـــولاً أن مصـــطفى الثاني تولى قيادة الجيش بنفسه ، ولكن الهزائم التـــي منيـــت بها الدولة كثيرة ، أمام عـــصبة الأمم الأوروبـــية ، النمســـا – روسيا – البندقية – بولونيا حيث انتصروا على الجيش العثمانـــي لافـــتقاره التنظـــيم وتمرد الإنكشارية مما أضعف الدولة العثمانية أمام التحالف الصليبي واضطراره إلى التوقيع على معاهدة كارلوفـــتس (*) وبـــناءً على شروط المعاهدة انسحب العثمانيون من بلاد المجر وإقليم ترانسلفانيا وتركوها للنمسا وتركوا أزاق لروسيا وتنازلت لبولونيا عن كامليك وللبندقية عن دلمانيا .وحاول السلطان

---

(1) بسام العسلي : مرجع سابق ، ص١٩٥ .

(2) محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٠٥ .

(3) مصدر سابق ، ص٣٠٧ .

(*) كارلوفتس : بلدة يوغسلافيا على نهر الدانوب .

مصطفى الثاني التصدي لتدخلات الإنكشارية في السياسة ، مما نتج عنه عزلهِ عن الحكم ، وتولية أحمد الثالث . [١]

كمـــا كان من أسباب عزلهِ أيضاً ، أنه عين رامي محمد باشا فـــي الصـــدارة ، والـــذي سار على خطى آل كوبريلي في إبطال تمرداتهم ومعاقبة المتسببين فيها ومنع المظالم ، ومعاقبة المرتشين ، إلا أن أصحاب المصالح والغايات ثاروا ، فثارت معهم الإنكشارية لمـــيلهم للسلب والنهب ، وطلبوا عزل الصدر الأعظم ، وعندما لم يوافـــق الســـلطان، ثـــاروا أكـــثر ، فأرســـل لهم فرقة من الجنود لـــتـــحاربهم ، فانضمت إليهم ، إضافة إلى أن عقد السلطان للصلح مـــع النمسا وفرنسا وإنجلترا أثار حفيظة الإنكشارية فقررت عزله فـــي ٢ ربيع الآخره ١١١١هـــ / ١٥ أغسطس ١٧٠٣م . [٢] وبعد جلـــوس أحمد الثالث على أريكة الحكم العثماني ، ثارت الإنكشارية علـــيه وأرغمـــته على تعيين نيشانجي أحمد باشا [*] في الصدارة ، وبـــدأعوا في عزل أعظم رجال الدولة واستبدلوهم بمن أرادوا . [٣] على أن السلطان أحمد الثالث، بقي متذكراً ما فعلوه ، فانتظر حتى هـــدأت الأحوال ، وحاول إيقافهم عند حدهم ، وفرض هيبتهُ عليهم

---

[١] محمـــد فـــريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٠ . محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٥، ١٣٦ . محمد علي الصلابي : مرجع سابق ، ص ٤٩٦ .

[٢] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣١١ ، انظر حبيب السيوفي : مرجع سابق ، ص٣٢ .

[*] أحمـــد باشـــا : والدتـــه مـــن " ألبانيا " نشأ بجوار عمه الوزير " الحاج أبو بكير باشا ، عمل في إستانبول في منصب القيادة ، عين قائداً للرماية ، ولاقى كثيراً من التقدير أثناء ذلك ، عين والي على حلـــب وديـــار بكـــر وبغداد ، وعين في الصدارة العظمى أثناء عهد أحمد الثالث توفي أثناء ولايته حـــلب . الموسوعة التركية : وقف الديانة بتركيا ، ج٢ ، د.ط ، د. ت ، ص١١٤ .

[٣] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٦. يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص١٠٠ .

مـــدة من الزمن ، لكنهم ظلوا يتحينون الفرصة لاسترداد نفوذهم ، ووجدوا الفرصة سانحة في عزم الدولة العثمانية عقد صلح مع دولة فارس ، فثارت ثائرتهم.[١]

لقـــد نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية في عهـــد كلاً من أحمد الثالث وطهماسب الثاني ، وكان سببها [*] عدم رغـــبة الدولة العثمانية في إعادة ما أخذته من الدولة الصفوية ، من بـــلاد أجـــداده علـــى حـــد قول طهماسب ، وعندما رفضت الدولة العثمانية ، أغار على حدودها ، فرأى السلطان أحمد الثالث أن من مصلحة الدولة العثمانية عقد صلح مع الدولة الصفوية ، [٢] خاصة وأن الســـلطان أحمـــد كان عزوفاً عن الحرب ، ورغب في تسوية الـــنزاع القائم بين الدولتين بالطرق السلمية، ولكن الإنكشارية ثارت وتمردت عليه ، [٣] مستثيرة حماس المواطنين[٤].

وكانـــت حجـــتهم أن وقـــف الحرب سوف يحول بينهم وبين الغـــنائم ، كمـــا أن نهـــب البلاد المفتوحة سيتوقف ، وتزعم ثورة الإنكشـــارية بـــترونا خلـــيل [**] الذي طالب السلطان بتسليم شيخ

---

[١] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٦ .

[*] لمـــزيد مـــن المعلومـــات عن أسباب حرب الدولة العثمانية مع الدولة الصفوية الرجوع إلى بسام العسلي : مرجع سابق ، ص٢٠٨ .

[٢] بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥ ، ص٢٠٨ .

[٣] عبد العزيز الشناوي : ج١ ، مرجع سابق ، ص٥١٧ .

[٤] بسام العسلي : مرجع سابق ، ج٥، ص٢٠٨ .

[**] ينطق أيضاً بطرونا خليل . عبد العزيز الشناوي : ج١، مرجع سابق ، ص٥١٧ .

الإســـلام والصـــدر الأعظم وقائد البحرية قبودان باشا ، بحجة أنهم مؤدين للصلح مع الدولة الصفوية.[١]

رفــض السـلطان الاســتجابة لطلبهم في بادئ الأمر ، لكنه تــراجع عن قراره حين تأكد من إصرارهم على قتلهم طــوعاً أو كرهاً ، وخشي على نفسهِ منهم ، فسلم لهم الصدر الأعظم والقبودان باشا [*] وسمح لهم بقتلهمِ وتم قتلهم وإلقاء جثثيهما في البحر ، لكنه طلـــب الإبقـــاء على حياة شيخ الإسلام خوفاً من إثارة الرأي العام وقبلت الإنكشارية هذا الحل على مضض . [٢]

لكـــن انصياع السلطان جرأهم على الثورة عليه وعصيانه ، فأعلـــنوا عزـــله في مساء نفس اليوم الذي قتلوا فيه الصدر الأعظم والقــبودان باشـــا ١٥ ربيع الأول ١١٤٣هـــ/ ٢٨ سبتمبر ١٧٣٠م ونـــادوا بابـــن أخيه محمود الأول سلطاناً على الدولة وأذعن أحمد الثالث [**] لرغبتهم بدون معارضة وتنازل عن الحكم . [٣]

وهـــنا نلاحظ أن ثورات الإنكشارية أخذت جميع الإتجاهات ثـــورة للنهب والسلب وللتعدي على السلطان ، وأخرى للتدخل في السياســـة العلـــيا، وهكذا أصبحت الأحوال داخل الدولة ضعيفة جداً نتـــيجة للتخبط في هذه الأروقة ، كما وأن السلاطين صاروا ألعوبة

---

[١] محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٣ .

[*] أي أميرال الأساطيل البحرية . محمد فريد المحامي ، المصدر السابق ، ص٣١٨ .

[٢] عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج١ ، ص٥١٨ .

[**] لم تقتله الإنكشارية ، وإنما بقي معزولاً إلى أن وافتهُ المنية في سنة ١٤١٩هــ . محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣١٩ .

[٣] المصدر السابق ، ص٣١٨-٣١٩ .

فـــي يد الإنكشارية يحركوهم كيفما شاءوا ، مما زاد ضعف الدولة العثمانية على الصعيد الداخلي .

وهـــنا نـــرى أنهم أصبحوا كالنار يأكلون بعضهم ، فأعمالهم العدوانية، لم تقتصر على السلاطين والصدور العظام وكبار رجال الدولـــة ، بـــل امتدت إلى زعمائهم ، حيث لم يكن للسلطان محمود الأول مـــن الســـلطة إلا اسمها ، [١] ولم يكن سوى صورة لسلطان يجلـــس على عرش الدولة فلم يصدر قرارات ولم يُقد جيوشاً . وقد تـــبوأ الدولة وكان عمره خمسة وثلاثون عاماً ، وكانت الأحوال في إستانبول مضطربة بسبب تمرد الإنكشارية . [٢]

وقـــد اســـتأثر بالســـلطة الفعلـــية والنفوذ بترونا خليل رئيس الإنكشـــارية وقـــائد الإنقلاب ضد السلطان أحمد الثالث ، فكان هذا الأخـــير يولـــي في مناصب من يريد ويعزل من لا يريد ، وأصبح كبار رجال الدولة يتمنون رضاهُ عنهم ، وزاد استبداده ، حتى بدأت الإنكشـــارية تـــنقم علـــيه ، فقد تحركت الأطماع داخلهم ، وطالبوه بتحسين أوضاعهم المادية ، ولكنهم اكتشفوا عكس ذلك ، إذا أنه كان سيتولى على جزء من مخصصاتهم المالية ، فقرروا التخلص منه ، معتمديـــن علـــى كـــثرة عددهم ، وتم قتلهِ دون أن يدافع أحداً عنه وبمقتلهِ ، عادت السكينة والهدوء إلى استنابول، وأمن الأهالي على أرواحهم وأموالهم ، وبدأ السلطان في سياسة حربية نشيطة ضـــــد

---

[١] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥١٨ .

[٢] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار في دول البحار ، ج١ ، ص٦٢٢ .

الدولة الصفوية ثم ضد النمسا وروسيا . [1]

وعندما تولى عثمان الثالث الوضع لم يتغير وبقي التحكم في يد الإنكشارية .

أما مصطفى الثالث فقد تجنب الاحتكاك بالإنكشارية ، وأراد أن يكـــون حكمه أمناً ، حتى لا يصيبه ما أصاب خلفهِ ، وقام بعدة إصلاحات في الجيش لكنها لم تثمر لأنها لم تمتد إلى الإنكشارية [2] إلا أن بقيـــت الحروب متصلة مع الفرس تارة ومع روسيا والنمسا تـــارة أخرى ، وقد استمرت الحرب مع روسيا ، وقد كلفت الدولة العثمانية الكثير. [3]

وفـــي أثـــناء الحـــرب مع روسيا كان الجيش بقيادة الصدر الأعظم ، وبعد عدة معارك ، ثارت الإنكشارية ، وكانت العساكر قد كلـــت من الحروب وشقت عصى الطاعة على قائدها ، وتركوه في ساحة المعركة وعادوا إلى إستانبول وعندما علم السلطان بذلك وجد أنه لا مفر من عقد الصلح مع روسيا ، وعرفت هذه المعاهدة باسم كوتشك قينارجه[*][4]

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص ٣١٢- ٣٢٠ . عبد العزيز الشناوي : مرجع ســـابق ، ج١ ، ص٥١٩ .

[2] المرجع السابق ، ص٥١٩ .

[3] محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثماني ، ص١٣٦ .

[*] عقدت معاهدة كوتشك قينارجه بعد أن انتقل السلطان مصطفى الثالث إلى الرفيق الأعلى ، وقد عقد فـــي ٩ شوال ١١٨٧هـــ/ ٢٤ ديسمبر ١٧٧٣م ، وأبرمت في مستهل حكم أخيه السلطان عبد الحميد الأول . عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج١ ، ص٥١٩ .

[4] يوسف أصاف : مرجع سابق ، ص١١٠ ، انظر أحمد زيني دحلان : مصدر سابق ، ص٢٢٨ .

لقد سيطرت على الفترة السابقة رؤوس متعصبة تبغي المنفعة والسلطة وأفكار محدودة الأفق لا ترتبط بمصلحة الدولة بل كانت الدولة ضحيتها ، فقد صارت الدولة نطاق مليء بالعصيان ، وهذا العصيان يحدث ثقوب وثغرات في جسم الدولة مما يهددها بالزوال . [١]

لقد كانوا أحد الأسباب غير المباشرة في عقد صلح كوتشك قينارجه وهذه المعاهدة كانت مجحفة في حق الدولة ، ولكن الدول اضطرت لها نظراً لهروب جيشها من ساحة المعركة .

وظل الحال كما هو في عهد عبد الحميد الأول من تدخل في السياسة خاصة وأن الحرب مع روسيا كانت مستمرة ، لكن لم يذكر في المصادر التاريخية تدخل الإنكشارية مباشرة في السياسة العليا ، ولكن هذا لا يمنع عدم تواجدهم على الساحة السياسية .

لقد حفل تاريخ الإنكشارية في هذه الفترة بشتى أنواع التخريب والدمار فقد تحولوا من أداة بناءة تحافظ على الدولة ، إلى معول هدم وتخريب ، ومن قوة حربية عالية الكفاءة ، إلى ما يشبه اللصوصية ، وقطع الطريق ، وسلب الأرواح والأموال ، وخير دليل ما حدث في دمشق وبلاد الصرب . فمثلاً في دمشق نجد أن صراع الإنكشارية مع الشعب حول دمشق إلى ساحة لطغيان الإنكشارية وتخبط موقف باشوات الشام في الانضمام إلى الإنكشارية أو الوقوف ضدها في بعض الأحيان انضمت إلى الإنكشارية وفي أحيان أخرى إلى الدروز وظلوا يهددون دمشق

---

[١] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٤ . منقولاً عن مقدمة رفيق قباقجي مصطفى .

فــترة من الزمن بالإغارة عليها وصارت بينهما عدة مصادمات ، كان من نتائجها ضياع المال والأرواح من الأهالي . [١]

أمــا مــا حـدث فــي الصرب فهو خير دليل على الصورة الســابقــة ، فــبعد فــتح بلاد الصرب أعطيت كافة أراضيها إلى الفرســان علــى شكل إقطاعات ، وعندما نشبت الحرب بين الدولة العثمانــية والنمســا وروسيا في ١٢٠٣هـــ / ١٧٨٨م في عهد عبد الحميد الأول ، استطاعتا إنزال الهزائم المتلاحقة بالدولة العثمانية و هاجــر كثــير من أهالي الصرب إلى النمسا وبلاد المجر ، حيث انضــموا إلـــى سلك الجندية النمساوية ، أملاً في أن تنتهي الحرب بهـــزيمة ســاحقة للدولـــة العثمانية ، لكن نشوب الثورة الفرنــسية ١٢٠٤هـــ /١٧٨٩م ، أدى إلى نهاية الحرب ، وتم عقد صلح مع النمسا في ١٢٠٧هـــ / ١٧٩٢م ثم تلتها معاهدة مع روسيا . [*][٢]

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل قامت الإنكشارية بحركات عصيان ضد أهالي الصرب ، وبالتالي أفسدوا سياسة الدولة العليا، وبعد نهاية الحرب ، عاد الصربيون الذين انخرطوا في سلك الجندية النمســاوية، إلى بلادهم ، وبدأت الإنكشارية التعرض لهم ، بالقتل بوحشية لم يسبق لها مثيل ، والسلب ، والنهب ، [٣] وكانت حجتهم

---

[١] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٥ .

[*] احتفظــت فـــي المعاهدة روسيا ببعض الأقاليم التي كانت قد استولت عليها أثناء الحرب انظر عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢٠ .

[٢] مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢٠ . انظر فريد المحامي : مصدر ســـابق ، ص٣٨٣ . انظر محمد سهيل طقوش : مرجع سابق ، ص٢٥٣ .

[٣] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢٠ .

فـــي ذلـــك أن هؤلاء رفعوا السلاح ضد دولتهم ، ووقفوا مع أعداء الدولـــة العثمانـــية ، فلابد من التنكيل بهم والتخلص منهم ، فقامت بنهب قرى الصرب ، والتعدي عليهم بكل أنواع الإهانة . [1]

وقـــد كـــان هذا تبريراً يتسترون به على غرضهم الحقيقي ، وهـــو تحقـــيق مـــنافع شخصية وعاجلة لهم ، وطبعاً هذه الأعمال أحرجت الدولة العثمانية وسياستها العليا ، حيث نصت الفقرة الثانية مـــن المـــادة الأولى من معاهدة الصلح ، أن يمنع حصول التعدي والإهانـــة مـــن أحد الطرفين على الآخر ، ويتم العفو عن كل من اشترك في الحرب ، خاصة أهالي الصرب والبوسنة والجبل الأسود والأفـــلاق والـــبغدان ، بحيث يعودوا إلى أوطانهم ويتمتعوا بجميع حقوقهم وأملاكهم ، دون أن يتعرض أحداً لهم بالأذى أو المساءلة أو العقاب. [2]

وقـــد أرســـلت الدولـــة العثمانية تعليمات سريعة إلى الوالي العثمانـــي فـــي بلغـــراد ، تســـتنكر فيها تصرفات الإنكشارية ضد الصـــربيين ، وقضـــت التعليمات بأن يتم تنبيه الإنكشارية إلى أنه أصدر عفواً عاماً لأهل الصرب، إضافة إلى أن يمنع اعتدائهم على الصـــربيين ، إلـــى أن الإنكشـــارية ضربت بهذه الأوامر عرض الحائـــط ، واستمرت في اعتدائتها. [3]

---

[1] محمد فريد المحامي : مصدر سابق ، ص٣٨٣ .

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢١ .

[3] أرشيف رئاسة الوزراء بإستانبول : رقم الوثيقة ٣٩٤٦ تصنيف HAT.Hعبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ،ج١ ، ص٥٢١ .

وقـــد توالـــت شكايات الأهالي من ظلم الإنكشارية ، فأمرت الدولة الوالي بمعاقبة الإنكشارية وإخراجهم من أراضي الصرب ، فلم يمتثلوا لهذه الأوامر ، فحاربهم الوالي بمساعدة السباه " الفرسان الإقطاعييـــن" وتغلـــب علـــيهم وأخـــرجهم من بلغراد بعد أن قتل رئيـــســـهم " ولي أحمد "(١) وهكذا نجد أن بلاد الصرب عانت منهم الكثـــير ، لقد فسد فيها الإنكشارية لدرجة أن أصبحوا من الأسباب التي أدت إلى استقلال الصرب عن حكم العثمانيين .

وقـــد أرسل السلطان يهدد الإنكشارية بأنه سيرسل لهم جيشاً مـــن ديانـــة أخـــرى ليحاربهم ، ففسرت الإنكشارية ذلك القول أن السلطان يقصد الصربيين فقاموا بعمل مذبحة رهيبة بالصربيين مما أدى إلى تأزم الوضع . (٢)

وبعـــد ذلك التجأت الإنكشارية إلى بازوند أوغلي (*) ، وهو أحـــد المغامريـــن الثائريـــن ، وقـــد شق عصا الطاعة على الدولة العثمانـــية ، وأتخذ من ولاية ودين (**) مقراً له ، وجمع حولهُ قطاع الطـــرق ، والإنكشـــارية الثائرة ، وقد حاربتهُ الدولة عدة مرات ،

---

(١) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص٣٨٣ .

(٢) محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٦ .

(*) يرد ذكر أسمه في بعض المصادر : باسبان أوغلي ، بازوانت أوغلي ، بازواند زاده عثمان . عبد العزيز الشناوي : المرجع السابق ، ج١ ، ص٥٢٢ .

(**) ودين تقع في بلغاريا ، ويرد ذكر اسمها أحياناً فيدين ، وهي مدينة حصينة تقع على نهر الدانوب وذات موقـــع اســـتراتيجي ، واكتســـبت شـــهرتها في الدولة العثمانية لأنها مقر بازواند أغلي . انظر المرجع السابق ، ص٥٢٢ .

ولكنها فشلت في التخلص منه ، فأرسلت حسين باشا (*) لمحاربته ، والذي خاف من أن يحذو حذوه حكام الولايات العثمانية في البلقان ، ويقوموا بتمردات ضد الدولة العثمانية، فاقترح على سليم الثالث أن يعطـيه حكـم ولاية ودين طوال حياته، وفعلاً تم هذا الأمر ، وقد انضـوت تحت لواء الإنكشارية ، وقد توسط لهم عند الباب العالي حتى يعودوا لبلغراد ، بشرط أن يلتزموا الهدوء وعدم التعدي على الأهالي ، إلا أنهم لم يلبثوا أن حاصروا بلغراد ودخلوها عنوة ، ولم يـرجعوا عن غيهم ، واستمروا في نهب وسلب البلاد مرة أخرى ، ونشروا الفساد في المدينة . (١)

وعندما فاض الأهالي ، من أفعال الإنكشارية ، قرروا الدفاع عـن أرواحهم وأعراضهم وأموالهم ، ورأوا ضرورة استخدام القوة لردع الإنكشارية ، وانتخبوا رئيساً لهم جورج بتر وفتش (**) أو قرة جورج ، أي جورج الأسود ، وبدأ الصربيين في مطاردة الإنكشارية حتى أبعدوهم عن القرى ، وأحكموا حولهم الدائرة حتى حصروهم

(*) يعد حسين باشا من أعلام العسكريين العثمانيين . وكان الذراع الأيمن للسلطان سليم الثالث وقد نفذ فكرة تطوير القوات المسلحة العثمانية ، ورأى ضرورة التخلص من الإنكشارية ، وتم تعينه قبوداناً عاماً . المرجع السابق ، ص٥٢٢ .

(١) محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص٣٨٣ . انظر المرجع السابق ، ص٥٢٢-٥٢٣ .

(**) ولد هذا الثائر في بلغراد سنة ١٧٧٠ م ، وكان يلقب بقره جورج أي الأسود ، وهو أول من جمع الصربيين على مقاومة الدولة العثمانية وطلب الاستقلال ، في سنة ١٨٠٦م نال بعض الامتيازات التي عـادت وسـحبتها الدولـة العثمانـية عام ١٨١٣م وطردته فهاجر إلى روسيا حيث عين هناك قائداً لجيوشـها وفـي سـنة ١٨١٧م حـاول الرجوع إلى الصرب لإثارة الفتن فقبض عليه ميلوش وقتله وأرسـل رأسه إلى إسطنبول علامة على ولائه . وينسب إليه أنه قتل أباه وأخاه عندما أحس ميلهم للعثمانيين . انظر محمد فريد المحامي ، المصدر السابق ، ص٣٨٣ – ٣٨٤ .

في المدن ، وسكان هذه المدن كانوا على أهبة الاستعداد للانقضاض على الإنكشارية إذا ما قاموا بأعمال سلب أو نهب .[1]

وهنا أدركت الدولة العثمانية خطورة الموقف ، نتيجة تصرفات الإنكشارية في الصرب ، فخافت أن تنقلب ثورة الصربيين ضد الإنكشارية وتصبح ضد الوجود العثماني في الصرب ، فأرسلت إلى والي البوسنة بكير باشا تطلب منه الزحف على بلغراد وطرد الإنكشارية منها، وقد نجح هذا في دخول بلغراد وتنفيذ المهمة التي أرسل من أجلها وتم طرد الإنكشارية من بلغراد .[2]

وكان هذا يدل على مدى فساد الإنكشارية ، وأنها صارت عالة على الدولة العثمانية ، لدرجة أنها تتعاون مع الصربيين لطردهم والتخلص من شرورهم ، وهذا يوضح مدى فقد الدولة العثمانية لزمام السيطرة على الإنكشارية ومن ثم عدم قدرة الدولة العثمانية السيطرة عليها .[3]

ومع كل هذه الجهود المهدرة من قبل الدولة العثمانية لم تخضع الإنكشارية ولم تقدر وضع الدولة العثمانية التي كان أعدائها من الروس والنمسا يتربصون بها .

فقد عادت الإنكشارية لسيرتها الأولى ، وجمعوا فلولهم ، وبدأوا في ممارسة أعمالهم العدوانية مرة أخرى ، فقامت صربيا بزعامة قرة جورج عام ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٤م وقاتلت الحامية

---

[1] محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص٣٨٣،٣٨٤ .

[2] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢٣ .

[3] محمد عبد اللطيف البحراوي : حركة الإصلاح العثماني ، ص٨٦ .

العثمانية في بلغراد ، وأعملت فيها مذبحة رهيبة ، على اعتبار أنها المسؤولة عن أعمال الإنكشارية الإجرامية وعن ابتعادهم عن القواعد العسكرية . وقد اتشحت هذه الحرب بمذابح دموية ، وأخيراً بعد حرب ثمانية سنوات ، وحصلوا على وعد بالاستقلال الذاتي في المعاهدة العثمانية الروسية عام ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م [١]

ويتضح من تمردات الإنكشارية في بلاد الصرب ، أن شرورهم وصلت إلى البلقان ولم تقتصر على إستانبول والبلاد العربية ، وأنهم كانوا مقدمة لاستقلال الصرب ، حيث أن حرب الإنكشارية تطورت إلى حرب ضد الوجود العثماني . ونجد أن أول شعب سعى للخروج عن الدولة العثمانية هم شعب الصرب ، على الرغم من أنهم كانوا أكثر خضوعاً للعثمانيين من شعوب منطقتي مولدافيا و ولاشيا ، وكان ضعف الدولة وتباطئها في معاقبة الإنكشارية في صربيا وقتاً مناسباً لقيام شعوب البلقان بحركات انفصالية . [٢]

ومع بداية حكم السلطان سليم الثالث ، قامت الإنكشارية بحركات عصيان في مصر ضد الوالي العثماني هناك بسبب رغبتهم في أخذ المكافأة والعودة إلى بلادهم حيث لم يصبروا حتى يرد أذن سفرهم واستعجلوا الرحيل فما كان من الوزير إلا أن حبسهم في القلعة حتى يرد الإذن إنهاءً للتمرد [٣]

---

[١] عبد العزيز الشناوي : مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢٥ .

[٢] مرجع سابق ، ج١ ، ص٥٢٦ .

[٣] أرشيف رئاسة الوزراء : وثيقة رقم ٦٦٣٣ HAT.H .

وقــد قامــت الإنكشــارية بتمرد على السلطان سليم الثالث وعــزلوه ، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل وصل إلى قتلهِ ، وكان مــن نتائج قتل سليم الثالث أن قام تمرد عارم في جميع الأوساط ، أصبح الوضع غير محتمل ، خاصة وأن الدولة العثمانية تعاني من عدة جبهات مفتوحة عليها.

ولم يتوقف شغب الإنكشارية في عهد مصطفى الرابع إذ أنهم تمــردوا على السلطان عندما أقال شيخ الإسلام عطاالله أفندي ، لأنه كان يحرضهم على الأعمال العدوانية ، فتمردوا عند إقالتهِ وأعادوه إلــى منصــبهِ مــرة أخرى فطغى واستبد بالأمر وزادت الأحوال تــكدراً . [١] في أثناء ذلك كانت الحرب دائرة بين الدولة العثمانية وروسيا عند نهر الطونة ، فوصلت أخبار إبطال النظام الجديد إلى الإنكشــارية فــي ســاحة المعــركة ، فسعدوا بذلك كثيراً وشملهم الســـرور ، وعندما أحسوا من القائد العام الصدر الأعظم حلمي إبراهيم باشا ، عدم ارتياحه لما حدث من إلقاء النظام الجديد ، قاموا بقتلهِ ، وتعيين جلبي مصطفى باشا مكانه ، وبالتالي فشلت الجيوش العثمانية في الاستمرار في الحرب ، ولو أن جيوش روسيا متكاملة فــي مواجهة الدولة العثمانية لكانت نتائج هذه الحروب وخيمة على الدولة العثمانية ، فقد كانت أغلب جيوش روسيا تواجه الإمبراطور نابليون بونابرت . [٢]

---

[١] إسماعيل سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج١ ، ص٢٦١ .

[٢] محمد فريد المحامي : المصدر السابق ، ص٣٩٤ .

لقد عمت الفوضى في صفوف الإنكشارية ، لدرجة أنهم يقتلوا قـائدهم العـام ، وفـي وسط حرب ، لمجرد أنه لم يستحسن إلغاء الـنظام الجديـد ، لقـد وصـلوا إلـى درجة كبيرة من الاستهتار والفوضى.

إن وصول الفتن والحروب والخروج عن القانون ، وحدوث الخصومات أدت إلى تزايد الكروب على الناس وكثر الظلم والجور وكل ذلك بسبب شغب الجنود والعساكر الإنكشارية . [١]

أما عهد محمود الثاني فقد كثرت تمرداتهم في الأقاليم وتعديهم على أمن الأهالي ، بل وتعدى ذلك بتعديهم على الوالي العثماني في الأقليم.

فعلـى سبيل المثال نجد أنهم تعرضوا لمصطفى باشا الوالي العثماني في البوسنة ، بالإفتراء والاعتداء ، ونشروا حولهُ الأكاذيب كما تعدوا على قاضي محكمة ترافنيك ، حتى فر من أيديهم ، وكان هدفهم من هذا التمرد مدهُ حتى يصل إلى أستانبول . [٢]

كما زادت تمرداتهم في محافظة خربوت ، على الرغم من أن أغـا الإنكشـارية هـناك أظهر الطاعة ، إلا أن الجنود كانوا على العكـس ، كثرة اعتداءاتهم ، مما سبب صدمة للدولة العثمانية حيث رأت أنـه لا يجـوز أن تـترك المـنطقة علـى هذا الحال ، لأن الإنكشارية بدأت تتدخل في السياسة العامة ، فقررت الدولة العثمانية

---

[١] عـبد الغنـي النابلسـي : الكشـف الشافي والبيان الوافي في معرفة حوادث الزمان في دولة آل عـثمان ، مخطـوط محفـوظ في مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، تحـت رقم ٢٠٦٦٦ ، ورقة ٨.

[٢] أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ٢١٨١٣ HAT.H .

عزل الأغا وتعيين مكانه آخر ، وأمر السلطان بإعدام المتسببين في هذه التمردات . [1]

كمـــا كثر تعديهم على مزارع الأهالي في بلاد الشام وخاصة قصـــبة ســـلوري ، وكـــانوا يعـــتدون على المزارعين في منازلهم ويهـــتكوا الأعـــراض، وأظهروا القوة والخشونة ، مما دفع بنائب سلوري الاستنجاد بإستانبول لإرسال ضباط لحفظ الأمن في المنطقة من تعديات الإنكشارية . [2]

ومـــن العرض السابق يتضح لنا أنهم تسببوا في ضياع كثير مـــن ممتلكات الدولة العثمانية ، كما وأنهم تسببوا في توقف حركة الفـــتوحات فـــي بعـــض الأحيان ، ومما لا شك فيه أن تدخلهم في المسائل السياسية العليا كان له أبلغ الأثر في إرهاق الدولة داخلياً ، وجعلها دائماً في حالة ترقب لهم ولأعمالهم ، مما جعلها مشغولة في أمورها الداخلية ، الذي أدى بدوره إلى إنقضاض الأعداء عليها من كل الجهات .

لا شـــك أن ضـــعف شخصية السلاطين ساعد على ظهورهم بشـــكل كبير على مسرح الأحداث السياسية ، وبلغوا من القوة أنهم قضوا على أي سلطان قوي ، أو محاولة إصلاح جادة ، وهم بذلك وقفـــوا موقفـــاً عدائـــياً من الإصلاح والنظم الحديثة ورفضوا أي استخدام للأسلحة الحديثة، مما عطل من تطويرهم ومن ثم خسرانهم أغلب المعارك التي دخلوها .

---

(1) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ١٦٦٧٣ ، خط همايوني H.H .

(2) أرشيف رئاسة الوزراء بأستانبول : رقم الوثيقة ١٧١٠٧ HAT.H .

ومـــن هـــذا العرض السابق يتضح لنا أنهم تسببوا في ضياع كثـــير مـــن ممتلكات الدولة العثمانية بسبب شغب الجنود والعساكر الإنكشـــارية.[1]، كمـــا وأنهم تسببوا في توقف الفتوحات في بعض الأحـــيان ، ومما لا شك فيه أن تدخلهم في المسائل السياسية العليا كـــان له أبلغ الأثر في إرهاق الدولة داخلياً ، وجعلها دائماً في حالة ترقب لهم ولأعمالهم مما جعلها مشغولة في أمورها الداخلية ، مما أدى إلـــى انقضـــاض الأعـــداء عليها من كل الجهات ، لا شك أن ضـــعف شخصية السلاطين ساعد أيضا على ظهورهم بشكل كبير علـــى مسرح الأحداث السياسية ، وبلغوا من القوة ، لدرجة أنه عند اعـــتلاء أريكة الحكم العثماني سلطان قوي ، وأراد الإصلاح قاموا بخلعـــهِ وقـــتلهِ ، وبذلـــك وقفوا موقفاً معادياً من الإصلاح والنظم الحديـــثة ورفضـــوا أي اســـتخدام للأسلحة الحديثة ، مما عطل في تطويرهم ومن ثم خسرانهم أغلب المعارك التي دخلوها .

[1] عـــبد الغنـــي النابلســـي : الكشـــف الشافي والبيان الوافي في معرفة حوادث الزمان في دولة آل عـــثمان ، ورقة٨.